

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU69173044

150 lb5

al-Shakhsyah / tali

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

الشخصية

تأليف

محمد عتيق الأبراشي

مخرج جامعة أكسفورد

وأستاذ التربية وعلم النفس بدار العلوم



مكتبة جامعة القاهرة

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

150
I 65

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

٩١٥ Teachers 25/6/45
318
الشخصية

تأليف

محمد عطية الأبراشي

مخرج جامعة أكسفورد

المدرس بدار العلوم

حقوق الطبع والنقل محفوظة للمؤلف

الطبعة الرابعة ١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤ م

منقحة ومزينة



ملنزم طبعه ونشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بصر

45-39141

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العليّ القدير ، والصلاة والسلام على نبيه الكريم .
وبعد ، فإن أكبر دليل على توفيق الله ، وتشجيع القراء نقاد
الطبعة الأولى من كتاب « الشخصية » بعد ظهوره بأشهر قليلة .
وإني أنتهز هذه الفرصة لأقدم للقراء ، وللصحافة العربية ،
ولكل من قرظه ونقده جزيل الشكر ، ووافر الشناء على ما قاموا
به من تشجيع وبحث وتمحيص ، وما كتبوه عنه من مقالات ،
وما قدموه من إرشادات .

وللرغبة في الوصول إلى الحقيقة أعدت النظر فيه ، ونقحته ،
وأضفت إليه كثيراً من الاستشهادات ؛ توضيحاً لما فيه من
النظريات .

والآن يسرني أن أتقدم به إلى القراء في صورة أخرى جديدة ،
وكان رائدي دائماً البعد عن الخفاء والالتواء في شرح الحقائق . وقد

ضبطت الكلمات الصعبة وشرحتها ؛ حتى لا أثقل على القارئ في البحث عن ضبطها ومعانيها .

وإني بما ذكرت من أخبار الأبطال ، والعظماء من الرجال ، الشرقيين والغربيين ؛ وبما أوردت من حكمهم البالغة ، وكلماتهم الماثورة ؛ وبما وضحت من النظريات العلمية التي زكتها التجارب ، ودعمتها البراهين من علوم النفس والأخلاق والاجتماع — أرجو أن يوفقني الله إلى تمهيد سبل العلم للراغبين فيه ، وتقويم المعوج من الأخلاق ، وتكوين شخصيات عظيمة تكون عماداً لمصر في حاضرها ؛ وقواماً لها في مستقبلها ؛ لتعيد مجدها الماضي ، وحضارتها الخالدة .

هذا وقد فصلت الفهرس في آخر الكتاب تفصيلاً يسهل على القارئ معرفة ما يحتاج إليه من الآراء والنظريات والاستشهادات .

والله المستعان ، وهو حسبي ، ونعم الوكيل .

محمد عطية الأبراشي

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد فقد كتب كثير من علماء النفس عن الشخصية ، وأثرها في الحياة الإنسانية ، وكتبنا عنها فصلاً في كتابنا^(١) « في علم النفس » ، ولكن عن لي فيما بعد أن موضوعاً كالشخصية يحتاج إلى كثير من التفصيل والتمثيل .

والآن يسرني أن أتقدم إلى قراء العربية ، وبخاصة شباب اليوم ورجال الغد ، بذلك الكتاب — إن صح أن نسميه كتاباً — عن المثل الأعلى للشخصية ؛ راجياً أن يكون ذلك المثل خير قدوة للطلبة والطالبات ، والآباء والأمهات .

ولا أدعى أني كتبت أو أستطيع أن أكتب ، كل ما يتعلق بالشخصية في كتاب ؛ فكل ناحية من نواحيها تتطلب كتاباً خاصاً .

(١) انظر الفصل الأخير من الجزء الثالث من كتاب « في علم النفس » تأليف الأستاذين حامد عبد القادر ، ومحمد عطيه الإبراهيمي .

وقد حاولت ألا يكون الأسلوب علمياً جافاً ، ووضحته بكثير من الشواهد الأدبية المتصلة بالناحية العامة للشخصية ، لجاء سهل اللفظ ، واضح العبارة .

فإذا نجحت في توضيح ذلك البحث فذلك ما أبعيه ، وإذا وفقت في أن يكون لتلك الرسالة أثر في تكوين شخصيات مصرية قوية ، تكون دعامة متينة ، وذخيرة نفيسة لمصر الحديثة ، فهذا كل ما آمله وأرجوه . أسأل الله الهداية والتوفيق مـ

محمد عطية الدبراسي

الأحد { ١٨ من رجب سنة ١٣٥٥ هـ .
٤ من أكتوبر سنة ١٩٣٦ م .

الفصل الأول

الشخصية

مقدمة : —

إذا تقدّم أحدُ أقاربك من الشبانِ إلى وظيفةٍ من الوظائفِ ،
ثم سئلتَ عمّا تعرفه عنه بالتفصيل فقد تُجيبُ بأنه شابٌ أمينٌ نزيهٌ ،
صادقٌ في قوله ، كريمٌ الخلقِ ، حسنُ السلوكِ ، سليمُ القلبِ ، طاهرُ
السريّةِ ^(١) ، كثيرُ التفاوُلِ ، قليلُ التشاؤمِ ، يقولُ ما يعتقُدُ ، ويعتقُدُ
ما يقولُ . هذا من الوجهةِ الخلقيةِ ؛ أما من الوجهةِ العقليةِ فهو :
ذكيٌّ ، حاضرُ البديهةِ ^(٢) ، حسنُ البصيرةِ ^(٣) ، صافيُ الذهنِ ، صادقُ
الحسِّ . وأمّا من الناحيةِ الاجتماعيةِ فهو : محبٌ للتعاونِ ، عدوٌّ
للأثرةِ ^(٤) ، يشاركُ الناسَ في مسرّاتهم ، ويؤاسيهم ^(٥) في أحزانهم ،
يوقّرُ ^(٦) الكبيرَ ، ويعطفُ على الصغيرِ ، مطيعٌ للرئيسِ ، وفيّ للنظيرِ .
وأمّا من الناحيةِ الجسميةِ ، فهو قويُّ الجسمِ ، مُعتدلُ القامةِ ، حسنُ

(١) السر الذي يكتُم . (٢) الذهن . (٣) الحجة .

(٤) حب النفس والاستبداد بالشيء . (٥) يعزيهم . (٦) يعظم .

الهيئة ، جميل الذوق . وأما من الوجهتين العامية والعملية ، فهو :
مثل في النشاط وأداء الواجب ، واسع الاطلاع ، غزير المادّة . . .
وما إليها من الصفات المختلفة التي يتصف بها ذلك المثل الأعلى من
الشباب .

فمجموع هذه الصفات يُصوّر الشخصية العليا بصورة واضحة
مفصلة . وقد أثبت علم النفس التطبيقى أن قوّة الشخصية شرط
أساسى للنجاح فى الحياة ، وأن المؤهلات العامية وحدها لا تكفى
للنجاح ، بل يجب أن تُصحب بالشخصية القوية ؛ فكثيرون من
الأطباء والمدرّسين والمحامين وغيرهم ، قد أخفقوا فى حياتهم العملية
لضعف شخصياتهم ، مع كفايتهم من الوجهة العامية^(١) .

ولكن ما تلك الشخصية التي طالما سمعنا الناس — ولا نزال
نسمعهم — يتكلمون عنها ، ولا ندري من أمرها شيئاً ؟ وإجابة عن
هذا السؤال نقول :

(١) ولا يفهم مطلقاً مما تقدم أن الشخصية مقصورة على الصفات المحمودة ، بل إن
هناك أشخاصاً ذوى شخصيات معروفة متصفين بصفات ممقوتة ؛ كالحيانة واللؤم ،
والتشاؤم ، والحداع ، والغباوة ، والأثرة ، وحب العزلة ، وقبح النظر ، والحق ،
والمهارة فى التلصص .

تعريف الشخصية :

ليس من السهل أن نُحدِّد الشخصية ، ونعرِّفها تعريفاً علمياً جامعاً مانعاً ؛ فهي كالكهرباء والمغناطيسية والمذياع « الراديو » — لا تعرّف إلا بآثارها ، ولكن هذا كله لا يمنعنا أن نحاول البحث عن سرّها وتعريفها تعريفاً تقريبياً ، فنقول : —

(١) الشخصية : هي مجموع الصفات والمزايا الذاتية التي يمتاز بها الشخص من غيره^(١) . أو هي :

(٢) مجموعة الصفات العقلية والخلقية والجسمية والإرادية التي يتوجّب بها الإنسان . أو هي :

(٣) مجموعة الفروق التي تميّز الشخص عن غيره .

والحق أن هذه التعريفات كلّها تقريبية ، وأن الشخصية لا يمكن تحليلها إلى عناصرها الأولية تحليلاً محسّساً ، ولكنها تبدو لنا في مقدار ما عند الشخص من الاستقلال الفكري ، وحضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وقوة الروح . . . وهي كالحب والكراهة اللذين لا يمكن تحليلهما عادة ؛ فقد تحب شخصاً أو تبغضه مجرد رؤيته بدون معرفة

(١) سواء أكانت تلك الصفات حسنة أم قبيحة .

سابقة، وربما لا يمكنك إبداء السبب، وكلُّ ما تستطيع أن تذكره هو أن تقول: إني أحبه أو لا أحبه؛ أما السبب فلا يمكن تعليله؛ لأنه أمرٌ معنوي، وسرٌّ خفيٌّ يتعلق بشخصية ذلك الرجل. وفي الأثر: «الأرواحُ جنودٌ مجنّدةٌ»، فما تعارفَ منها ائتلف، وما تناكرَ منها اختلف؛ أي الأرواحُ جنودٌ مجتمعةٌ، فالتى بينها تعارفٌ وتوافق يأتلف بعضها بعضاً، ويسرُّ بِلِقائِهِ، ويفرحُ باجتماعِهِ، لاتفاقٍ في المبدأ، وتقاربٍ في الروح.

وقد يكونُ الشعورُ بالحبِّ أو البُغضِ ناشئاً عن صفاتٍ أو عيوبٍ خاصةٍ في الشخص الذي نعرفه ونقابله من حينٍ لآخر؛ فنحنُ نُحبُّ فلاناً مثلاً؛ لأنه مخلص، كريمٌ، شجاعٌ، متفائلٌ، يؤاسي الفقير، ويساعدُ البائس. ونكرهُ فلاناً؛ لأنه لا يعرفُ الإخلاصَ، والإخلاصُ لا يعرفه، يتمثلُ فيه البُخلُ، والجبنُ، والتشاؤمُ، والقسوةُ، والغِلظةُ، لا يَجْنِثُ إلى مسكين، ولا يتألمُ لحزين. وفي مثل تلك الأحوال نعرفُ إلى حدٍّ ما سببَ المحبةِ أو الكراهية، ولكن ليس ذلك بسهولةٍ دائماً؛ فقد نحبُّ الشخصَ لمظهرِهِ، أو نكرههُ لملك

المظاهر ، ولا يمكننا أن نوضح الأسباب التي جذبتنا إليه ، أو التي نقرّتنا منه . والسبب الجوهرى هو أن شخصيته محبوبة أو مكروهة .

الشخصية هبة فطرية ^(١) أم صفة مكتسبة ؟

الجواب أن الشخصية تؤهب بالفطرة ^(٢) ، وقد تُكتسب بالتربية الحقة ، ولكن الفطرية أقوى من المكتسبة . ولو كانت الشخصية هبة طبيعية فسنسب لكنا ضحايا الظروف ، وما كان للتربية أى أثر فى تكوين العظماء من رجال الدين والعلم والأدب والفن ، ولكن أثرها لا يُنكر فى تكوين الشخصية والعظمة فى نفوس العظماء . وهنا نسأل : هل قامت التربية وقام المرءون حقاً بواجبهم نحو تربية الشخصية ؟ هل قاموا بواجبهم وقد صرنا نفكر فيما فكر فيه غيرنا ، ونسلكم بما قاله سوانا ، ونفعل مثل من سبقنا ؟ إننا صرنا مُقلّدين فى أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا ، مُهملين أنفسنا وشخصياتنا ؛ لأن التربية تربية اتكالية ، لا تعرف معنى الثقة بالنفس ، والاعتماد على النفس فى التفكير والقول والعمل . قال صلى الله عليه وسلم : « لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس ؛ إن

أحسنوا أحسنتم ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وُطّنوا أنفُسكم إن
أحسنَ الناس أن تحسّنوا ، وإن أساءوا ألا تُسيئوا معهم . »

وقد نادى كبارُ المربين وبخاصة « السير برنسي نَن »^(١) « المربي
الإنكليزي الكبيرُ بأن الغرض من التربية هو تربية الشخصية المستقلة .
وكتبُ التربية في وادٍ ، والمدارسُ في وادٍ آخر ؛ فبينما نقولُ : يجبُ
أن يُربّى الفردُ تربيةً كاملةً من كلِّ الوجوه جسمياً وعقلياً وخلقياً
 واجتماعياً ، نجدُ أن الفردَ مُهمَلٌ إهمالاً تاماً من جميع الوجوه ، وأن
شخصيته تُطَبَعُ بالطابع المدرسيّ ، وتُصَبُّ في قالبٍ خاصٍّ فنفقِدُ
مظاهرها الطبيعية ؛ كُلُّ ذلك حبّاً للنظام . ولسنا ننكرُ أن النظامَ
يجبُ أن يكونَ سائداً ، بل إننا ننادى بالنظام ، ونقول دائماً :
النظامُ هو الحياةُ ، والحياةُ هي النظامُ ، ولكننا نعترضُ على الطريقةِ
التي بها يسوّدُ ذلك النظامُ ، تلك الطريقةُ التي تقتلُ شخصيةَ
الطفلِ ، وتُضعِفُ مواهبه ، وتُريدُ طريقةً أخرى بها يستتبُّ
النظامُ من غيرِ إضرارٍ بعقليةِ الطفلِ أو وجدانه أو إرادته أو جسمه
أو شخصيته . وليست هذه الطريقةُ بسيطةً ؛ لأنها تتطلبُ مشاركة

في الوجدان ، وفهماً لكلِّ فردٍ من جهة الذكاء والميول والبيئة والظروف . . . وما ذلك بالأمر الهين ؛ فنحنُ لا نُفكرُ إلا في المظاهر والنظام الشكليّ ، والسكون العسكريّ ، مهما ضحينا في سبيل هذه الأشياء من الضحايا . وإذا تحققت الثقة بين المعلم والمتعلم ، ووجدت الصلة الروحية بينهما ، فمن المحال أن تكون هناك صعوبة في نظامٍ أو غيره ، ولن يُضحَى بشخصية الفرد أو الأفراد بعدُ .

الاختلاف في الشخصية

كما أنَّ الناس يختلفون في الذكاء والميول الفطرية ، كذلك يختلفون في الشخصية . فبينما تجدُ هذا قوى الشخصية ، قد تجدُ ذاك حاملاً ضعيف الشخصية ، وكما أنَّ الشخصية تختلف باختلاف الأفراد كذلك تختلف باختلاف الشعوب ؛ ففي الشخصية الألمانية تتمثلُ الروحُ العسكرية والطاعة العمياء ، والالتكاملُ على الحكومة في كثيرٍ من الأعمال . وفي الشخصية الإنكليزية تبدو الثقة بالنفس ، واحترام الذات ، وتقدير الحرية الشخصية ، والاستماتة في سبيلها . وفي الشخصية الأمريكية تظهرُ الروحُ العامة أو « الديمقراطية » ،

وعدمُ الاكتراثِ للتقاليدِ ؛ لأن أمريكا أمةٌ حديثةٌ لا تقاليدَ لها .
 وفي الشخصيةِ الفرنسيّةِ تغلبُ العاطفةُ على التفكيرِ ، والنظرياتُ
 على الأعمالِ ، وتكثرُ الآمالُ ، والميلُ إلى الخيالِ ، وحُبُّ الظهورِ ؛
 فكلُّ فرنسيٍّ يريدُ أن يكونَ ضابطاً إذا تقدّمَ للحربِ ، ولا ندرى
 مِنْ أينَ يُؤتَى بالجنودِ إذا كانَ الجميعُ ضباطاً . وإذا كانوا ضباطاً
 فإنهم لا يُفكرون في الجنودِ ولا يختلطون بهم ؛ خوفاً من أن يقلَّ
 احترامُهم . والمثلُ يقالُ في العلاقةِ بين المدرسينَ والتلاميذِ ؛ فأولئك
 في وادٍ ، وهؤلاءُ في وادٍ آخرَ ، والصِّلَةُ بين هؤلاءِ وأولئكِ
 لا تتجاوزُ صِلَةَ الحِجْرَةِ الدراسيّةِ ، نزولُ بمغادرتها ، وتجدّدُ
 بالعودةِ إليها .

فالشخصيّةُ صفةٌ نسبيّةٌ ، وقوّةٌ سرّيّةٌ ، توجدُ في كلِّ شخصٍ
 إلى حدٍّ ما ، وتختلفُ في نوعِها وقوتِها باختلافِ الأشخاصِ . وقد
 تكونُ بارزةً واضحةً في بعضِ الأفرادِ يشعرُ بها الإنسانُ في الحالِ ،
 وقد تكونُ كامنةً خفيّةً في بعضهم الآخرِ .

ولكلِّ فردٍ صفةٌ تخصُّه ، وشيءٌ يُعرفُ به ؛ فهيرودُسُ كانَ

معروفاً بالظلم ، وسيدنا عمرُ بنُ الخطابِ (رضى الله عنه) كان مشهوراً بالعدالة ، وعمرُ بنُ عبد العزيز بالزهد ، ومعاويةُ بالسياسة والحلم ، وخالدُ بنُ الوليدٍ وصالحُ الدين الأيوبيُّ بالبطولة والشجاعة والإقدام ، وحاتم الطائي بالكرم ، ومُسَيْلِمَةُ بالكذب ، و(شَارْدِ كَنْز) بالدفاع عن الفقراء ، و(إسحق نيموتن) و(أديسون) بالمثابرة ، و(نابليون) بقوة الإرادة والعزيمة ، و(أبراهام لنكولن) بالعطف على المساكين ، و(جورج واشنطن) بالوطنية الصادقة ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول بالإخلاص في الدفاع عن الوطن ، و(شارلى شابلن ، ولوريل ، وهاردى) بالفكاهة .

وليست الشخصية مقصورةً على جنسٍ دون آخر ؛ ولا على طبقةٍ دون أخرى ؛ فكما تكون بين المتعلمين تكون بين غيرهم ، وكما تكون بين المدنيين تكون بين القرويين ، وكما تكون بين الرجال تكون بين النساء ، وكما تكون بين الأغنياء تكون بين الفقراء .

ولكلِّ تفكيره وتقاليده وطرقه ومعيشته الخاصة .

الفصل الثاني

العناصرُ الجوهرية التي تتكوَّن منها الشخصية القوية
 إنّ العناصرَ الجوهريةَ التي تتكوَّن منها الشخصيةُ القويةُ
 كثيرةٌ، منها : الجاذبيَّةُ، والنشاطُ العقليُّ، والمشاركةُ الوجدانيةُ،
 والشجاعةُ، والحكمةُ، والتفauُّلُ، والتواضعُ، وحُسنُ مَظهرِ الإنسانِ
 وقوامِه^(١)، وقوةُ البيانِ، والثقةُ بالنفسِ، واعتدالُ المزاجِ . ولنتكلمُ
 عن كلِّ عُنصرٍ منها فنقول :

١ - الجاذبيَّة

هي قوَّةٌ طبيعيَّةٌ إنّ وُجِدَتْ في الشخصِ استطاعَ أن يجتذبَ
 قلوبَ غيره ممن يتصلون به، بدونِ أن يتكلَّفَ أو يتصنعَ . وهذا
 العنصرُ يُمَدُّ من أقوى العناصرِ التي تتكوَّن منها الشخصيةُ إنّ لم نقلْ
 أقواها . ولكن بماذا يجتذبُ الإنسانُ غيره من الناسِ ؟ الجوابُ أنّه
 يستطيعُ أن يجتذبَهم ويُسيطرَ عليهم بأدبه وعلمه، وضبطِ نفسه،

(١) قوام الرجل : قامته وحسن طوله .

وسداد^(١) رأيه . وسُرعةِ خاطِره ، وحُسْنِ حديثه ، وكرمِ خلقه ،
ومُرَاعاةِ شعورهم ، ومُشاركتهم في وجدانهم . وهذه الصفات بعضها
وراثي ، وبعضها يمكن أن يُكتسبَ بالتربية والتعليم ، في البيتِ
والمدرسةِ والملعبِ والمجتمع .

وقد يَسْتَقِيلُ الإنسانُ الشخصَ قبلَ أن يَحْتَبِرَهُ ، وبالتحادثِ
معهُ قد يُعْجَبُ بعلمه وحديثه ، فيتبدَّلُ الحالُ ، فيَصِيرُ النفورُ إعجاباً ،
والازدراءُ إجلالاً .

وبحسْنِ المعاملةِ ، واللِّينِ في غيرِ ضَعْفٍ ، يَجْتَذِبُ الإنسانُ
قلبَ غيره ، ويصلُ إلى أشياء لا يمكنه الوصولُ إليها لو التجأ إلى
الشدةِ والعنفِ . وبالسياسةِ والقوةِ الروحيةِ تستطيعُ أن تحصلَ على
غَرَضِكَ ، وتكسِبَ ثقةَ الناسِ بك .

والأدبُ أكبرُ وسيلةٍ لِاجْتِذابِ قلوبِ الناسِ جميعاً ؛ فإنَّ
من كَثُرَ أدبه كَثُرَ شرفه وإن كان قبلُ وضعياً ، وبعْدَ صيته
وإن كان خاملاً ، وساد^(٢) وإن كان غريباً ، وكثُرَت الحاجةُ إليه
وإن كان مُقتراً .

(١) صواب . (٢) صار سيِّداً .

الفصل الثالث

٢ — النشاطُ العقليُّ أو الذكاء

العنصرُ الثاني من العناصر المكوِّنة للشخصية القوية هو النشاط العقليُّ، أو الذكاء، وبعبارةٍ أخرى حضورُ الذهن، وسرعة الخاطر، وصفاء القرينة^(١). فقد يكونُ الرجلُ مثقفاً، واضحَ التفكير، غزيرَ المادة، واسعَ الاطلاع، ولكنه ربما لا يكونُ مُتَقَدِّ العقل، وَضَاءَ الفكر، حاضرَ البديهة، فلا يعرفُ المرادَ باللفظِ^(٢)، كما لا يفهمه باللفظ، ولا يُعَايِنُ في الناظرِ^(٣) ما يَجْرِي في الخاطر^(٤)، ولا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْرِكَ ما يرمى إليه مُحَدِّثُهُ، ولا أَنْ يُشَارِكَهُ في رأيه. وقد تكونُ المرأةُ وُسَيْمَةً^(٥) الوجه، حَسَنَةً المنظر، جميلةَ الملبس، ولكنها فاقِدةُ ذلك النشاطِ الفكريِّ والاتقادِ العقليِّ، فتعجزُ عن التأثيرِ في غيرها، أو اجتذابه أو السيطرة عليه، فهي كصورة جميلة المنظر، ولكنها فاقدة الروحِ الفنيَّة، تلك الروح التي تؤثر في الصورة، فتُعْطِيها قوَّةً وتأثيراً، وحياةً معنويةً.

(١) الذهن. (٢) الإشارة. (٣) التأمل. (٤) النفس. (٥) حسنة الوجه.

فللنشاطِ العقليِّ تأثيرٌ حسنٌ في شخصيةِ الإنسانِ ، وفي ارتفاعِ منزلتهِ بينَ إخوانهِ وذَوِيهِ . وللعباوةِ وقلةِ الفطنةِ والكسلِ العقليِّ أثرٌ سيِّئٌ في خمولِ الشخصِ وتأخُّرهِ وعجزه ، وارتكابهِ الجرائمِ أحياناً . ولا عجبَ إذا قلنا : إنَّ معظمَ المجرمينَ من الأغبياءِ وضعافِ العقولِ . وتبدُّو شخصيةَ الأذكياءِ في أعمالهم وأقوالهم ، كما تبدُّو في منطقتهم وتفكيرهم المنظم ، وآرائهم المرتبة ، وحُججهم القوية ، وحسنِ اعتذارهم ، وبُعدِ نظرهم ، وقدرتهم على التخلصِ بسهولةٍ من المشكلاتِ التي تعترضهم بما أُوتوا من نشاطٍ عقليٍّ ، وحِدَّةِ ذهنٍ ، وصدقِ حسٍّ . وممَّن كان يُشهدُ لهم بالذكاءِ وحضورِ البديهةِ ، كثيرٌ من رجالِ العربِ ونسائهم وأطفالهم . ولنذكرُ لك كثيراً من قصصهم فنقول :

قيلَ للعبَّاسِ بنِ عبدِ المطلبِ : أأنتَ أكبرُ أم رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ؟ قال : هوَ عليه الصلاةُ والسلامُ أكبرُ مِنِّي ، وأنا وُلِدْتُ قبلَهُ .

وقيلَ : شخصٌ ^(١) مُضَرٌّ وريعةٌ وإيادٌ وأنمارٌ أولادُ نزارٍ إلى

(١) شخص من بلد إلى بلد : ذهب .

أَرْضِ نَجْرَانَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَسِيرُونَ إِذْ رَأَى مُضْرَّ كَلًّا^(١) قَدْ رُعِيَ، فَقَالَ:
الْبَعِيرُ الَّذِي رَعَى هَذَا أَعُورٌ . فَقَالَ رَبِيعَةُ : وَهُوَ أَزُورٌ .
وَقَالَ إِيَّادُ : وَهُوَ أَبْتَرٌ . وَقَالَ أَنْعَارُ : وَهُوَ شَرُودٌ .

فَلَمْ يَسِيرُوا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى لَقِيَهُمْ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ^(٢)، فَسَأَلَهُمْ
عَنِ الْبَعِيرِ . فَقَالَ مُضْرٌّ : أَهْوَأُ عُورٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ رَبِيعَةُ : أَهْوَأُ
أَزُورٌ^(٣) ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ إِيَّادُ : أَهْوَأُ أَبْتَرٌ^(٤) ؟ قَالَ : نَعَمْ .
قَالَ أَنْعَارُ : أَهْوَأُ شَرُودٌ^(٥) ؟

فَقَالَ الرَّجُلُ : نَعَمْ ، هَذِهِ وَاللَّهِ صِفَاتُ بَعِيرِي ، دُلُّونِي عَلَيْهِ .
فَخَلَفُوا أَنَّهُمْ مَا رَأَوْهُ . فَلَزِمَهُمْ ، وَقَالَ : كَيْفَ أَصَدِّقُكُمْ وَأَنْتُمْ
تَصِفُونِ بَعِيرِي بِصِفَتِهِ ؟

فَسَارُوا حَتَّى قَرَّبُوا نَجْرَانَ ، فَتَزَلُّوا بِالْأَفْعَى الْجُرْهُمِيِّ^(٦) . فَنَادَى
صَاحِبُ الْبَعِيرِ : هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ وَصَفُوا لِي بَعِيرًا فَقَدْتُهُ بِصِفَتِهِ ،
ثُمَّ أَنْكَرُوهُ .

(١) الكَلَّا: العشب رطباً كان أو يابساً .
(٢) الراحلة: الراكلة .
(٣) الأزور: الذي يقبل على شق حين سيره لميل في صدره ، أو لعلو أحد جانبيه .
(٤) بتره: قطعه قبل الإتمام . والأبتر: المقطوع الذنب . (٥) شرد البعير: نفر ، فهو شارد ، وشروء . (٦) نسبة إلى جرهم وهي من اليمن تزوج فيهم إسماعيل عليه السلام .

فقال الجرهمي : كيف وصفتُموه ولم تروْه ؟

فقال مُضر : رأيته يرعى جانباً ويدعُ جانباً ، فعلمتُ أنه أعورُ .
وقال ربيعة : رأيْتُ إحدى يديه ثابتة الأثر ، والأخرى فاسدة الأثر ،
فعلمتُ أنه أفسدها بشدة وطئه لِأُزوراره . وقال إياذ : عرفتُ
بترهُ باجتماع بعره ، ولو كان ذيباً^(١) لتفرَّق . وقال أُمّار : إنما عرفتُ
أنَّه شروذُ لأنه كان يرعى في المكان الملتف نبتُه ، ثم يجوزُه إلى
مكان أرق منه وأخبث .

فقال الأفعى : ليسوا بأصحابِ بعيرك . ثم سألهم عن أمرهم ،
فأخبروه . فرحب بهم ، وأضافهم ، وبالع في إكرامهم^(٢) . وهذا مثلُ
واضحٍ للفراسة العربية ، والذكاء العربي ، وقوة الملاحظة .
وكانَ أحدُ الهنود الحمر^(٣) يسكنُ كوخاً في غابةٍ موحشةٍ من
غاباتِ أمريكا في عُزلةٍ وانقطاعٍ عنِ العمرانِ . وفي إحدى عوداته
وروحاته إلى كوخه لاحظ شيئاً ، واحتشدت في ذهنه أسئلة ،
وارتسمت على وجهه علاماتُ من ينشدُ شيئاً مفقوداً ، ويريدُ
السؤالَ عن ضالّةٍ ، والحيرةُ تعقدُ لسانه . ثم انفجر قائلاً :

(١) الذيال : الطويل الذيل ، المتبخر في مشيه . (٢) من كتاب ثمرات الأوراق الحموى ج ١ ص ١٠٥ . (٣) هذه القصة مترجمة عن الانجليزية وقد حدثت بأمريكا .

« لَقَدْ سُرِقْتُ . لَقَدْ سَرَقَ اللَّصُّ لَحْمَ الْغِزْلَانِ الْمُجَفَّفِ الَّذِي
كَانَ لَدَيَّ » . ثُمَّ طَفِقَ الْهِنْدِيُّ يَدُورُ بِالطَّرِيقِ ؛ بَاحِثًا عَنِ اللَّصِّ
الَّذِي فَجَعَهُ فِي الْمَدْخَرِ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَسَطًا عَلَى حُرْمَةِ مَنْزِلِهِ . وَسَرَّعَانَ
مَا قَابَلَ جَمَاعَةً مِنَ الرِّجَالِ الْبَيْضِ كَانُوا مَارِّينَ بِالْغَابَةِ فَسَأَلَهُمْ :
أَرَأَيْتُمْ رَجُلًا هَرِمًا قَصِيرًا أَبْيَضَ اللَّوْنِ ، وَمَعَهُ قَذَافَةٌ قَصِيرَةٌ ،
يَتَّبَعُهُ كَلْبٌ صَغِيرٌ ذُو ذَيْلٍ مَقْصُوصِ الشَّعْرِ ؟
فَأَجَابُوا : نَعَمْ . لَقَدْ رَأَيْنَا ذَلِكَ الرَّجُلَ مَارًّا فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ
عَنْ بَعْدِ .

فَقَالَ : إِنْ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ سَرَقَ مِنِّي لَحْمَ الصَّيْدِ .
فَسَأَلُوهُ : وَلِمَ لَمْ تَقْبِضْ عَلَيْهِ حِينَمَا رَأَيْتَهُ ؟
فَأَجَابَ : إِنِّي مَا رَأَيْتُ اللَّصَّ . وَلَوْ رَأَيْتُهُ لَكَانَ لِي مَعَهُ شَأْنٌ يُذْكَرُ .
فَقَالُوا : وَكَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّهُ رَجُلٌ قَصِيرٌ ؟
فَأَجَابَ الْهِنْدِيُّ . عَرَفْتُ ذَلِكَ حِينَ لَا حِظَّتْ أَنَّهُ أَقَامَ كَوْمَةً
مِنَ الْحِجَارَةِ لِيَقِفَ عَلَيْهَا لِلْوُصُولِ إِلَى اللَّحْمِ .
قَالُوا : وَكَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّهُ رَجُلٌ هَرِمٌ ؟

قال : دَلَّنِي الظَّنُّ الصَّائِبُ حِينَ تَفَرَّسْتُ خَطَوَاتِهِ قُرْبَ
الْكُوخِ ، فَعَلِمْتُ مِنْهَا أَنَّ صَاحِبَهَا هَرَمٌ لِقَصْرِ خَطَوَاتِهِ .

قالوا : وَكَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّهُ مِنَ الْبَيْضِ أَمْثَالِنَا ؟

قال : لَا حَظْتُ أَنَّهُ يَثْنِي أَصَابِعَ قَدَمَيْهِ وَهُوَ يَمْشِي ، وَهِيَ عَادَةُ
الْبَيْضِ ، وَلَيْسَتْ عَادَةُ الْهُنُودِ الْحُمْرِ .

قالوا : وَكَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّ قَذَافَتَهُ قَصِيرَةٌ ؟

قال : دَلَّنِي عَلَى ذَلِكَ الْخُلْدُشُ الَّذِي تَرَكَتْهُ فُوهَةُ الْقَذَافَةِ حِينَمَا
أَسْنَدَهَا عَلَى الشَّجَرَةِ . وَأُظِّنُكُمْ سَتَسْأَلُونَنِي عَنْ كَيْفِيَّةِ مَعْرِفَتِي
أَنَّ كَلْبَهُ صَغِيرٌ ، وَذِيلُهُ مَقْصُوصٌ الشَّعْرَ .

قالوا : إِنَّا لَسَأَلُوكَ عَنْ ذَلِكَ .

فَأَجَابَ : صِغَرُ الْكَلْبِ أَنْبَأَتْ عَنْهُ خَطَوَاتُهُ ، وَمَا تَرَكَتْ مِنْ
أَثَرٍ عَلَى الْأَرْضِ . وَلَقَدْ تَفَرَّسْتُ مَوْجِعَ ذَيْلِهِ فِي إِقْعَائِهِ أَمَامَ الْكُوخِ
عَلَى الرَّمْلِ ، فِي حِينَ كَانَ سَيِّدُهُ يَسْرِقُ لَحْمَ صَيْدِي ، فَأَلْهَمْتَنِي تِلْكَ
الْفَرَاسَةَ إلهَامًا صَادِقًا أَنَّهُ ذُو ذَيْلٍ مَقْصُوصِ الشَّعْرِ .

ثُمَّ انْسَابَ الْهِنْدِيُّ فِي الطَّرِيقِ لِيُدْرِكَ اللَّصَّ الَّذِي أَنْبَأَتْ عَنْهُ
آثَارُهُ ، وَفَضَحَتْهُ قُوَّةُ الْمُلَاحَظَةِ وَالْفَرَاسَةِ الَّتِي اشْتَهَرَ بِهَا الْهُنُودُ الْحُمْرُ .

وقيل : استودع رجلٌ آخرَ مالا ، ثم طلبه ، فجعده ، فخاصمه إلى إياس^(١) القاضي ، فقال الطالبُ : إني دفعتُ المالَ إليه .

فقال القاضي : ومن حضرَكَ ؟

قال : دفعته في مكان كذا وكذا ، ولم يحضرنا أحدٌ .

قال : فأى شئ في ذلك الموضع ؟

قال : شجرةٌ .

قال : فانطلقْ إلى ذلك الموضع ، وانظر الشجرة ، فلعلَّ الله تعالى يوضحُ لك هناك ما يتبينُ بهِ حقُّك ، لعلَّك دفنتَ مالكَ عندَ الشجرةِ ونسيتَ ، فتذكرُ إذا رأيتَ الشجرةَ ، فمضى الرجلُ .

وقال إياسُ للمتهم : اجلسْ حتى يرجعَ خصمُكَ .

فجلسَ وإياسُ يَقْضِي وينظرُ إليه ساعةً ، ثم قال له : يا هذا ! أترى صاحبك بلغَ موضعَ الشجرةِ التي ذكرَ ؟

قال : لا !

قال إياسُ : يا عدوَّ اللهِ إِنَّكَ خائنٌ !

(١) هو إياس بن معاوية ، يضرب به المثل في الذكاء والفراسة ، كان قاضيا بالبصرة ، ومات سنة ١٢٢ هـ ، وعمره ٧٦ سنة .

قال : أَقِلْنِي ^(١) أَقَالَكَ اللَّهُ ! فَأَمَرَ مَنْ يَحْتَفِظُ بِهِ حَتَّى جَاءَ الرَّجُلَ .
فَقَالَ لَهُ إِيَّاس : قَدْ أَقَرَّ لَكَ خَصْمُكَ بِحَقِّكَ ، فَخُذْهُ .

وَحُكِيَ : دَخَلَ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ ، فَقَارِبَ
خَطْوَهُ ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ : لَقَدْ كَبِرْتَ سِنَّكَ . قَالَ : فِي طَاعَتِكَ . قَالَ :
وَإِنَّكَ لَجَدُّ ^(٢) . قَالَ : عَلَى أَعْدَائِكَ . قَالَ : وَأَرَى فِيكَ بَقِيَّةً . قَالَ :
هِيَ لَكَ . فَاَنْظُرْ إِلَى أَجْوِبَةٍ مَعْنٍ تَجِدُ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى سُرْعَةِ الْخَاطِرِ ،
وَحُسْنِ الْجَوَابِ .

وَقِيلَ إِنَّ غَلَامًا أَشْرَابَ ^(٣) . لِلْكَلَامِ وَقَدْ حَضَرَ مَعَ وَفَدِ أَهْلِ
الْحِجَازِ لَمَّا اسْتُخْلِفَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، فَقَالَ
عُمَرُ : يَا غَلَامُ ، لِيَتَكَلَّمَ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْكَ .

فَقَالَ الْغَلَامُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ : قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ ؛
فَإِذَا مَنَحَ اللَّهُ عَبْدَهُ لِسَانًا لَا فِظًا ، وَقَلْبًا حَافِظًا ، فَقَدْ أَجَادَ لَهُ الْاِخْتِيَارَ .
وَلَوْ أَنَّ الْأُمُورَ بِالسِّنِّ لَكَانَ هَهُنَا مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِمَجْلِسِكَ مِنْكَ !
فَقَالَ عُمَرُ : صَدَقْتَ ، تَكَلَّمْ ؛ فَهَذَا السَّحَرُ الْحَلَالُ .

فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، نَحْنُ وَفَدُ التَّهْنِئَةِ ، لَا وَفَدُ الْمَرْزُوقَةِ ^(١) ،
وَلَمْ تُقَدِّمْنَا إِلَيْكَ رَغْبَةً وَلَا رَهْبَةً ؛ لِأَنَّا قَدْ أَمِنَّا فِي أَيَّامِكَ مَا خِفْنَا ،
وَأَدْرَكْنَا مَا طَلَبْنَا ، فَسَأَلَ عُمَرُ عَنْ سَنِّ الْعِلَامِ ، فَقِيلَ عَشْرُ سَنِينَ .
وَقَدْ أُدْخِلَ طِفْلٌ يُدْعَى الرَّكَاصَ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ سِنِينَ إِلَى
الرَّشِيدِ لِيَتَعَجَّبَ مِنْ فِطْنَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ : مَاذَا تُحِبُّ أَنْ أَهْبَ لَكَ ؟
قَالَ : جَمِيلَ رَأْيِكَ ، فَإِنِّي أَفُوزُ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . فَأَمَرَ بِدَنَانِيرَ
وَدِرَاهِمَ فَصُبَّتْ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ : اخْتَرِ الْأَحَبَّ إِلَيْكَ . فَقَالَ :
الْأَحَبُّ إِلَيَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذَا مِنْ هَذِينَ ، وَضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَى
الدَّنَانِيرِ ، فَضَحِكَ الرَّشِيدُ ، وَأَمَرَ بِضَمِّهِ إِلَى وَلَدِهِ وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِ .
وَزَارَ خَلِيفَةُ بْنُ بَنِي الْعَبَّاسِ يَوْمًا وَزِيرَهُ فِي دَارِهِ ، وَكَانَ لَهُ وَلَدٌ
نَجِيبٌ . فَلَمَّا جَلَسَ الْخَلِيفَةُ أَجْلَسَ الصَّبِيَّ إِلَى جَانِبِهِ وَسَأَلَهُ : « أَدَارُ
الْخَلِيفَةَ أَحْسَنُ أَمْ دَارُ أَيْيِكَ ؟ » .

فَأَجَابَ الصَّبِيُّ عَلَى الْفَوْرِ : « مَتَى كَانَ الْخَلِيفَةُ فِي دَارِ أَبِي فِدَارُ أَبِي
أَحْسَنُ » . ثُمَّ أَرَاهُ خَاتِمًا ثَمِينًا فِي خِنْصَرِهِ وَسَأَلَهُ : « هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا
مِنْ هَذَا الْخَاتَمِ ؟ » فَقَالَ الصَّبِيُّ : « نَعَمْ ، الْيَدُ الَّتِي هُوَ فِيهَا خَيْرٌ مِنْهُ » .

فدهش الخليفة من حُسن جوابه ، وقال له : « هل تحب أن تكون خليفةً بعدى ؟ » فقال الصبي : « ابنُ الخليفةِ أولى مني ؛ فهو صاحبُ الحقِّ في الخلافةِ ، وأنا لستُ من الخائنين ». فزاد سرورُ الخليفةِ من هذا الجوابِ الذي يدلُّ على الذكاء والولاء ، والتفت إلى أبيه وقال له : « لا بُدَّ أن يكونَ لابنك هذا شأنٌ متى بلغَ الرجولة » .

ودخلَ المأمونُ يوماً بيتَ الديوانِ ، فرأى غلاماً جميلاً على أذنهِ قلمٌ ، فقال : مَنْ أنتَ يا غلامٌ ؟ قال : أنا الناشئُ في دولتكِ ، المتقلبُ في نعمتكِ ، المؤملُ لخدمتكِ ، الحسنُ بنُ رجاء .

فقال المأمونُ : بالإحسانِ في البديهةِ تفاضلتِ العقولُ .
ارفعوا هذا الغلامَ فوقَ مرتبتهِ .

وقيلَ إنَّ رجلاً تكلمَ بينَ يدَي المأمونِ فأحسنَ ، فقال المأمونُ : ابنُ مَنْ أنتَ ؟ قال : ابنُ الأدبِ يا أميرَ المؤمنين . قال : نِعَمْ النَّسَبُ انتسبتَ إليه .

وقال الأصمعيُّ : قلتُ لغلامٍ حَدَّثَ السنَّ من أولادِ العربِ : أيسرُكَ أن يكونَ لك مائةُ ألفِ درهمٍ وأنتَ أحقُّ ؟ فقال : لا

والله ! قلتُ : ولمَه ؟ قال : أخافُ أن يَجْنِيَ عَلَيَّ مُحْتَقِي جَنَايَةَ تَذَهَبُ
مَالِي وَيَبْقَى عَلَيَّ مُحْتَقِي .

وقال معاويةُ لسعيد بن مرّة الكندي : أأنت سعيد ؟ قال :
أميرُ المؤمنين السعيدُ ، وأنا ابنُ مرّة .

ودخل إياس بن معاوية الشامَ ، وهو غلامٌ صغيرٌ ، فتقدّم على
خصمٍ له أمامَ بعضِ القضاةِ ، وكان الخصمُ شيخاً كبيراً ، ثم صال^(١)
عليه إياسٌ بالكلام . فقال له القاضي : خفض^(٢) عليك ؛ فإنه شيخٌ
كبيرٌ . قال : الحقُّ أكبرُ منه . قال : اسكت ! قال : فمن ينطقُ
بِحُجَّتِي ؟ قال : ما أراك تقولُ حقّاً . قال : لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ !

فدخل القاضي على عبدِ الملك بن مروان فأخبره . فقال : أقضِ
حاجتَه الساعةَ وأخرجهُ من الشامِ ؛ لئلا يُفسدَ على الناسِ .
وحكى أَنَّهُ لما مدحَ أبو تمامٍ الطائي^(٣) الشاعرُ المعروفُ
أحمد بن المعتصمِ بقصيدتهِ السينيةِ وانتهى فيها إلى قوله :

(١) استطال ، وجاوز حد الاعتدال . (٢) هوّن . (٣) نشأ بمصر ،
وكان يسقى الناس بالجرة في جامع عمرو بالقسطاط ، وكان يحفظ أربعة عشر ألف
أرجوزة للعرب غير المقطوعات والقصائد .

إِقْدَامُ عَمْرٍو ، فِي سِمَاخَةِ حَاتِمٍ * فِي حِلْمٍ أَحْنَفَ ، فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ
 قَالَ لَهُ أَبُو يُوسُفَ يَعْقُوبُ الْكِندِيُّ الْفِيلَسُوفُ ، وَكَانَ حَاضِرًا :
 « الْأَمِيرُ فَوْقَ مَنْ وَصَفْتَ » . فَأَطْرَقَ مَلِيًّا ، وَقَالَ :

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ * مِثْلًا شَرُّودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ
 فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ * مِثْلًا مِنَ الْمِشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ
 وَلَمَّا أَخَذَتِ الْقَصِيدَةُ مِنْ يَدِهِ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا هَذِينَ الْبَيْتَيْنِ ،
 فَعَجِبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ وَفِطْنَتِهِ . وَلَمَّا خَرَجَ قَالَ الْفِيلَسُوفُ : هَذَا الْفَتَى
 بَعُوتٌ قَرِيبًا ، فَكَانَ كَمَا قَالَ .

وَلَمَّا قَصَدَ أَبُو تَمَّامٍ الْمَذْكُورُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاهِرٍ بَخْرَاسَانَ
 وَامْتَدَحَهُ بِالْقَصِيدَةِ الَّتِي أَوَّلَهَا :

« هُنَّ عَوَادِي يُوسُفٍ وَصَوَاحِبُهُ »

أَنْكَرَهَا عَلَيْهِ أَبُو الْعَمَيْثَلِ وَقَالَ لَهُ : لِمَ لَا تَقُولُ مَا يُفْهَمُ ؟ فَقَالَ
 هُ : لِمَ لَا تَفْهَمُ مَا يُقَالُ ؟ فَاسْتَحْسَنَ مِنْهُ هَذَا الْجَوَابَ عَلَى الْبَدِيعَةِ .
 وَقَالَ (ثُمَامَةُ بْنُ أَشْرَسَ) أَحَدُ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ زَمَنَ الْمَأْمُونِ :
 « دَخَلْتُ إِلَى صَدِيقٍ لِي أَعُوذُهُ ، وَتَرَكْتُ حِمَارِي بِالْبَابِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ

وَإِذَا بَضِئَ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ مُؤَنِّبًا وَلَا تُنَمَّا : « لِمَ تَرْكَبُ حِمَارِي
بِغَيْرِ إِذْنِي ؟ »

فَأَجَابَنِي الصَّبِيُّ قَائِلًا : « خِفْتُ أَنْ يَذْهَبَ خَفِظَتُهُ لَكَ » .
فَعَجِبْتُ مِنْ هَذَا الْجَوَابِ ، وَأَرَدْتُ أَنْ أُسَكِّتَ الصَّبِيَّ ، وَقُلْتُ لَهُ :
لَوْ ذَهَبَ مَا بَالَيْتُ بِذَهَابِهِ . فَأَجَابَنِي عَلَى الْفَوْرِ قَائِلًا : « إِنْ كَانَ
هَذَا رَأْيُكَ فِي الْحِمَارِ ، فَأَعْمَلْ عَلَى أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ ، وَهَبْهُ لِي ، وَأَرْبَحْ
شُكْرِي » . فَلَمْ أَذَرْ مَا أَقُولُ .

وَقَالَ مَلِكٌ لَوْزِيرِهِ : مَا خَيْرُ مَا يُرْزَقُهُ الْعَبْدُ ؟ قَالَ : عَقْلٌ
يَعِيشُ بِهِ . قَالَ فَإِنْ عَدِمَهُ ، قَالَ : أَدَبٌ يَتَحَلَّى بِهِ . قَالَ : فَإِنْ عَدِمَهُ ،
قَالَ : مَالٌ يُسْتُرُهُ . قَالَ فَإِنْ عَدِمَهُ ، قَالَ : فَصَاعِقَةٌ تَحْرُقُهُ وَتُرِيحُ مِنْهُ
الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ .

وَرَوَى ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي كِتَابِ « الْأَذْكِيَاءِ » أَنَّ أَبَا حَامِدٍ الْخُرَاسَانِيَّ
الْقَاضِيَّ قَالَ : بَنَى ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ الْهَاشِمِيُّ بِالْبَصْرَةِ دَارًا كَبِيرَةً ،
وَلَمْ يَتِمَّ لَهُ تَرْبِيعُهَا إِلَّا بِمَسْكَنٍ لَطِيفٍ كَانَ لِعَجُوزٍ فِي جَوَارِهِ امْتَنَعَتْ
مِنْ بَيْعِهِ . فَبَذَلَ لَهَا أَضْعَافَ ثَمَنِهِ ، فَأَقَامَتْ عَلَى الْامْتِنَاعِ . فَشَكَا إِلَى

ذلكَ . فَقُلْتُ هَذَا مِنْ أَيْسَرِ الْأُمُورِ ! أَنَا أَوْجِبُ عَلَيْهَا بَيْعَهُ ، فَأَضْطَرُّهَا إِلَى أَنْ تَسْأَلَكَ وَزْنَ الثَّمَنِ .

ثُمَّ اسْتَدْعَيْتُهَا فَقُلْتُ : يَا هَذِهِ ! إِنْ قِيَمَةُ دَارِكَ دُونَ مَا دَفَعْتَ لَكَ ، وَقَدْ ضَاعَفَهَا أَضْعَافًا ، فَإِنْ لَمْ تَقْبَلِيهِ حَجَرْتُ عَلَيْكَ ؛ لِأَنَّ هَذَا تَضْيِيعٌ مِنْكَ .

فَقَالَتْ : جُعِلَتْ فِدَاكَ ! فَهَلَّا كَانَ هَذَا الْحِجْرُ مِنْكَ عَلَى مَنْ يَزِنُ فِيمَا يُسَاوِي دِرْهَمًا عَشْرَةً وَتَرَكْتَ مَنْزِلِي ! مَا أَخْتَارُ بَيْعَهُ . فَانْقَطَعَتْ^(١) فِي يَدِهَا .

وَقَالَ الْحَجَّاجُ لَامْرَأَةٍ مِنَ الْخَوَارِجِ : وَاللَّهِ لَأُعَذِّبَنَّكُمْ عَذَابًا ، وَلَأَحْصِدَنَّكُمْ حَصْدًا . فَقَالَتْ : أَنْتَ تَحْصِدُ ، وَاللَّهُ يَزْرَعُ ؛ فَانْظُرْ أَيْنَ قُدْرَةُ الْمَخْلُوقِ مِنْ قُدْرَةِ الْخَالِقِ .

وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى شُرَيْحِ الْقَاضِي يُخَاصِمُ امْرَأَةً لَهُ فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ . قَالَ : وَعَلَيْكُمْ . قَالَ : إِنِّي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ . قَالَ : بَعِيدٌ

(١) أى انقطعت حجتي ، ولم يمكن أن أجادلها لقوتها في حجتها .

سَجِيقٌ^(١). قَالَ : وَإِنِّي قَدِمْتُ إِلَى بَلَدِكُمْ هَذَا . قَالَ : خَيْرَ مَقْدَمٍ .
 قَالَ : وَإِنِّي تَزَوَّجْتُ أُمْرَأَةً . قَالَ : بِالرِّفَاءِ^(٢) وَالْبَنِينَ . قَالَ : وَإِنَّهَا وَلَدَتْ
 غُلَامًا . قَالَ : لَتَهْنَأَ بِالْفَارِسِ . قَالَ : وَقَدْ كُنْتُ شَرِطْتُ لَهَا صَدَاقَهَا .
 قَالَ : الشَّرِطُ أُمْلَكُ . قَالَ : وَقَدْ أَرَدْتُ الْخُرُوجَ بِهَا إِلَى بَلَدِي . قَالَ :
 الرَّجُلُ أَحَقُّ بِأَهْلِهِ . قَالَ : فَاقْضِ بَيْنَنَا . قَالَ : قَدْ قَضَيْتُ .
 وَخَرَجَ الْحِجَابُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَصْحَرَ^(٣) ؛ وَحَضَرَ غَدَاؤُهُ فَقَالَ :
 أَطْلُبُوا مَنْ يَتَغَذَّى مَعِيَ . فَطَلَبُوا ، فَإِذَا أَعْرَابِيٌّ فِي شِمْلَةٍ^(٤) فَأَتَى بِهِ .
 فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ . قَالَ : هَلُمَّ أَيُّهَا الْأَعْرَابِيُّ ! قَالَ : قَدْ دَعَانِي مَنْ
 هُوَ أَكْرَمُ مِنْكَ فَأَجِبْتُهُ . قَالَ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : دَعَانِي اللَّهُ رَبِّي إِلَى
 الصَّوْمِ ، فَأَنَا صَائِمٌ . قَالَ : وَصَوْمٌ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ الْحَارِّ ؟ قَالَ : صُمْتُ
 لِيَوْمٍ هُوَ أَحَرُّ مِنْهُ . قَالَ : فَافْطِرِ الْيَوْمَ وَصُمْ غَدًا .. قَالَ : وَيَضْمَنُ لِي
 الْأَمِيرُ أَنِّي أَعِيشُ إِلَى غَدٍ ؟ قَالَ : لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْهِ . قَالَ : فَكَيْفَ
 يَسَاءُ لِي عَاجِلًا بِأَجَلٍ لَيْسَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : إِنَّهُ طَعَامٌ طَيِّبٌ . قَالَ : مَا طَيِّبُهُ
 خَبَاؤُكَ وَلَا طَبَاخُكَ . قَالَ : فَمَنْ طَيِّبُهُ ؟ قَالَ : الْعَافِيَةُ . قَالَ الْحِجَابُ :
 بِاللَّهِ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ ، أَخْرِجُوهُ !

(١) بعيد .
 (٢) برز إلى الصحراء .
 (٣) الاتفاق والطمانينة .
 (٤) الشملة : كساء دون القطيفة يشتمل به .

وقال الحجاجُ للمهلبِ وهو يُمَاشيه : أأنا أطولُ أم أنت ؟ قال :
الأميرُ أطولُ^(١) ، وأنا أبسطُ قامَةً .

وحكى أن الحجاجَ خرجَ يوماً متنزّهاً ، فلما فرغَ من نزهته
صرفَ عنه أصحابه وانفردَ بنفسه ، فإذا هو بشيخٍ من بني عجلٍ .
فقال له : من أين أيها الشيخُ ؟ قال : من هذه القرية . قال : كيف
تروُنَ عمالَكم ؟ قال : شرَّ عمالٍ ، يظلمون الناسَ ، ويستحلُّون أموالهم .
قال : فكيفَ قولُكَ في الحجاجِ ؟ قال : ذاك ما ولى العراقَ شرُّ منهُ ،
قبَّحه اللهُ ، وقبَّحَ مَنْ استعمله .

قال : أتعرفُ من أنا ؟ قال : لا . قال : أنا الحجاجُ . قال :
جُعِلَتْ فِدَاكَ ، أوتعرفُ من أنا ؟ قال : لا . قال : أنا فلان بن فلان
مجنون بني عجلٍ ، أضرعُ في كل يومٍ مرتين .
قال : فضحك الحجاجُ منه ، وأمرَ له بصلَةٍ .

ومن المنقول^(٢) أن بعضَ اللصوصِ دخلَ بيتاً ومعه جماعةٌ تحتَ
أمرِهِ ونهيه في القتلِ والسرقةِ ، فظفروا بصاحبِ البيتِ ، وأوقفوه

(١) أفضل ، فالمراد بالطول هنا الفضل .

(٢) من كتاب الأذكياء لابن الجوزي .

للقتل، فتدخل^(١) عليهم في إبقاء مهجته^(٢)، وأخذ ما في البيت بكاله .
فقال كبيرهم : حَفَّوه بالطلاقِ الثلاثِ وعلى المصحفِ أَنَّهُ لَا يُعْلَمُ بِهِمْ
أَحَدًا فَأَصْبَحَ الرَّجُلُ يَرَى اللَّصُوصَ يَبِيعُونَ مَتَاعَهُ ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ
لَأَجْلِ الْيَمِينِ . فَجَاءَ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ وَأَعْلَمَهُ حَالَهُ ، فَقَالَ لَهُ : أَحْضِرْ أَكْبَرَ
حَيِّكَ ، وَأَذِينَ جِيرَانِكَ ، وَإِمَامَ جَمَاعَتِكَ . فَلَمَّا حَضَرُوا قَالَ لَهُمْ
أَبُو حَنِيفَةَ : هَلْ تَحِبُّونَ أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ مَتَاعَهُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ،
فَقَالَ : أَجْمَعُوا دَاعِيَكُمْ^(٣) ، فَأَدْخِلُوهُمْ الْجَامِعَ ، ثُمَّ أَخْرِجُوهُمْ وَاحِدًا
وَاحِدًا . وَكَلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ قُولُوا : هَذَا لِيُشْكَّ ؟ فَإِنْ كَانَ لَيْسَ
بِلِصِّهِ قَالَ : لَا ، وَإِنْ كَانَ لِيُصَّهِ فَلْيَسْكُتْ . فَإِذَا سَكَتَ فَاقْبِضُوا عَلَيْهِ .
فَفَعَلُوا ذَلِكَ . فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا سُرِقَ مِنْهُ .

وَمِنْهُ أَنَّ الْإِمَامَ أَبَا حَنِيفَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : دَخَلْتُ الْبَادِيَةَ ،
فَاحْتَجْتُ إِلَى الْمَاءِ ، فَجَاءَنِي أَعْرَابِيٌّ ، وَمَعَهُ قَرِيبَةٌ مُلَانَةٌ ، فَأَبَى أَنْ
يَبِيعَهَا إِلَّا بِخَمْسَةِ دَرَاهِمَ . فَدَفَعْتُهَا لَهُ ، ثُمَّ أَخَذْتُ الْقَرِيبَةَ ، فَقُلْتُ :
مَا رَأَيْكَ يَا أَعْرَابِيٌّ فِي السَّوِيقِ^(٤) ؟ فَقَالَ : هَاتِ ! فَأَعْطَيْتُهُ سَوِيقًا

(١) دخل بالحيلة . (٢) المهجة : الدم ، وقيل دم القلب خاصة . وخرجت
مهجته أى روحه . (٣) الداعر : الفاسد . (٤) ما يعمل من الخنطة والشعير .

مَلَّتُوا تَابَرِيَتْ ؛ فَعَمِلَ يَأْكُلُ حَتَّى امْتَلَأَتْ عِطْشَ فَقَالَ : عَلَى بَشَرَةٍ !
فَقُلْتُ بِخَمْسَةِ دَرَاهِمٍ عَلَى قَدَحٍ مِنْ مَاءٍ . فَاسْتَرَدَدْتُ الْخَمْسَةَ وَبَقِيَ الْمَاءُ .
وَقِيلَ إِنْ غَلَامًا لَقِيَ أَبَا الْعَلَاءِ الْمَعْرِيَّ فَقَالَ : مَنْ أَنْتَ يَا عَمِّي ؟
أَنْتَ الْقَائِلُ فِي شَعْرِكَ :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الْآخِرَ زَمَانُهُ * لَا تِ بَمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَائِلُ
قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : يَا عَمَّاهُ ، إِنَّ الْأَوَائِلَ قَدَرْتَبُّوا ثَمَانِيَةً وَعِشْرِينَ
حَرْفًا لِلْهَجَاءِ ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَزِيدَ عَلَيْهَا حَرْفًا ؟ فَدَهَشَ الْمَعْرِيُّ
مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ : إِنْ هَذَا الْغَلَامَ لَا يَعِيشُ ؛ لَشِدَّةِ حِدْقِهِ ^(١) ،
وَتَوَقُّدِ فَوَادِهِ .

وَحَكَى الْمَدَائِنِي قَالَ : خَرَجَ ابْنُ زِيَادٍ فِي فَوَارِسَ ، فَلَقُوا رَجُلًا
وَمَعَهُ جَارِيَةٌ لَمْ يُرْ مِثْلُهَا فِي الْحُسْنِ ، فَصَاحُوا بِهِ : خَلِّ عَنْهَا ! وَكَانَ مَعَهُ
قَوْسٌ فَرَمَى أَحَدَهُمْ ، فَهَابُوا الْإِقْدَامَ عَلَيْهِ ، فَعَادَ لِيَرْمِي ، فَانْقَطَعَ الْوَتَرُ ،
فَهَجَمُوا عَلَيْهِ ، وَأَخَذُوا الْجَارِيَةَ ؛ فَهَرَبَ ، وَأَسْتَعْلَوْا عَنْهُ بِالْجَارِيَةِ ،
وَمَدَّ بَعْضُهُمْ يَدَهُ إِلَى أُذُنِهَا وَفِيهَا قُرْطٌ ، وَفِي الْقُرْطِ دُرَّةٌ يَتِيمَةٌ ، لَهَا

قيمة عظيمة . فقالت : وما قدر هذه الدرّة ؟ إنكم لو رأيتم ما في قلنسوته من الدرر لاستحقرتم هذه . فتركوها واتبعوه ، وقالوا له : ألق ما في قلنسوتك ! وكان فيها وتر قد أعدّه فنسيه من الدهش ، فلما ذكره ركبّه في القوس ، ورجع إلى القوم ، فولى القوم هاربين ، وغلّوا الجارية .

وقيل إن موسى الهادي كان يوماً في بستان ، ومعه أهل بيته وخاصته ، وهو راكب على حمار وليس معه سلاح ، فدخل عليه حاجبه ، وأخبره أن رجلاً من الخوارج جىء به أسيراً ، وكان الهادي حريصاً على الظفر به ، فأمر بإذخاله ، فأدخل عليه بين رجلين قد أمسكا بيديه ، فلما رأى الخارجى الهادي جذب يديه من الرجلين ، وأستل^(١) سيف أحدهما ، ووثب نحو الهادي . ولما رأى ذلك من حول الهادي من أهله وخاصته فرّوا جميعاً ، وبقي الهادي وحده . فثبت على حماره بمكانه حتى إذا قرب الخارجى منه ، وكاد يعلوه بالسيف ، قال الهادي : اضرب يا غلام عنقه ! فالتفت الخارجى حين سمع ذلك ، فأسرع الهادي ، ووثب عن سرجه ، وقبض على

(١) أخذ وانتزع .

الخارجي ، وانزع منه السيف فذبجه به ، ثم عاد إلى ظهر حماره ،
وتراجع إليه أهله وبطانته يتسللون ، وقد ملئوا رعباً وخجلاً ، فلم
يخاطبهم في ذلك الهادي بحرفٍ واحدٍ .

ويحكى أن أعرابياً مدح أميراً بقصيدة بدعية ، فلما قرأها
استكثرها عليه بعض الحاضرين . ونسبه إلى سرقتها . فأراد الأمير
أن يعرف حقيقة الحال . فأمر له بمد^(١) من الشعر . وقال في نفسه .
إن كان له بديهة في الشعر فلا بد أن يقول شيئاً في شرح حاله .

فأخذ المد الشعر في ردائه ، وخرج ، فقال الأمير للبوابين سرّاً :
لا تمكّنوه من الخروج . فوقف الأعرابي في الدهليز حائراً ، فبعث
إليه الأمير من سألته وقال له : ما شأنك يا أعرابي ؟

فقال : إني أمتدحت الأمير بقصيدة .

قال : فما أجازك عليها ؟

قال : هذا المد من الشعر . فقال له : هل قلت في ذلك شيئاً ؟

قال : نعم . قال : ما هو ؟ فأنشد على البديهة :

يقولون لى أرخصت^(١) شِعرك فى الورى^(٢)

فقلت لهم من عُدَم^(٣) أهلِ المكارم

أُجِزْتُ^(٤) على شِـرِّ عرى الشعير وإنَّه

كثيرٌ إذا خلَّصتُه من بهائم

فلما بلغ الأميرَ هذانِ البيتانِ أعجبَ بهما ، وعلمَ أنَّ القصيدةَ
من نظمِهِ ، فأمرَ له بجائزةٍ سنِيَّةٍ .

وقيلَ كانَ أحمدُ بنُ طولونَ يأكلُ يوماً فى إحدى حدائقِهِ ،
فراى سائلاً فى ثيابِ رَثَّةٍ ، فأرسلَ إليه غلاماً برغيفٍ ودجاجةٍ وشريحةَ
لحمٍ ، وقطعةَ من الحلوى . فرجعَ الغلامُ من غيرِ أنْ يأخذَ السائلُ
منه شيئاً ، فأمرَ ابنُ طولونَ به فأُحضِرَ ، وأخذَ يسألهُ ، فأجابَ من
غيرِ أنْ يتلجلجَ أو يضطربَ من هيئَتِهِ ، فاتَّهمَهُ بأنَّه جاسوسُ بعضِ
الأعداءِ ، فاعترفَ الرَّجلُ بذلكَ .

فقال بعضُ الحاضرينَ : هذا واللهِ السحرُ ، فقال أحمدُ بنُ طولونَ :
ما هُوَ بسحرٍ ، ولكنِّى رأيتُ سوءَ هيئَةِ الرجلِ ، وإيَّاهُ عنْ طعامٍ

يَتَمَنَّى الشَّيْبَعَانُ أَنْ يَأْكُلَهُ ، وَكَذَلِكَ رَأَيْتُ جُرَّاتَهُ وَثَبَاتَهُ ، فَحَكَمْتُ عَلَيْهِ بِمَا حَكَمْتُ .

وَخَرَجَ نَدِيمُ أَحَدِ الْمُلُوكِ عَنْ حَدِّهِ فِي الْمَزَاجِ مَعَهُ فَغَضِبَ الْمَلِكُ وَقَالَ لَهُ : اسْتَعِدَّ لِلْمَوْتِ أَيُّهَا الشَّقِيُّ ؛ فَقَدْ دَنَا أَجْلُكَ ، وَاقْتَرَبَ حَيُّنُكَ ^(١) . فَأَخَذَ النَّدِيمُ يَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ ، وَيَلْتَمِسُ الْعَفْوَ مِنْهُ ، فَقَالَ الْمَلِكُ : لَا عَفْوَ عِنْدِي وَلَا مَغْفِرَةَ ، وَآخِرُ مَا أَسْتَطِيعُ مُجَامَلَتَكَ بِهِ أَنْ أَتْرِكَ لَكَ اخْتِيَارَ الْمِيتَةِ الَّتِي يَنْتَهِي بِهَا أَجْلُكَ ، فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا يَحُلُو ، وَعَجِّلْ بِاخْتِيَارِكَ .

فَقَالَ النَّدِيمُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ ، لَقَدْ تَفَضَّلْتَ فَجَعَلْتَ لِي حُرِّيَّةَ الْاخْتِيَارِ . وَلَا سَبِيلَ لِلْمَلِكِ فِي الرَّجُوعِ عَنْ وَعْدِهِ ، فَدَعْنِي إِذَا أُمْتُ بِالشَّيْخُوخَةِ ؛ فَهِيَ أَفْضَلُ أَنْوَاعِ الْمَوْتِ عِنْدِي . فَضَحِكَ الْمَلِكُ ، وَعَفَا عَنْهُ ، وَعَادَ إِلَى مَنَادِمَتِهِ .

وَمَنْ كَانُوا مَدِينِينَ لَدَ كَاهِنِهِمْ بِنَجَاحِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ مِنَ الْإِفْرَنْجِ «أَبْرَاهَامُ لِنُكُولِن» ؛ أَحَدُ رُؤَسَاءِ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الَّذِينَ تَدِينُ لَهُمْ

تلك الولايات اليوم بما فيها من تقدم ورقّ وإصلاح. « وُلد في ١٢ من فبراير سنة ١٨٠٩ م ». وكان أبوه نجاراً عادياً، وقد توفيت والدته ولمّا يبلغ من العمر عشر سنين. تعلم مبادئ القراءة والكتابة وهو طفل. وكانت أمّه قبل وفاتها تُعنى به العناية كلّها؛ فاختارت له من الكتب الكتاب المقدس، وكتاباً عن حياة « جورج واشنطن »، فقرأهما وأعاد قراءتهما مراراً حتى كاد يحفظهما. وكان في بعض الأحيان يسير أميلاً ليستعير كتاباً يقرؤه. كان في حياته الأولى عاملاً، ثم ثقّف نفسه بالقراءة في أوقات الفراغ. وكان في الليل يُوقد قطعاً من الخشب، يتدفأ بنارها، ويقرأ على نورها. ولولا ضيقُ المقام والخوف من الخروج عن الموضوع لكتبنا عنه الكثير، فارجع إلى تاريخ حياته إن شئت^(١). وكلُّ ما نريد أن نذكره هو أنه درس القانون أخيراً، ثم كان مُحامياً مدرّهاً يُشار إليه بالبنان، حاضر الذهن مُتّقِد الفكر، قوى الشخصية؛ ثم كان عضواً بمجلس النواب، فسياسياً، ف رئيساً للولايات المتحدة بأمريكا. فضّلته زوجته — وكان فقيراً — على مُنافس آخر من الأغنياء. وقد اختارته زوجاً

(١) ارجع إلى كتاب « قصص في البطولة والوطنية » للمؤلف.

لذكائه وإخلاصه وشخصيته . تنبأت أنه سيكون عظيماً ، وقد كان مثلاً للعظمة ؛ وإذا كان « واشنطن » قد حرّر الولايات المتحدة فقد قضى « لينكولن » على ما فيها من الاضطرابات ، وقام بكثير من الإصلاحات . وقد ترك « لينكولن » أسماً خالداً محبوباً ، لا من الأمريكيين فحسب ، بل من أبناء الإنسانية في جميع الشعوب . وقد كان يعمل للإنسانية ، ويفكر كثيراً في الإنسانية . وينسب إليه كثير من الحكايات التي تقرب من الخيالات والروايات .

ومن كان لحدة ذهنهم وشخصيتهم أثر كبير في نجاحهم أيضاً « اللورد ما كولي » الأسكتلندي ؛ فقد كان كاتباً وشاعراً ، وكان مؤرخاً وقانونياً ؛ وكان خطيباً وسياسياً . وُلد في ٢٥ من أكتوبر سنة ١٨٠٠ م ؛ وتوفي في ٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٥٩ م . أظهر حباً للقراءة ، وتعطشاً للعلم منذ نعومة أظفاره . توسّم^(١) فيه أبواه كثيراً من علامات الذكاء والمقدرة العقلية منذ طفولته ، فقد حاكى « السير وولتر سكوت » في كتابته وعمره لم يزد على سبع سنين ، فكتب ثلاث قصائد ، ومختصراً تاريخياً عاماً وهو طفل . كان قوي الذاكرة ،

(١) تفرس فيه أبواه .

محباً للعمل ، مؤلفاً بالأدب ، وبخاصّة الروايات . وكثيراً ما لامه أبوه
على قراءتها . انتسب في أكتوبر سنة ١٨١٨ إلى جامعة « كبريدج » ،
وحصل على أربع جوائز منها . وفي حياته العملية اشتغل بالقضاء ،
ثم اتخذ الأدب مهنة له ، ثم انتسب إلى أحد الأحزاب السياسية ،
ونجح في حياته النيابية نجاحاً باهراً ؛ لنشاطه العقلي ، وتأثيره
الخطابي ، وإخلاصه في قوله . وكان ينضم لآرائه كثيرون ، حتى
من المعارضين لحزبه . وله خطبة هي آيات بينات يدافع فيها عن
تعميم التعليم المجاني ، تدل على غيرته ، وحضور بديهته . ولم يفخر
الشعبان : الإنكليزي والأسكتلندي إلى اليوم بأحد من رجال
السياسة والأدب فخرهما بما كوّلى . ومن كتابته تكاد تلمس قوة
حجته ، ورُوح خطابته ، ووضوح لغته ، وصفاء ذهنه ، وسلامة
ذوقه في كتابته ، وجمال تعبيره ، وحسن أسلوبه ، ووفاءه لبلاده
وأقاربه وأصدقائه . تكاد تلمس نقده المرّ البريء الذي يُنبئ عن
الإخلاص والإيمان .

ومن كان لحضور بديتهم أثر في فوزهم « المستر لويذ جورج »

رئيسُ حزبِ الأحرارِ بانجلترا ؛ فقد حَدَّثَ أَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ فِي مَجْتَمِعٍ فِي أَثْنَاءِ الْإِتِّخَابَاتِ ، فَسَأَلَهُ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ مَقْطَعاً إِيَّاهُ :

أَيَذْكَرُ (الْمِسْتَرُ لُوَيْدُ چورْج) أَبَاهُ بِعَرِّ كَبْتِهِ وَحِمَارِهِ ؟ فَأَجَابَهُ (الْمِسْتَرُ لُوَيْدُ چورْج) بِلَبَاقَتِهِ الْمَأْتُورَةِ : « نَعَمْ أَذْكَرُ ذَلِكَ ؛ أَمَّا الْمَرْكَبَةُ فَلَا أَدْرِي عَنْهَا شَيْئاً ، وَأَمَّا الْحِمَارُ فَهِيَ هُوَذَا يُذْكَرُنِي بِنَفْسِهِ . مُشِيرًا إِلَى مَنْ قَاطَعَهُ . فَكَانَ جَوَاباً مُضْحَكاً مُسْكِئاً .

فَالنَّشَاطُ الْعَقْلِيُّ يُسَاعِدُ عَلَى النِّجَاحِ ، كَمَا يُسَاعِدُ عَلَى النِّجَاحِ فِي الْحَيَاةِ . وَيُنْقِذُ الْإِنْسَانَ مِنْ أَدَقِّ الْمَرَاكِزِ ، وَيَحْفَظُ شَخْصِيَّتَهُ فِي أَشَدِّ الْمَوَاقِفِ ، وَيُسَهِّلُ الصَّعْبَ ، وَيُقَرِّبُ الْبَعِيدَ . وَلَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسُّلُوكِ . وَبِالْإِحْصَاءِ وَجَدَ أَنَّ أَكْرَمَ حُكَّامِ « أَوْرُبَةِ » خُلِقُوا فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْآخِرَةِ الْمَاضِيَةِ كَانُوا عَلَى قِسْطِ كَبِيرٍ مِنَ الذِّكَا .

الفصل الرابع

٣ — المشاركة الوجدانية

العنصر الثالث من العناصر التي تتكوّن منها الشخصية يدعى المشاركة الوجدانية ؛ فإذا لم نشعرُ بشعورِ النَّاسِ ، ولم نشاركهم في مسرّاتهم وأحزانهم ، ولم نتأثرَ بأرائهم وأفكارهم ، فهذا دليلٌ على أننا في حاجةٍ إلى أن نضعَ أنفسنا موضعهم ، مهّمًا تكن علاقتهم بنا ، على شرط أن يكونَ لدينا استعدادٌ للفهم والتفكير والشعور ، مهّمًا تكن مراكزنا بالنسبة إليهم ، من غيرِ نظرٍ إلى رئيسٍ أو مرؤوسٍ ، غنيٍّ أو فقيرٍ ، عظيمٍ أو حقيرٍ ، رفيعٍ أو ضئيلٍ ، وألا تكونَ مناصبنا العاليةُ حجرةَ عثرةٍ في سبيلِ فهمنا لغيرنا ، وتقديرِ ظروفهِ المحيطةِ به ، بل تكونَ مُعينًا لنا على أن نشاركهُ في حالاتهِ ؛ فنُسَرِّ لسروره ، ونتألمُ لآلامهِ . وبذلك نمثلكُ قلبه .

أما صاحبُ المزاجِ الباردِ الذي يتمثلُ فيه الجودُ والقسوةُ والغلاظةُ فلا يتأثرُ لما ينتابُ غيره من نكباتٍ ، ولا يحبُّ أن يتفاهمَ مع أحدٍ

فهو ينفر من الناس، والناس ينفرون منه، وهو يؤثر في غيره بالإيذاء، كما يؤثر الهواء البارد في النبات الغضّ الشديد الإحساس، فيتجمّد قبل أن ينمو أو يتعرّع. سائله محروم، وماله مكتوم، يلا بطنه وجاره جائع، ويحفظ ماله وعرضه ضائع.

ومن أكبر عيوب (نابليون) التي كان يتخلّق بها شدة قسوته على النوع الإنساني، وعدم مشاركته له في شعوره. ومن ثمّ كانت شخصيته غير كاملة. وإنّا في الوقت الذي نطالب فيه بالعدالة نطالب أيضاً بالرحمة.

ومن الحكمة — إذا كنت رئيساً — أن تصل بالمشاركة الوجدانية إلى تنفيذ جميع رغباتك، من غير التجاء لإظهار سلطتك؛ وأن تفوز بطاعة مرؤوسيك، من غير احتماء بالقانون. ومن المهاراة أن تبين لمرؤوسيك غلطاتهم، ومواضع ضعفهم، وتسيرهم كيف تشاء بدون أن تحطّ من كرامتهم، وبدون أن تظهر لهم أنك أعلى وأرقى منهم، ومن غير اضطرار إلى اتخاذ شدة أو عنف. إذا أمكنك الوصول إلى كل هذا، كانت شخصيتك قوية، وكان تأثيرك كبيراً.

وإنَّ قوَّةَ التأثيرِ لا تستدعى قسوةً أو غِلظةً ، ولكنها تستدعى
 أن تشارك الناسَ في شعورهم ووجدانهم ، وتأنل لما يدَّههم^(١) من
 حوادثِ الدهرِ ، وتوأسِّيهم فيما يُلمُّ بهم من نوائبه ، وتنظر إلى
 حسناتهم قبل سيئاتهم ، وفي صوابهم قبل خطئهم ، وتقدر حسناتهم
 إذا أحسنوا ، وتفكر في البواعث التي اضطرتهم إلى الخطأ إذا أخطئوا ،
 وتعديل في أحكامك إذا حكمت ؛ لا تنزع^(٢) إلى جانبِ الظلم ،
 ولا تميل إلى ناحية التهاون . وبهذه الوسيلة تكون قوياً ، ليناً في غير
 ضعف ، متواضعاً في غير ذلّة ، موفقاً في عملك ، محبوباً عند غيرك .

أما هؤلاء الذين يلجئون إلى الشدة والقسوة دائماً فهم ضعفاء
 يشعرون بالضعف في ناحية من النواحي ، فيلجئون إلى الغلظة ؛ ظانين
 أنهم بتلك الطريقة يسترون ذلك الضعف ، ويكملون ذلك النقص ،
 مثلهم مثل الكلاب تنبح في الطُّرُق ، لا في ضوء النهار ، بل في
 ظلام الليل ؛ كي تجت عن فريسة تفرسها ، أو خيانة تخونها ، أو
 طعام تسرقه . هم كالكلاب تسرهم عيوب غيرهم ، ويفرحون

(١) درهمهم الأمر : غشيم ، وبابه فهم . (٢) تميل وتذهب .

لهفوات سواهم . وأمثال هؤلاء لا شخصية لهم ؛ فأشخاصهم
مكروهة ، وأسماؤهم منبوذة ، وأفعالهم مشثومة .

فالمشاركة الوجدانية من أهم عناصر الشخصية ، تجعل القلب
متقدماً ، يشعر بشعور غيره ، ويقس نفسه بمقياس غيره من الناس .
قال صلى الله عليه وسلم : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم
كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى .^(١)
ويقول « السير وولتر سكوت^(٢) » الكاتب الأسكتلندي الكبير :
« إن المشاركة الوجدانية هي الحلقة الفضيّة ، أو الرباط الحريرى
الذى يصل القلب بالقلب ، ويربط العقل بالعقل والجسم بالروح » .
فإذا كانت الشخصية هي القوة التي يجتذب بها غيرنا ، فالمشاركة
الوجدانية من أهم الأشياء التي بها نتصل بقلوب غيرنا وأرواحهم .
قيل لأعرابي : ما بال المرأى أجود أشعاركم ؟ فقال : لأننا
نقول وأكبادنا تحترق » . وفي المراثى تبدو المشاركة الوجدانية .
وإذا قدرنا غيرنا ، وفكرنا فيه ، وسررنا لسروره ، وتألمنا لألمه ،

(١) الألم والاضطراب . (٢) Sir Walter Scott (١٧٧١ — ١٨٣٢ م) .
من أكبر الكتاب الأسكتلنديين القصصيين المعروفين بالإخلاص ، وصدق العزيمة ،
وقوة الإرادة . له روايات كثيرة تمثل الحياة الاجتماعية في أسكتلندة وغيرها ، وشعره
أقل منزلة من نثره .

فإننا ننتظرُ منه أن يقابلَ المثلَ بالمثل ، فيقدرنا ويُفكرَ فينا ،
ويُشارِكنا في سعادتنا وشقائنا بوجدانه وقلبه . أما إذا لم تقدرْ أحداً ،
ولم تُفكرْ في أحدٍ ، فإننا لا نترقبُ أن يقدرنا أو يفكرَ فينا أحدٌ .
قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمنُ أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيه
ما يحبُّ لنفسه . »

وقال أفلاطون^(١) : إنَّ إشراكنا غيرنا في مسرَّاتنا يزيدنا إحساساً
بتلك المسرَّات . وقال أرسطو^(٢) : إنَّنا في حبِّنا الخيرَ لغيرنا وفي بحبِّنا
عنه نجدُ لأنفسنا خيراً . وقال سينيكا^(٣) : لو أُعطيَتُ الحكمةُ كلها
لنفسى على أن أستأثرَ بها وأمنعها عن إخوتي بنى الإنسانية
لكرهتُ الحكمةَ .

ومن المشاركة الوجدانية أن يُخلصَ الأستاذُ في نصيح طلبته
وإرشادهم ، والتفكيرِ في عملهم وظروفهم ، ومستقبلهم ؛ فيقابل الطلبةُ
ذلك بالوفاء والطاعة والإجلال .

(١) أفلاطون : ولد في أثينا سنة ٤٢٨ ق . م ، وتوفي سنة ٣٥٧ ق . م .
فيلسوف يوناني من تلاميذ سقراط . ومن مؤلفاته الخالدة كتابا « الجمهورية » و « القوانين » .
(٢) أرسطو : ولد سنة ٣٨٤ ق . م . وتوفي وعمره ٦٢ سنة تقريبا ، كان
مرييا للاسكندر المقدوني . (٣) سينيكا : (٣ ق . م — ٦٥ م) : فيلسوف
روماني ، عرف بالخطابة وقوة الحجة .

فالشخصية القوية تُتطلبُ أن تتأثرَ لغيرنا، ويتأثرَ غيرنا لنا،
ونشعرُ بشعورهم، ويشعروا بشعورنا. ولا أثرٌ للتربية والتعليم إذا
لم يُصحباً بمحبةٍ غيرنا، والتفكيرِ فيهم بقلوبنا. فالشاركة الوجدانية
يجبُ أن تتحققَ في القادة: قادة الفكر، وقادة العمل، حتى تكونَ
لهم شخصيةٌ جذابةٌ قويةٌ.

غير أنه ينبغي ألاَّ يتدخلَ الوجدانُ والعاطفةُ في أقوالنا وأفعالنا،
وحركاتنا وسكناتنا تدخلاً كبيراً؛ كي نستطيعَ أن نزنَ الشيءَ بميزانِ
العدالة، لا بميزانِ العاطفة. ويجبُ ألا ننظرَ إلى الأمورِ من ناحيةٍ
واحدةٍ، وهى الناحيةُ الوجدانيةُ؛ لئلا يختلَّ التوازنُ، ويُصبحَ العقلُ
عبداً خاضعاً للتأثيراتِ الوجدانيةِ العاطفيةِ التى تُعميُنَا عن حقائقِ
الأشياء وعلاقاتها بغيرها.

ومن تتمثلُ فيهم المشاركةُ الوجدانيةُ الرسولُ الكريمُ؛ فقد كانَ
النَّضْرُ بنُ الحارثِ مع قريشٍ ضدَّ الرسولِ صلى الله عليه وسلم في غزوةِ
بدرٍ، فأمرَ الرسولُ بقتله.

فَقَالَتْ قُتَيْلَةُ بِنْتُ النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ تَبْكِي أَخَاهَا:

يَا رَاكِبًا إِنْ الْأَثِيلَ ^(١) مَظْنَةً ^(٢) * مِنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقٌ
أَبْلِغْ بِهَا مَيِّتًا بَأَنَّ تَحِيَّةً * مَا إِنْ تَزَالُ بِهَا النِّجَابُ ^(٣) تَحْقِيقَ ^(٤)
مَنِّي إِلَيْكَ ، وَعِبْرَةً مَسْفُوحَةً ^(٥) * جَادَتْ بَوَاكِفَهَا ، وَأُخْرَى تَخْنُقُ
هَلْ يَسْمَعُنِي النَّضْرُ إِنْ نَادَيْتُهُ * أَمْ ^(٦) كَيْفَ يَسْمَعُ مَيِّتٌ لَا يَنْطِقُ
أَحْمَدُ يَا خَيْرَ ضِنْءٍ ^(٧) كَرِيمَةٍ * فِي قَوْمِهَا ، وَالْفَحْلُ فَلَ مُعْرَقٍ ^(٨)
مَا كَانَ ضَرْكُ لَوْ مَنَنْتَ ^(٩) ؟ وَرَبَّمَا * مِنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيظُ ^(١٠) الْمَحْنَقُ
فَبَسَّكَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ : « لَوْ سَمِعْتُهَا قَبْلَ الْيَوْمِ
مَا قَتَلْتُهُ . »

وَتَمَثَّلُ أَيْضًا فِي سَيِّدِنَا عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ أَنْظَرُ
إِلَى مَا رَوَاهُ أَسْلَمٌ : قَالَ : خَرَجْتُ مَعَ عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى حَرَّةٍ
وَأَقَمْتُ ^(١١) ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَصْرَارٍ ^(١٢) إِذَا نَارٌ تُؤَرِّثُ ^(١٣) ، فَقَالَ : يَا أَسْلَمُ ،
إِنِّي أَرَى هَؤُلَاءِ رُكَبًا ^(١٤) قَصَّرَ بِهِمُ اللَّيْلُ وَالْبَرْدُ . انْطَلِقْ بِنَا . فَخَرَجْنَا

-
- (١) الْأَثِيلُ : مَوْضِعٌ فِيهِ قَبْرُ النَّضْرِ . (٢) يُبْظَنُ أَنْ تَبْلُغَهُ . (٣) جِيَادُ الْإِبِلِ .
(٤) تَهْتَزُّ بِشِدَّةٍ . (٥) - مَصْبُوبَةٌ . أَيْ بَلَّغَهُ مَنَى رِسَالَةً ، وَادَّكَّرَ لَهُ عِبْرَةً عَلَى
فَقْدِهِ سَالَتْ ، وَعِبْرَةٌ أُخْرَى جَمَدَتْ ، وَأَخَذَ حَزَنُهَا بِالْحَلْقِ ثَقِفَهُ . (٦) بَلْ .
(٧) وَلَدٌ . وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى صَبْنُو . (٨) لَهُ أَصُولٌ رَاسِخَةٌ فِي الْكُرَمِ .
وَالْمَعْنَى أَنَّ أَمَكُ شَرِيفَةٌ ، وَأَبَاكَ عَرِيقٌ فِي الْحَجْدِ . (٩) عَفَوْتُ . (١٠) وَهُوَ مَنْطُوقٌ
عَلَى الْغِيظِ وَالْحَقِّ . (١١) قَرْيَةٌ لَبْنِي مَرَّةً ، قَرَبَ خَيْرٍ بِظَاهِرِ الْمَدِينَةِ .
(١٢) بَلَدٌ بِقَرَبِ الْمَدِينَةِ . (١٣) أَرَّثَ النَّارَ : أَوْقَدَهَا . (١٤) جَمْعُ رَاكِبٍ .

نَهْرُولُ حَتَّى دَنَوْنَا مِنْهُمْ ؛ فَإِذَا امْرَأَةٌ مَعَهَا صَبِيَانٌ لَهَا ، وَقَدِرٌ مَنْصُوبَةٌ
عَلَى النَّارِ ، وَصَبِيَانُهَا يَتَضَاغَوْنَ ^(١) .

فَقَالَ عُمَرُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَصْحَابَ الضُّوءِ . قَالَتِ الْمَرْأَةُ :
وَعَلَيْكَ السَّلَامُ . فَقَالَ : أَأَدْنُو؟ قَالَتْ : أَدْنُ بِخَيْرٍ أَوْ دَعُ . فَقَالَ :
مَا بَالُكُمْ؟ قَالَتْ : قَصَّرَ بَنَا اللَّيْلُ وَالْبَرْدُ . قَالَ : مَا بَالُ هَؤُلَاءِ الصَّبِيَةِ
يَتَضَاغَوْنَ؟ قَالَتْ : الْجُوعُ . قَالَ : وَأَيُّ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْقَدْرِ؟ قَالَتْ :
مَاءُ أُسْكُكُهُمْ بِهِ حَتَّى يَنَامُوا . اللَّهُ يَبْنِئُنَا وَيَبْنِئُ عُمَرَ . فَقَالَ : أَيُّ رَحِمَكِ
اللَّهُ ، مَا يُدْرِى عُمَرَ بِكُمْ؟ قَالَتْ : يَتَوَلَّى أُمُورَنَا وَيَعْفُلُ عَنَّا؟

فَأَقْبَلَ عَلَىَّ ، فَقَالَ : انْطَلِقْ بِنَا ، نَخْرُجُنَا نَهْرُولُ حَتَّى أَتِينَا دَارَ
الدَّقِيقِ . فَأَخْرَجَ عِدْلًا ^(٢) فِيهِ كُبَّةٌ ^(٣) شَحْمٍ . فَقَالَ : احْمِلِي عَلَىَّ .
قُلْتُ : أَنَا احْمِلُهُ عَنْكَ . قَالَ احْمِلِي عَلَىَّ (مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا) ، كُلُّ ذَلِكَ
وَأَنَا أَقُولُ : أَنَا احْمِلُهُ عَنْكَ . فَقَالَ فِي آخِرِ ذَلِكَ : أَأَنْتِ تَحْمِلُ عَنِي
وِزْرِي ^(٤) يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ لَا أَمَّ لَكَ !

فَحَمَلَتْهُ عَلَيْهِ . فَأَنْطَلَقَ وَأَنْطَلَقْتُ مَعَهُ نَهْرُولُ حَتَّى أَتَيْنَا إِلَيْهَا ،

(١) يَصْبِيحُونَ . (٢) كِيلَا . (٣) قِطْعَةٌ . (٤) الْوِزْرُ : الْإِثْمُ .

فَأَتَى ذَلِكَ عِنْدَهَا ، وَأَخْرَجَ مِنَ الدَّقِيقِ شَيْئًا ، وَجَعَلَ يَقُولُ : ذُرِّيَّ عَلَىَّ وَأَنَا أَحْرَكُ لَكَ . وَجَعَلَ يَنْفُخُ تَحْتَ الْقَدْرِ — وَكَانَ ذَا لَحِيَةٍ عَظِيمَةٍ — فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى الدُّخَانِ مِنْ خِلَالِ لَحِيَتِهِ ، حَتَّى أَنْضَجَ الطَّعَامَ ، وَقَالَ : أَحْضِرِي شَيْئًا ، فَاتَّهَتْ بِصَحْفَةٍ ^(١) فَأَفْرَغَ الطَّعَامَ فِيهَا ، ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ أَطْعِمِيهِمْ وَأَنَا أَسَاعِدُكَ . فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى شَبِعُوا ، ثُمَّ خَلَى عِنْدَهَا فَضْلَ ^(٢) ذَلِكَ ، وَقَامَ وَقْتُ مَعَهُ . فَجَعَلْتُ تَقُولُ : جِزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، أَنْتَ أَوْلَى بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . فَيَقُولُ : قَوْلِي خَيْرًا ؛ إِنَّكَ إِذَا جِئْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَجَدْتَنِي هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ تَنَحَّيْ نَاحِيَةً ثُمَّ اسْتَقْبِلِيهَا ، وَرَبِضَ ^(٣) مَرَبِضَ الْأَسَدِ ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ : إِنَّ لَكَ لَشَأْنًا غَيْرَ هَذَا ، وَهُوَ لَا يُكَلِّمُنِي ، حَتَّى رَأَيْتُ الصَّبِيَّةَ يَلْعَبُونَ وَيَضْحَكُونَ ، ثُمَّ نَامُوا وَهَدَّوْا ؛ فَقَامَ وَهُوَ يُحَمِّدُ اللَّهَ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ ، فَقَالَ : يَا أَسْلَمُ ، إِنَّ الْجُوعَ أَسْهَرَ هُمْ وَأَبْكَاهُمْ ، فَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَنْصَرَفَ حَتَّى أَرَى مَا رَأَيْتُ فِيهِمْ .

وَهَذِهِ الْحَادِثَةُ تُدَلُّ عَلَى أَنَّ سَيِّدَنَا عَمَرَ كَانَ مِثَالًا لِمِشَارَكَةِ الْعَامَّةِ فِي مَسْرَاتِهَا وَأَحْزَانِهَا ، يُفَكِّرُ فِي الرِّعْيَةِ وَيَقُومُ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ نَحْوَهَا .

(١) الصَّحْفَةُ : كَالْقَصْعَةِ تَشْبَعُ خَمْسَةٌ مِنَ الرِّجَالِ . (٢) بَقِيَّةُ . (٣) جَلَسَ .

ثم أنظر إلى المهديّ وقد خرج بعد هدأة^(١) من الليل يطوف بالبيت ، فسمع أعرابية من جانب المسجد تقول : قوم متظاهمون ، نبت^(٢) عنهم العيون^(٣) وعَضَّتْهُمُ السُّنُونُ ، باد^(٤) رجالهم ، وذهب مالهم ، وكثر عيالهم ، أبناء سبيل ، وأنساء^(٥) طريق ، راعوا وصية الله ، ووصية رسول الله . فهل أمرٌ بخير ، كلاء^(٦) الله في سفره ، وخلفه في أهله ؟ فأمر نصرًا الخادم فدفع لها خمسمائة درهم .

ثم أعد النظر إلى رفق الخلفاء . قال إبراهيم بن الحسين بن سهل : كنّا في مجلس المأمون وعمر بن مسعدة يقرأ عليه الرّقاع . فجاءته عطسة . فلوى عنقه ، فردّها ، فرآه المأمون ، فقال : يا عمر ولا تفعل ؛ فإن ردّ العطسة ، وتحويل الوجه بها يورثان انقطاعاً في العُنُق .

فقال بعض ولد المهديّ : ما أحسنها من مولى^(٧) لعبده ، وإمام لرعيته . فقال المأمون : وما في ذلك ؟ هذا هشام أضطربت عمامته فأهوى الأبرش السكابي إلى إصلاحها . فقال هشام : إنّنا لا نتخذ الإخوان خولا^(٨) . فالذي قال هشام أحسن مما قلته . فقال عمرو : يا أمير

(١) جزء . (٢) تركتهم . (٣) كبار البلد .
(٤) جمع نضو : المهزول . (٥) حفظه .
(٦) الخول جمع خائل : العبيد ، الرعاة .
(٧) المولى هنا : السيد . (٨) الخول جمع خائل : العبيد ، الرعاة .

المؤمنين ، إِنَّ هِشَامًا يَتَكَلَّفُ مَا طُبِعَتْ عَلَيْهِ فَمَا تُعَدَّلُ فِيهِ ، لَيْسَ لَهُ قَرَابَتُكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) ، وَلَا قِيَامُكَ بِحَقِّ اللَّهِ ، وَإِنَّكَ وَالْمُلُوكَ لَكَمَا قَالَ النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيُّ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً * تَرَى كُلَّ مَلَكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ
كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ * إِذَا طَلَعْتَ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوْكَبُ

ثم انظر إلى الشعور نحو الفقراء :

دخلتُ أعرابيةً على عبدِ الله بنِ أبي بكرٍ بالبصرة ، فوقفَتْ بينَ
السَّمَاطِينَ ^(١) . فقالتُ : أوصَلِحَ اللهُ الأَمِيرَ ، وأمتع ^(٢) به . حذرَنا إِيْلَيْكَ
سَنَةً أَشْتَدَّ بَلَاؤُهَا ، وَأُنْكَشَفَ غَطَاؤُهَا ، أَقْوَدُ صَبِيَّةً صِغَارًا ، وَآخِرِينَ
كِبَارًا ، فِي بَلَدَةٍ شَاسِعَةٍ ^(٣) ، تَخْفِضُنَا خَافِضَةً ، وَتَرْفَعُنَا رَافِعَةً ،
لِمَمَاتٍ ^(٤) مِنْ الدَّهْرِ بَرِينَ عَظِيمِي ، وَأَذْهَبِينَ لَحْمِي ، وَتَرْكَنِي
وَالِهَةً ^(٥) أَدُورُ بِالْحَضِيضِ ، وَقَدْ ضَاقَ بِي الْبَلَدُ الْعَرِيضُ ، فَسَأَلْتُ
فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ : مَنْ السَّامِلَةُ فُضَائِلُهُ ، الْمُعْطَى سَائِلُهُ ، الْمَكْفِيُّ

(١) السَّمَاطَانِ مِنَ النَّخْلِ وَالنَّاسِ : الْجَانِبَانِ . يُقَالُ مَشَى بَيْنَ السَّمَاطَيْنِ .

(٢) نَفَعَ . (٣) بَعِيدَةٌ . (٤) الْمَلَمَّةُ : النَّازِلَةُ مِنْ نَوَازِلِ الدُّنْيَا .

(٥) مُتَحَيِّرَةٌ مِنْ شِدَّةِ الْحُزَنِ .

نائلة؟ فدللت عليك — أصلحك الله تعالى — وأنا امرأة من هوازن ،
وقد مات الوالد ، وغاب الرافد^(١) ، وأنت بعد الله غيائي^(٢) ، ومُنْتَهَى
أَمَلِي ، فافعلْ بي إحدى ثلاثٍ :

إما أن تردني إلى بلدي ، أو تحسن صفدي^(٣) ، أو تُقيم أودي^(٤) ،
فقال : بل أجمها لك . فلم يزل يُجري عليها كما يُجري على غياله
حتى ماتت .

وقيل : أحضر إلى المأمون رجلٌ قد أذنب ، فقال له المأمون :
أأنت فعلت كذا وكذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أنا الذي
أسرف على نفسه ، وأتكل على عفوك ؛ فعفا عنه .

وحكى : أنَّ عبدَ الملك بن مروان غضبَ على رجلٍ فهِرَبَ
منه ، فلما ظفر به أمر بقتله . فقال له الرجل : إن الله قد فعل ما
أحببت من الظفر ، فأفعل ما يحبُّه من العفو ؛ فإنَّ الانتقام عدلٌ ،
والتجاوز فضلٌ ، والله يحبُّ المحسنين ؛ فعفا عنه .

(٢) منقذى ، وفيك نجدتى .

(٤) اعوجاجى .

(١) الرافد : المعطى والمعين .

(٣) الصفد : العطاء .

وقيلَ إِنَّ دِمَاءَ وَقَعَتْ بَيْنَ حَيَيْنٍ^(١) مِنْ قُرَيْشٍ ، فَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ ،
فَنَظَرَ الْجَمِيعَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، هَلْ لَكُمْ فِي الْحَقِّ أَوْ فِيمَا
هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْحَقِّ ؟ فَقَالُوا : وَهَلْ شَيْءٌ أَفْضَلُ مِنَ الْحَقِّ ؟ قَالَ :
نَعَمْ ، الْعَفْوُ . فَبَادَرَ الْقَوْمُ فَاصْطَلَحُوا .

وَذَكَرَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حُمَيْدٍ الطُّوسِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَوْمًا عَلَى غَدَائِهِ مَعَ
جُلَسَائِهِ ، وَإِذَا صَبِيحَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى بَابِ دَارِهِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ، وَقَالَ لِبَعْضِ
غِلَامِهِ : مَا هَذِهِ الصَّبَاةُ ؟ مَنْ كَانَ عَلَى الْبَابِ فَلْيَدْخُلْ ؛ فَخَرَجَ الْغُلَامُ ثُمَّ
عَادَ إِلَيْهِ وَقَالَ : إِنَّ فُلَانًا أَخَذَ وَقَدْ أَوْثِقَ بِالْحَدِيدِ ، وَالْغُلَامَانِ يَنْظُرُونَ
أَمْرَكَ فِيهِ ؛ فَرَفَعَ يَدَهُ مِنَ الطَّعَامِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ جُلَسَائِهِ :
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَكَّنَكَ مِنْ عَدُوِّكَ ، فَسَبِيلُهُ أَنْ تَسْقِيَ الْأَرْضَ مِنْ
دَمِهِ . وَأَشَارَ كُلُّ مَنْ جُلَسَائِهِ عَلَيْهِ بِقَتْلِهِ عَلَى صِفَةِ اخْتَارِهَا ؛ وَهُوَ
سَاكِتٌ ، ثُمَّ قَالَ :

يَا غُلَامُ ، فَكَّ عَنْهُ وَثَاقَهُ^(٢) ، وَلْيَدْخُلْ إِلَيْنَا مُكْرَمًا ، فَأَدْخَلَ عَلَيْهِ
رَجُلٌ لَادِمٌ فِيهِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ هَشَّ^(٣) إِلَيْهِ ، وَرَفَعَ مَجْلِسَهُ ، وَأَمَرَ بِتَجْدِيدِ

(١) الحمى : واحد أحياء العرب .

(٢) الوثاق بالفتح وبكسر : ما يشد به .

(٣) تبسم وخف إليه وارتاح له .

الطعام ، وبَسَطَه بالكلام ، ولقَمَه حتى أنتهى الطعام ، ثم أمر له بِحُلَّةٍ
 حسنةٍ وَصَلَةٍ ^(١) ، وأمرَ برَدِّه إلى أهله مُكرِّمًا ، ولم يعاتبه على جُرْمِ
 ولا جنائية . ثم ألتفتَ إلى جُلُسائه وقال لهم : إن أفضلَ الأصحابِ
 من حَضَّ الصاحبَ على المكارمِ ، ونهاه عن المآثمِ ، وحسَّنَ
 لصاحبه أن يُجَازِيَ الإحسانَ بضعفه ، والإساءةَ بصفحه ؛ إنا إذا
 جازينا من أساء إلينا بمثل ما أساء فأئن موقعُ الشكرِ على النعمةِ فيما
 أُتيحَ من الظفرِ ؟

وقيل ، غضِبَ هارونُ الرشيدُ على مُحمَّدِ الطوسيِّ ، فدعا له
 بالسيفِ ، فبكى ، فقال له : ما يُبكيك ؟ فقال : والله يا أميرَ المؤمنين
 ما أفزعُ من الموتِ ؛ لأنه لا بدَّ منه ، وإنما بكيتُ أسفًا على خُرُوجي
 من الدنيا وأميرُ المؤمنينَ ساخطًا عليَّ . فضحك الرشيدُ ، وعفا عنه .
 وقال خالدُ بنُ عبدِ الله لسيِّمانَ بنِ عبدِ الملك حينَ وَجَدَ ^(٢) عليه :
 يا أميرَ المؤمنين ، إن القدرةَ تذهبُ الحفيظةَ ^(٣) ، وأنت تجلُّ عن
 العقوبةِ ، ونحنُ مُقرُّون بالذنبِ ، فإن تعفُ عني فأهلُ ذلك أنت ،
 وإن تعاقبني فأهلُ ذلك أنا ، فعفا عنه ^(٤) .

(١) عطية . (٢) غضب . (٣) الغضب .

(٤) انتهى من نهاية الأرب ج ٦ ص ٦٤ . طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٦ .

وتتمثل المشاركة الوجدانية في « أبراهام لنكولن ^(١) » أحد الرؤساء السابقين للولايات المتحدة بأمريكا، ومُصلحها الأكبر؛ فقد روى أحد قواد الجيش قال : في الأسبوع الأول الذي تسلمت فيه العمل صدرَ حكم المحكمة العسكرية بإعدام أربعة وعشرين جندياً من الفارين من الجيش. ثم أُرسِلَ الحُكْمُ أو (القرار) إلى الرئيس (لنكولن) للموافقة عليه ؛ فرفض ، فذهب القائدُ إلى مدينة واشنطن ، وقابل الرئيس ، وقال له :

« سيدي الرئيس ، إننا إذا لم نُمثلُ بهؤلاء الفارين شرّاً تمثيلٍ فإنَّ الجيشَ يكونُ في خطرٍ عظيمٍ ، والشفقة على الأقلية ظلمٌ للأكثرية . »
فأجاب (لنكولن) :

« أيُّها القائدُ ! إن الولايات المتحدة قد مُلِئتْ بالشكلى ^(٢) من الأرامل ^(٣) ، وأرجو ألا تسألني أن أزيد الطين بلة ؛ فإنني لن أجيبك إلى رغبتك . » وعفا عنهم جميعاً .

وفي يومٍ من الأيام أصدرَ أمراً بالعفو عن جنديٍّ حُكِمَ عليه

(١) ولد في ١٢ من فبراير سنة ١٨٠٩ ، وقُتل في ١٥ من أبريل سنة ١٨٦٦ م .

(٢) الشكلى : من فقدت ولدها . (٣) الأرملة : المرأة التي لا زوج لها .

بِالْقَتْلِ ؛ لِأَنَّهُ وُجِدَ نَائِمًا فِي مَرْكَزِ حِرَاسَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَقَى اللَّهَ وَدَمُ هَذَا الشَّابِّ الْمَسْكِينِ عَلَى مَلَابِسِي . إِنِّي لَا أَقْبَلُ أَنْ يُضْرَبَ بِالرِّصَاصِ وَقَدْ غَلَبَهُ النَّوْمُ لِشِدَّةِ تَعَبِهِ . » وَبَعْدَ أَشْهُرٍ قُتِلَ ذَلِكَ الشَّابُّ فِي أَثْنَاءِ الْحَرْبِ ، وَقَدْ وُجِدَ مَعْلَقًا صُورَةَ (لِنَكُولْنِ) عَلَى قَلْبِهِ ، كَاتِبًا عَلَيْهَا ، « حَفِظَ اللَّهُ الرَّئِيسَ لِنَكُولْنِ » .

وَيَيْنَمَا كَانَ (لِنَكُولْنِ) يَزُورُ جَرَحِي الْحَرْبِ إِذْ سَمِعَ جَرِيحًا يَبْكُ^(١) وَهُوَ فِي التَّزَعِ^(٢) الْأَخِيرِ وَيَرْدُّ ! « أَتَيْ ، أَتَيْ » ؛ فَبَكَى « لِنَكُولْنِ » وَذَهَبَ إِلَيْهِ ، وَأَنْحَنَى عَلَيْهِ ، وَسَأَلَهُ : مَاذَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ لَكَ يَا بَنِي الْعَزِيزِ ؟ فَأَجَابَ الْجَرِيحُ : « أَرْجُو إِسْرَافَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ إِلَى أَتَيْ » . فَازْدَادَ بَكَاءَ (لِنَكُولْنِ) ، وَأَقْنَعَهُ بِصَوْتٍ يَمْلُؤُهُ الْحُزْنُ وَالْعَطْفُ بِتَنْفِيدِ رَغْبَتِهِ . وَأَمَرَ بِإِسْرَافِ رِسَالَتِهِ فِي الْحَالِ إِلَى أُمِّهِ مَعَ رَايَةٍ خَاصَةٍ .

وَحَدَّثَ أَنْ رَأَى الرَّئِيسُ (لِنَكُولْنِ) غُلَامًا صَغِيرًا مَمْتَقِعًا^(٣) اللَّوْنِ ، نَحِيفَ الْجِسْمِ ، ضَعِيفَ الْقُوَّةِ ، وَاقِفًا بِجَانِبِ الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ ،

فدعاه الرئيس ، وقال له : أَقْبِلْ يَا بُنَى وَأَخْبِرْنِي بِمَا تَرْغَبُ ، فَمَقْدَمُ
الغلامُ نحوه ، وَأَخْبَرَهُ رَأْسَهُ أَحْتَرَامًا لَهُ ، وَقَالَ وَالْخَوْفُ يُبْدُو مِنْ نَبَرَاتِ
صَوْتِهِ : « مَوْلَايَ ؛ كُنْتُ أَشْتَغِلُ فِي مَصْنَعٍ ، فَطَرَدَنِي صَاحِبُهُ ،
فَرَضْتُ ، فَذَهَبْتُ إِلَى الْمُسْتَشْفَى ، فَكَشْتُ بِهِ مَدَّةً لَيْسَتْ بِالْقَصِيرَةِ ،
وَالآنَ لَا مَأْوَى لِي ؛ فَقَدْ قُتِلَ أَبِي فِي الْجَيْشِ ، وَمَاتَتْ أُمِّي وَأَنَا
صَغِيرٌ ، وَلَيْسَ لِي إِخْوَةٌ وَلَا أَخَوَاتٌ وَلَا أَصْدِقَاءُ ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مَنْ
يَعُولُنِي ^(١) » . ثُمَّ أَخَذَ يَبْكِي . فَامْتَلَأَتْ عَيْنَا (لِنَكُولُنِ) دُمُوعًا ،
وَسَرَّعَانَ مَا فَرَحَهُ ، وَأَدْخَلَ السَّرُورَ فِي قَلْبِهِ . وَأَمَرَ أَحَدَ الْمَوْظِفِينَ
بِالْعَنَاءِ بِهِ ، وَالْقِيَامِ بِشُؤْنِهِ وَتَرْبِيَّتِهِ . وَلَا عَجَبَ فَقَدْ كَانَ (لِنَكُولُنِ)
يُحِبُّ الْفُقَرَاءَ ، وَيُعْطِفُ عَلَى الْمَسَاكِينِ ، وَيُشْفِقُ عَلَى الْإِنْسَانِيَةِ ،
وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا لِلْمَشَارَكَةِ الْوَجْدَانِيَةِ .

وَمَنْ كَانَ يُشَارِكُ الْفُقَرَاءَ فِي آلَامِهِمُ الْأَدِيبُ الْإِنْكِلِيزِيُّ
« صَامُوِيلُ جُونْسُون » (١٧٠٩ — ١٧٨٤ م) ؛ فَقَدْ كَانَ دَائِمًا مُسْتَعِدًّا
لِلْإِحْسَانِ إِلَى الْمَسَاكِينِ ، وَالْعُطْفِ عَلَى الْبَائِسِينَ ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ فِي
طَرِيقِهِ بِالْفُقَرَاءِ وَهُمْ نَائِمُونَ فِي الشَّارِعِ وَضَعَ فِي يَدِ كُلِّ مِنْهُمْ قِطْعَةً

من النقود؛ كَيْ يَشْعُرُوا بِشَيْءٍ من الشُّرُورِ بعدَ يَقْظَتِهِمْ؛ ولا غِرابَةَ
فَقَدْ كَانَ چُونِسُونُ فَقِيرًا، جَرَّبَ آلامَ الْجُوعِ، ولا يَشْعُرُ بِالشَّيْءِ
شَعُورًا قَوِيًّا إِلَّا مِنْ يُجَرِّبُهُ.

وَقَدْ دُعِيَ الطَّيِّبُ «أَوَلْجَرْجُولْدَسِمِثُ» لزيارةِ عاملٍ مريضٍ في
بَيْتِهِ، فَوَجَدَ أَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الدَّوَاءِ، وَلَكِنَّهُ فِي حَاجَةٍ
إِلَى الْغِذَاءِ. فَطَلَبَ الطَّيِّبُ إِلَى زَوْجِ الْعَامِلِ أَنْ تَأْتِيَ مَعَهُ لِأَخْذِ
الدَّوَاءِ. وَأَعْطَاهَا صَنْدُوقًا. وَأَمَرَهَا أَلَّا تَفْتَحَهُ إِلَّا فِي مَنْزِلِهَا. فَلَمَّا
فَتَحَتْهُ فِي مَنْزِلِهَا وَجَدَتْهُ مَمْلُوءًا بِالنَّقُودِ، وَوَجَدَتْ وَرْقَةً كُتِبَ
عَلَيْهَا: «يُؤْخَذُ مِنْهُ كُلَّمَا دَعَتْ الْحَاجَةُ». وَكَانَتْ هَذِهِ النَّقُودُ كُلُّ
مَا مَعَ (جُولْدَسِمِثُ) فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. وَلِثَلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ.

لفضل الخامس

٤ - الشجاعة

رُبما كانت الشجاعة أهمَّ عنصرٍ من عناصر الشخصية القويّة ،
في أوقات الرخاء والشدّة على السواء. ولكن ما الشجاعة ؟ الشجاعة
قوةٌ بها يتمكّن الإنسان من السيطرة على قواه مع ضبط نفسه وقت
الخطر الذي يهدّده ، سواء أكان ذلك الخطر حقيقياً أم وهمياً .

وكما أنّ الشجاعة فضيلةٌ في الجنديّ والملاح ، كذلك هي فضيلةٌ
في غيرهما من بني الإنسان ، وهي خيرُ مقياسٍ يقاسُ به الإنسانُ في
أوقات الشدّة ، حيث يُتطلّب الثباتُ أو الإقدامُ . وبهذا المقياس
يُمْكِنُ وضعُ الشخص في مرتبته الخاصّة بين الشجعان أو الجبناء ،
وبين العظماء أو العاديين .

الشجاعة عمادُ الفضائل ، ومن فقدّها فقد كلّ فضيلةٍ . وتبدو
في ثبات القلب ، ورباطة الجأش ، وحضور اللب . والشجاع رجلٌ
ذو بسالةٍ ونجدةٍ ، صادقُ البأس ، ثابتُ الفؤاد ، يُنازلُ الرجال ،

وَيُقَارِعُ الْأَبْطَالَ . وَالْجَبَانَ إِنْ أَحْسَنَ بَعْضُهُمْ طَارَ فَوْأَدُهُ ، وَإِنْ طَنَّتْ
بِعَوْضَةٍ طَالَ سَهَادُهُ ، يَفْزَعُ مِنْ صَرِيرِ الْبَابِ ، وَيَقْلِقُ مِنْ طَنِينِ الذَّبَابِ .
وَقَدْ خَرَجَ الْمُعْتَصِمُ يَوْمًا لِلصَّيْدِ فَظَهَرَ لَهُ أَسَدٌ ، فَقَالَ لِرَجُلٍ مِنْ
أَصْحَابِهِ أَعْجَبَهُ قَوَامُهُ وَسِلَاحُهُ وَتَمَامُ خَلْقِهِ : أَفِيكَ خَيْرٌ يَا رَجُلُ ؟
قَالَ : لَا . فَضَحِكَ الْمُعْتَصِمُ وَقَالَ : قَبِّحَ اللَّهُ الْجَبَانَ .

وَرَأَى الْإِسْكَندَرُ سَمِيًّا^(١) لَهُ لَا يَزَالُ يَنْهَزُمُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا رَجُلُ ،
إِنَّمَا أَنْ تُغَيِّرَ فِعْلَكَ ، وَإِنَّمَا أَنْ تُغَيِّرَ اسْمَكَ .

وَقَدْ قِيلَ ، وَقِيلَ حَقًّا : إِنَّ الشَّجَاعَةَ تَتَوَقَّفُ عَلَى الْقُوَّةِ الْجَسْمِيَّةِ
وَالْعَصْبِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ الَّتِي لَدَى الْإِنْسَانِ . وَإِنَّ الْمَدْنِيَّةَ الْحَاضِرَةَ
قَدْ قَلَّتْ مِنَ الشَّجَاعَةِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ ؛ فَقَدْ صَرَّحَ أَحَدُ النُّظَارِ السَّابِقِينَ
لِمَدْرَسَةِ « إِيْتُون » الْإِنْكِلِيزِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ بِأَنَّهُ رَأَى غُلَامًا دَخَلَ فِي
عَيْنِهِ ذَبَابَةٌ ، فَخَاولَتْ أُمُّهُ وَأَخَوَاتُهُ الثَّلَاثُ إِخْرَاجَهَا بَغَيْرِ جَدْوَى ، وَلَمْ
يَكُنِ الْأَمْرُ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَكْثَرِ مَنْ أَنْ يَتَحَمَلَ الْوَلَدُ الْأُمَّ دَقِيقَةً وَاحِدَةً ،
وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَمَلَ أَلَامَ دَقِيقَةٍ — إِنْ كَانَتْ هُنَاكَ أَلَامٌ — فَأَخَذَ فِي
سَيَّارَةٍ إِلَى طَبِيبٍ فِي مَدِينَةٍ تَبْعُدُ خَمْسَةَ أَمْيَالٍ عَنِ الْقَرْيَةِ . كُلُّ هَذَا

(١) يُقَالُ هُوَ سَمِيٌّ فَلَانٌ : إِذَا وَافَقَ اسْمُهُ اسْمَ فَلَانٍ .

من أجل شيء يسير كان في استطاعة أي فرد من الأسرة أن يقوم به بسهولة .

هذه حكاية عن شبان الأمس وأمهات الأمس بانجلترا . أما اليوم فتجد الأمهات والآباء في الرّيف يغرسون الشجاعة ، وخلق الرجولة في نفوس أبنائهم من الصغر ، ويعودونهم الصبر وضبط النفس ، وكتمان الشعور ، وتحمل الألم من الطفولة الأولى .

وبهذه الوسيلة يبدئون الشجاعة فيهم . ولا يظهر الخلق المتين ، ولا تبدو الشخصية القوية ، إلا بهذا النوع من الشجاعة ، وهو القدرة على احتمال الآلام . وإن من يستطيع أن يحتمل دقائق أكثر من غيره يمكنه أن يفوز بالنجاح والنصر ، سواء كان جندياً أم قائداً ، متعلماً أم معلماً ، غنياً أم فقيراً .

وبالشجاعة يظهر الفرق الكبير بين الشخصية القوية ، والشخصية الضعيفة .

والآن نريد أن نبين مظاهر الشجاعة وأثرها في النجاح في العمل ، وفي الحياة الاجتماعية فنقول :

مظاهر الشجاعة :

أولاً : الشجاعة في ضبط النفس ؛ وذلك بأن نقفَ موقفًا طبيعيًا بكل شجاعة عند مقابلة الرؤساء أو عند الظهور أمام مجتمع لإلقاء محاضرة ، أو الاشتراك في مناظرة ، أو التعبير عن رأي ، أو الدفاع عن مبدأ أو عقيدة ، بحيث لا نرتعد ولا نضطرب ، ونظهر بأحسن مظهر في حديثنا وإلقائنا ، ونبرهن بأعمالنا وآرائنا على مقدرتنا بكل لطف وأدب . وإذا لم يكن لدى الإنسان قدرة على إظهار مقدرته بالعمل وضبط النفس ، فقد تضيع الفرصة الذهبية التي ربما لا تصادفُه مرة أخرى . وكثيراً ما تضيع الفرصة من الشخص ، ثم يندبُ سوء حظّه ، ويشكو الظروف والمقادير ، مع أنه لم يكن في حاجة إلى أكثر من الشجاعة في أنتهاز الفرصة حين سُنوحها .

قيل^(١) إن رجلاً من أهل الشام قال : دخلتُ المدينة فرأيتُ رجلاً راكباً على بغلة لم أر أحسنَ وجهاً ولا سمتاً^(٢) ولا ثوباً ولا دابةً منه ، فقال قلبي إليه ، فسألتُ عنه ، فقل لي : هذا الحسنُ

ابنُ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضى الله عنهما ، فامتلاً قلبي له بُغضاً ،
وحسدتُ عليّاً أن يكونَ له ابنٌ مثله ، فصرتُ إليه ، فقلتُ له :

أأنتَ ابنُ أبي طالبٍ ؟

فقال : أنا ابنُ ابنِهِ .

فقلتُ : فبك وبأبيك أُسبُهما . فلما انقضى كلامي قال لى :

أحسبك غريباً . قلتُ : أجل .

قال : فإلِ بنا فإن احتجتَ إلى منزلٍ أنزلناك ، أو إلى مالٍ
أسيناك^(١) ، أو إلى حاجةٍ عاوناك .

قال : فانصرفتُ عنه ووالله ما على الأرضِ أحدٌ أحبُّ إلىَّ منه .

وممن كان يتمثلُ فيهم ضبطُ النفسِ جعفرُ الصادقُ (رضى الله عنه) ؛

فقد حُكي أنَّ غلاماً له وقفَ يصبُّ الماءَ على يديه ، فوقع الإبريقُ من

يد الغلامِ في الإناءِ ، فطار الرّشاشُ في وجهه ، فنظر جعفرُ إليه نظرَ

مُغضَبٍ ، فقال : يا مولاي ، « والكاظمين^(٢) الغيظَ » قال : قد كظمتُ

غيطي . قال : « والعافينَ عن الناسِ » . قال : قد عفوتُ عنك . قال :

« والله يحبُّ المحسنينَ » . قال : أذهبْ فأنتَ حرٌّ لوجه الله الكريمِ .

(١) ساعدناك

(٢) كظم غيظه يكظمه : رده وحبسه .

ولا سبب يدعو الإنسان إلى الخوف من أبناء جنسه ؛ فقد يكون الخوف مبنياً على وهم لا أساس له . وإذا وثق المتكلم بنفسه ، وعرف ما يريد أن يقوله ، وعرف كيف يُعبّر عن خواطره ، وكيف يُبرهن على نظريته بالعقل والمنطق ، فإنه يستطيع أن يطمئن إلى نفسه ، ويُمسك بزمامها ، ويُقابل من يشاء ، ويخاطب من يريد ، ما دام مُتَحلياً بالأدب ، واثقاً بنفسه ، وكان عقله مرتباً ، وكانت أفكاره منطقيّة ، بحيث لا يتسرّع في ذكر شيء يدلّ على عقل مضطرب ، أو روح قلقية ، ولا يتظاهر بما ليس فيه . وإذا وثقت بما تريد أن تقوله ، فهذا وحده كافٍ لأن تؤثر في نفوس سامعيك ، وتجعل قلبك وروحك في إثبات ما تريد إثباته ، أو نفي ما تريد نفيه ، فتتكلم بقلبك لا بلسانك .

قيل مرَّ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بصبيان يلعبون ، وفيهم عبد الله بن الزبير^(٢) ، ففرّوا حين رآوه ، وثبت عبد الله ، فقال عمر : ما لك لا تفرّ مع أصحابك ؟ قال : لم أجزم فأخافك ، ولم يكن في الطريق ضيق فأوسع لك .

(١) هو عبد الله بن الزبير بن العوام ، دعا لنفسه بالخلافة أيام يزيد ، وبايعه أهل الأقطار إلا الشام ، وقتل سنة ٧٣ هـ .

ولا شيء يَقْضَى عَلَى الشَّجَاعَةِ وَيَخْضِدُ^(١) شَوْكَهَا أَكْثَرُ مِنْ
 الْهَلَعِ^(٢)؛ فَيَتَمَادَى وَجَدَ وَجَدَ الْأَلَمُ، وَالْقَلْقُ النَّفْسُ، وَتَعَبُ الضَّمِيرِ،
 وَأَضْطِرَابُ الْعَقْلِ؛ فَتَضْطَرِبُ شَخْصِيَّةُ الْإِنْسَانِ. وَإِذَا كَانَ الْخَوْفُ
 ثَمَنًا نَدَفَعَهُ فِي سَبِيلِ الْحَافِظَةِ عَلَى الْحَيَاةِ فَلَا فِرَاطَ فِيهِ عَيْبٌ مِنَ الْعُيُوبِ
 الْإِنْسَانِيَةِ الَّتِي يَجِبُ تَهْذِيبُهَا، وَالَّتِي تَقْضِي بِأَنْ يُفَكَّرَ الْإِنْسَانُ
 فِي الشَّيْءِ وَفِي نَتَاجِئِهِ.

وَيُضَافُ إِلَى الْخَوَافِ الَّتِي تَلْحَقُ الشَّخْصَ فِي حَاضِرِهِ وَتَحِيطُ بِهِ
 مِنْ وَقْتٍ لآخر، خَوَافٌ وَهْمِيَّةٌ يَتَوَهَّمُهَا، وَيَتَخِيلُ حَدُوثَهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ،
 فَيَقْلَقُ بِأَلِّهِ، وَيَضْطَرِبُ فِكْرُهُ، وَتَضْعَفُ شَخْصِيَّتُهُ. وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ
 هَذِهِ الْأَوْهَامُ الْخَفِيفَةُ مَبْنِيَّةً عَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ، وَيَنْدَرُ أَنْ تَقَعَ. وَكَمْ
 أَغْتَمَمْنَا^(٣) لَتَوْقَعِ مَصَائِبَ لَمْ تَحْدُثْ، وَلَنْ تَحْدُثْ. وَتَكْثُرُ هَذِهِ
 الْخَوَافُ عَادَةً لَدَى ذَوِي الشَّخْصِيَّاتِ الضَّعِيفَةِ؛ أَمَّا ذَوُو الشَّخْصِيَّاتِ
 الْقَوِيَّةِ فَلَا يُكْثِرُونَ الْهِمُومَ، مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبٍ، وَلَا قَلَّ سَبَبٍ،
 بَلْ يَسْتَقْبِلُونَ الْحَيَاةَ كَمَا هِيَ، وَيُوجَّهُونَهَا بِمَا فِيهَا مِنْ مَسَرَّاتٍ

(١) يُقَالُ خَضِدَ الشَّجَرُ: أَيِ قَطَعَ شَوْكَهُ، وَبَابُهُ ضَرْبٌ.

(٢) الْهَلَكُوعُ: أَشَدُّ الْجَزَعِ. (٣) أَغْتَمَّ: أَصَابَهُ الْقَمُّ وَالْكَرْبُ.

وأحزانٍ ، وسعادةٍ وشقاءٍ ، يبتسمون بهدوءٍ حتى في مواطن البكاء ،
ويصبرون في مواقف البأساء ، وهؤلاء جديرون بالنجاح في الحياة ؛
لشدّة ثقتهم بالله .

والحياة مملوءةٌ بالحوادث والمصائب ، ولا يقدرُ الإنسانُ أن
يعرفَ ما ينتظرُه في الغدِ من المقاديرِ . وبالصبر على الشدائد تحبّرُ
رجولتنا ، ويُعرفُ معدنُ الرجولةِ فينا . وبالروح الذي تقابلُ به
هذه الحوادث تظهر شخصيتنا أو تستترُ . ولا يظهر الرجالُ إلا عند
الشدائدِ والمصاعبِ .

ومن حيثُ إن النجاحَ في الحياة ليس من السهل ، فيجبُ أن
يتعلمَ الإنسانُ كيف يبتسمُ في الأيام المظلمة ، كما يبتسمُ عند المسراتِ
في أيام السعادةِ والهناءِ . وينبغي أن تعودَ الشجاعةُ والاحتفاظُ بقواه
عند الملماتِ ؛ حتى يكتسبَ إعجابَ رفقاءه واحترامهم ، ويثبتَ ثبوتَ
الطود^(١) في مهبِّ الرياحِ .

وليس من الشجاعة أن تُكثِرَ شكوى الحياةِ والظروفِ
والأيامِ ؛ فشكوى سوء الحال لن تغَيِّرَ ما حدث بل تذهبُ بنصرة^(٢)

العقل وقوة القلب . وإن الخوفَ من الخذلانِ وَالْهزيمةَ يُؤدِّي إلى الهزيمة . وَقُوَّةُ الأملِ في النجاحِ مع التشجيعِ والمثابرة تحفظُ روحَ الإنسانِ وَهَمَّتَهُ ، وتبعثُ فيه كثيراً من الرجاءِ في الفوزِ ، وخاصةً إذا عملَ بعقله وقلبه ويده . وإن الاعترافَ بالنقصِ فضيلةٌ ، والعملُ على علاجه شجاعةٌ .

فنحنُ في حاجةٍ إلى الشَّجاعةِ التي بها نستطيعُ مواجهةَ المخاوفِ ، ومقاومتها بكل ثباتٍ وصبرٍ وتفكيرٍ حتى نتغلبَ على مصاعبِ الحياةِ ، ونقللَ من الخوفِ الذي يهدمُ الرجولةَ من أساسِها ، ويقتلُ الشخصيةَ في مهدها .

وإن أعظمَ انتصارٍ في الحياةِ هو الانتصارُ على النفسِ بضبطِها ، وَكَفِّجْ^(١) جَاحِهَا ، وَالتغلبِ عليها . وليست الشجاعةُ في أن تنتصرَ على سبعٍ مُفترسٍ فَحَسَبُ ، ولكن الشجاعةُ في أن تُسيطرَ على نفسك التي بين جنبيك . وأرقى مظاهر الشجاعةِ الصبرُ والتحملُ عند المقدرة . قال صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديدُ بالصرَّعة^(٢) ،

(١) كبح الدابة : جذبها إليه بالجام لكي تقف ولا تجرى . (٢) الصَّرَّعة : الذي يصرع الناس ولا يصرعونه ، ويطرهم على الأرض ولا يظرحونه .

إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ . « فَيَقْهَرُهَا بِجَلَمِهِ ،
وَيَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا بَثْبَاتِهِ .

وقيل : « مرَّ المسيحُ بنُ مريمَ عليه السلام بقومٍ من اليهود ،
فقالوا له شرًّا ، فقال خيراً . فقليل له : إنهم يقولون شرًّا وتقول لهم
خيراً ؟ فقال : كلُّ واحدٍ يُنْفِقُ مِمَّا عِنْدَهُ .

وَذَكَرَ عَنِ الْمَأْمُونِ أَنَّهُ قَالَ لِيُحْيَى بْنِ أَكْثَمَ يَوْمًا : سِرُّ بَنِي
نُفَرَجٍ ، فَسَارَا . فَبَيْنَمَا هُمَا فِي الطَّرِيقِ وَإِذَا مَقْصِبَةٌ ^(١) خَرَجَ مِنْهَا
رَجُلٌ بِقَصْبَةٍ لِلْمَأْمُونِ يَتَظَلَّمُ لَهُ . فَنفَرَتْ دَابَّتُهُ مِنْهُ ، فَأَلْقَتْهُ عَلَى
الْأَرْضِ صَرِيحًا . فَأَمَرَ بِضَرْبِ ذَلِكَ الرَّجُلِ . فَقَالَ الرَّجُلُ : « يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ الْمَضْطَرَّ يَرْكَبُ الصَّعْبَ مِنَ الْأُمُورِ وَهُوَ عَالِمٌ بِرُكُوبِهِ ،
وَيَتَجَاوَزُ الْأَدَبَ وَهُوَ كَارِهِ لِمُتَجَاوِزِهِ . وَلَوْ أَحْسَنْتَ الْأَيَّامَ مُطَالِبَتِي
لَأَحْسَنْتُ مُطَالِبَتَكَ ، وَلَأَنْتَ عَلَى رَدٍّ مَا لَمْ تَفْعَلْ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى
رَدِّ مَا قَدْ فَعَلْتُ » .

فَبَكَى الْمَأْمُونُ وَقَالَ : « بِاللَّهِ أَعِدْ عَلَيَّ مَا قُلْتَ » . فَأَعَادَهُ ،
فَالْتَفَتَ الْمَأْمُونُ إِلَى يُحْيَى بْنِ أَكْثَمَ وَقَالَ : « أَمَا تَنْظُرُ إِلَى مُخَاطَبَةِ

(١) أَرْضُ زُرْعَتِ قَصْبَاءَ .

هذا الرجل بأصغرَيْهِ^(١) ، والنبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : « المرءُ بأصغرَيْهِ : قلبه ولسانه » . والله لا وقفتُ لك إلا وأنا قائمٌ على قدمي » . فوقفَ ، وأمرَ له بِصِلَةٍ جزييلةٍ ، واعتذرَ إليه .

وقيل : دخل إبراهيمُ بنُ المهديُّ على المأمونِ قبلَ رضاهُ عنه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين . . . قد جعلك اللهُ فوقَ كلِّ ذِي ذنبٍ ، كما جعلَ كلَّ ذِي ذنبٍ دونك . فإن تأخذُ فبحقِّك ، وإن تعفُ فبفضلك ، ثم قال :

ذنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ * وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ

فَخُذْ بِحَقِّكَ أَوْلاً * فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ

إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فَعَالِي * مِنَ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

فقال المأمونُ : القُدرةُ تُذهِبُ الحَفِيظَةَ^(٢) ، والندمُ توبةٌ ، وعَفُوُّ اللهِ بينهما ، وهو أكبرُ ما يُحاول . يا إبراهيم ، لقد حَبَبْتَ إِلَيَّ العَفْوَ حَتَّى خِفْتُ أَلَّا أُوجَرَ عَلَيْهِ . لا تُثْرِبْ^(٣) عَلَيْكَ . يَغْفِرُ اللهُ لَكَ . وعفا عنه ، وأمرَ بِرَدِّ مَالِهِ وَضِياعِهِ .

وَحُكِيَ أَنَّ جَارِيَةً جَاءَتْ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ بِقَصْعَةٍ مِنْ
ثَرِيدٍ تُقَدِّمُهَا إِلَيْهِ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ . فَأَسْرَعَتْ بِهَا ، فَسَقَطَتْ مِنْ يَدِهَا ،
فَانْكَسَرَتْ ، فَأَصَابَهُ وَأَصْحَابُهُ مِمَّا كَانَ فِيهَا . فَارْتَاعَتْ ^(١) الْجَارِيَةُ
عِنْدَ ذَلِكَ . فَقَالَ لَهَا : « أَنْتِ حُرَّةٌ لَوْ جِئْتِ اللَّهَ تَعَالَى ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ
كَفَّارَةً لِلرَّوْعِ ^(٢) الَّذِي أَصَابَكَ » .

وَقِيلَ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ : مِمَّنْ تَعَلَّمْتَ الْحِلْمَ ؟ قَالَ : مِنْ قَيْسِ
ابْنِ عَاصِمٍ الْمِنْقَرِيِّ ؛ رَأَيْتُهُ قَاعِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ مُحْتَبِيًا ^(٣) بِجَمَائِلِ ^(٤)
سَيْفِهِ يُحَدِّثُ قَوْمَهُ ، حَتَّى أَتَى بِرَجُلٍ مَكْتُوفٍ ، وَرَجُلٍ مَقْتُولٍ ،
فَقِيلَ لَهُ : هَذَا ابْنُ أَخِيكَ قَتَلَ ابْنَكَ . فَوَاللَّهِ مَا حَلَّ حَبْوَتَهُ ،
وَلَا قَطَعَ كَلَامَهُ . ثُمَّ أُلْتَفَتْ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ وَقَالَ لَهُ : يَا ابْنَ أَخِي
أَثِمْتَ بِرَبِّكَ ، وَرَمَيْتَ نَفْسَكَ بِسَهْمِكَ . وَقَتَلْتَ ابْنَ عَمَّتِكَ ،
ثُمَّ قَالَ لَابْنِ لَهُ آخَرَ : قُمْ يَا بُنَى فَوَارِ أَخَاكَ ، وَحُلَّ كِتَافُ ^(٥)

(١) فزعت . (٢) الروع : الفزع . (٣) احتبي بالثوب :

اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بهامة ونحوها ، والاسم الحبوة ، ويضم .

(٤) جمائل السيف لا واحد لها من لفظها ، وإنما واحدها محمّل ، وقيل جمالة .

(٥) الكتاف : الحبل الذي تشد به اليد إلى الخلف .

أَبْنِ عَمَّكَ ، وَسُقْ إِلَى أُمِّهِ مَائَةً نَاقَةً دِيَّةَ أَبْنِهَا ؛ فَإِنِهَا غَرِيبَةٌ^(١) .
 وَقِيلَ لَقَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ : مَا الْحِلْمُ ؟ قَالَ : أَنْ تَصَلَ مِنْ قَطْعِكَ ،
 وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ . وَقَالَ لَقْمَانُ الْحَكِيمُ :
 ثَلَاثَةٌ لَا تَعْرِفُهُمْ إِلَّا عِنْدَ ثَلَاثَةٍ . لَا يُعْرِفُ الْحَلِيمُ إِلَّا عِنْدَ الْغَضَبِ ،
 وَلَا الشَّجَاعُ إِلَّا عِنْدَ الْحَرْبِ ، وَلَا تَعْرِفُ أَخَاكَ إِلَّا إِذَا أُحْتَجَّتْ إِلَيْهِ .
 وَقَالَ مَوْزِقُ الْعِجْلِيِّ : مَا تَكَلَّمْتُ فِي الْغَضَبِ بِكَلِمَةٍ نَدِمْتُ عَلَيْهَا
 فِي الرِّضَا . وَقَالَ حَكِيمٌ^٢ : لَا يَظْهَرُ الْحِلْمُ إِلَّا مَعَ الْإِنْتِصَارِ ، كَمَا
 لَا يَظْهَرُ الْعَفْوُ إِلَّا مَعَ الْإِقْتِدَارِ .

وَقَالَ أَحَدُ الْفَلَاسِفَةِ : الْحَرِيَّةُ الْحَقَّةُ أَنْ يَضْبُطَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ . وَقَالَ
 آخَرُ : إِنْ جُلَّ فَضَائِلُ الْإِنْسَانِ تَظْهَرُ فِي الصَّبْرِ وَضَبِطِ النَّفْسِ
 وَالْحِلْمِ . وَقَالَ سَقْرَاطُ^٣ : مِنْ كَثُرَ أَحْتِمَالُهُ ، وَظَهَرَ حَامُهُ ، قَلَّ ظَلَمُهُ ،
 وَكَثُرَتْ أَعْوَانُهُ . وَقَالَ أَبُو الْمُعْتَزِّ : عَقُوبَةُ الْغَضَبِ تَبْدَأُ بِالْغَضَبَانِ ؛
 تَقْبَحُ صُورَتُهُ ، وَتَثْلُمُ^(٢) دِينَهُ ، وَتَعْجَلُ نَدَمَهُ .

وَالْحِلْمُ دَفْعُ السَّيِّئَةِ بِالْحُسْنَةِ ، وَهُوَ دِعَامَةُ^(٣) الْعَقْلِ ، وَعِقَالُ الشَّرِّ ؛

(١) انتهى من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ج ٦ ص ٥١ ، طبعة
 دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ م . (٢) التثلمة : الخلل .
 (٣) الدعامة : عماد البيت وما يستند به الحائط .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، أُدْفَعُ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ؛ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . » وَقَدْ رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ : « يَا أَبَا الْمُنْذِرِ ، إِنْ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ ^(١) يَرْضَاهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ « الْحِلْمُ وَالْأَنَاة » . وَقِيلَ . الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ تَوْءَمَانِ يَنْتَجِبُهُمَا عَلَوُ الْهِمَّةِ . وَمِنْ كَلَامِ النَّبُوءَةِ : « كَادَ الْحَلِيمُ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا » .

وَقِيلَ : الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ . وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا حُكِيَ عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ رَجُلٌ سَيِّئُ الْخُلُقِ ، فَقِيلَ لَهُ : أَمَا تَأْنِفُ مِنْ مِثْلِ هَذَا عِنْدَكَ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى الْإِسْتِبْدَالِ بِهِ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَتْرَكُهُ لِأَتَعَلَّمَ عَلَيْهِ الْحِلْمَ . قَالَ الشَّاعِرُ :

وَلَيْسَ يَتِمُّ الْحِلْمُ لِلْمَرْءِ رَاضِيًا * إِذَا هُوَ عِنْدَ السَّخَطِ لَمْ يَتَحَلَّمْ ^(٢)
كَمَا لَا يَتِمُّ الْجُودُ لِلْمَرْءِ مُوسِرًا * إِذَا هُوَ عِنْدَ الْقَتْرِ ^(٣) لَمْ يَتَحَشَّمْ ^(٤)

وَرَوَى عَنْ سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ أَنَّهُ قَالَ : الْحِلْمُ عَلَى خَمْسَةِ أَوْجِهٍ :

(١) فِي الْإِحْيَاءِ لِلْغَزَالِيِّ « خَلْقَيْنِ يَجِبُهُمَا . . . » ج ٣ ص ١٢٣ طبع بالمطبعة الميمنية .

(٢) يَتَظَاهَرُ بِالْحِلْمِ . (٣) الضِّيقُ (٤) يَتَحَشَّمُ : يَتَذَمَّرُ وَيَسْتَحْيِي .

حِلْمٌ غَرَزِيٌّ^(١)؛ وهو هِبَةٌ من الله للعبد، يعفو عمن ظلمته، ويصل من قطعه، ويُعطى من حرمة، ويُحسن لمن أساء إليه، وحِلْمٌ تَحَالُمٌ، يَكْظُمُ غَيْظَهُ رجاء الثَّوابِ وفي القلب كراهيةٌ، وحِلْمٌ كِبَرٌ لا يَرَى المسىءَ أَهْلًا أَنْ يَجَازِيَهُ؛ وحِلْمٌ مَذْمُومٌ، رياءٌ وسمعةٌ وهو حاقضٌ ساكتٌ يُرَأَى به جِلْسَاءُهُ، وحِلْمٌ مَهَانَةٌ وَذِلَّةٌ وَعَجْزٌ وَضَعْفٌ نَفْسٍ وَصِغَرُ هِمَّةٍ .
وَقَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ: وَمَنْ أَشْرَفَ نَعُوتِ الْإِنْسَانِ أَنْ يُدْعَى حَلِيمًا، لِأَنَّهُ لَا يُدْعَاهُ حَتَّى يَكُونَ عَاقِلًا وَعَالِمًا وَمُصْطَبِرًا وَمَحْتَسِبًا وَعَفْوًا وَصَاحِفًا وَمَحْتَمِلًا وَكَاطِمًا. وَهَذِهِ شَرَائِفُ الْأَخْلَاقِ، وَكَرَائِمُ السَّجَايَا وَالْخُلُصَالِ .

وَقَالَ مَعَاوِيَةُ لَابْنِهِ يَزِيدَ:

« عَلَيْكَ بِالْحِلْمِ وَالْإِحْتِمَالِ حَتَّى تَمِكَّنَكَ الْفُرْصَةُ ، فَإِذَا أَمَكَّتَكَ فَعَلَيْكَ بِالصَّفْحِ ، فَإِنَّهُ يَدْفَعُ عَنْكَ مُعْضِلَاتِ الْأُمُورِ ، وَيَكْفِيكَ مَصَارِعَ الْمَحْذُورِ » .

حِكْمِي أَنَّهُ لَمَّا أَفْضَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ^(٢) اخْتَفَتْ مِنْهُمْ

(١) طَبِيعِي . (٢) مِنْ مَجَانِي الْأَدَبِ ج ٣ ص ٢٩٩ .

جميعُ رجالِ بني أُمَيَّةَ ، وَكَانَ مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .
وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ هَذَا رَجُلًا عَالِمًا كَامِلًا أَدِيبًا ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ فِي سِنِ
الشَّبَابَةِ ، فَأَخَذُوا لَهُ أَمَانًا مِنَ السَّفَاحِ ، فَأَعْطَاهُ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَاحُ
أَمَانًا وَأَكْرَمَهُ ، وَقَالَ لَهُ : الزَّمْ مَجْلِسِي . فَذَاتَ يَوْمٍ قَالَ لَهُ
أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَاحُ : يَا إِبْرَاهِيمُ ، حَدِّثْنِي عَمَّا مَرَّ بِكَ فِي أَسْتَخْفَائِكَ
مِنَ الْعَدُوِّ . فَقَالَ : سَمِعَا وَطَاعَةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

« كُنْتُ مُخْتَفِيًا فِي الْحَيْرَةِ ^(١) بِمَنْزِلٍ فِي شَارِعٍ عَلَى الصَّحْرَاءِ ،
فَبَيْنَمَا كُنْتُ يَوْمًا عَلَى ظَهْرِ ذَلِكَ الْبَيْتِ ، إِذْ بَصُرْتُ بِأَعْلَامٍ سُودٍ قَدْ
خَرَجَتْ مِنَ الْكَوْفَةِ تُرِيدُ الْحَيْرَةَ — فَتَخَيْلْتُ أَنَّهَا تُرِيدُنِي . فَخَرَجْتُ
مُسْرِعًا مِنَ الدَّارِ مُتَسَكِّرًا ، حَتَّى أَتَيْتُ الْكَوْفَةَ وَأَنَا لَا أَعْرِفُ أَحَدًا
أَخْتَفِي عَنْهُ . فَبَقِيتُ فِي حَيْرَةٍ . فَنَظَرْتُ وَإِذَا أَنَا بِيَابٍ كَبِيرٍ وَاسِعٍ
الرَّحْبَةِ ^(٢) ، فَدَخَلْتُ فِيهِ . فَرَأَيْتُ رَجُلًا وَسِيمًا ^(٣) ، حَسَنَ الْهَيْئَةِ ،
مُقْبِلًا عَلَى الرَّحْبَةِ وَمَعَهُ أَتْبَاعُهُ ، فَتَزَلَّ عَنْ فَرَسِهِ وَالتَفَتَ ، فَرَأَنِي ،
فَقَالَ لِي : مَنْ أَنْتَ ؟ وَمَا حَاجَتُكَ ؟

(٢) الساحة والفناء .

(١) مدينة بالقرب من الكوفة .

(٣) حسن الوجه .

فَقُلْتُ : رَجُلٌ خَائِفٌ عَلَى دَمِهِ ، جَاءَ يَسْتَجِيرُ فِي مَنْزِلِكَ .
فَادْخَلَنِي مَنْزِلَهُ ، وَصَيَّرَنِي فِي حُجْرَةٍ تَلِي حَرَمَهُ . وَكُنْتُ عِنْدَهُ فِي كُلِّ
مَا أَحْبَبَهُ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَلِبَاسٍ . وَهُوَ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ مِنْ حَالِي ،
إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَرْكَبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنَ الْفَجْرِ وَيَمْضِي وَلَا يَرْجِعُ إِلَّا
قَرِيبَ الظَّهْرِ .

فَقُلْتُ لَهُ يَوْمًا : أَرَأَيْكَ تُدْمِنُ^(١) الرُّكُوبَ كُلَّ يَوْمٍ ، فَفِيمَ ذَلِكَ ؟
فَقَالَ لِي : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَ قَدْ قَتَلَ أَبِي
ظُلْمًا ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ مُخْتَفٍ بِالْحَيْرَةِ ، فَأَنَا أَطْلُبُهُ يَوْمِيًّا لَعَلَّيْ أَجِدُهُ
وَأَدْرِكُ مِنْهُ ثَأْرِي » .

فَلَمَّا سَمِعْتُ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَثُرَ تَعَجُّبِي وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :
إِنَّ الْقَدَرَ سَاقَنِي إِلَى حَتْفِي^(٢) فِي مَنْزِلِ مَنْ يَطْلُبُ دَمِي . فَوَاللَّهِ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي كَرِهْتُ الْحَيَاةَ . ثُمَّ إِنِّي سَأَلْتُ الرَّجُلَ عَنْ أَسْمِهِ
وَأَسْمَ أَبِيهِ ، فَأَخْبَرَنِي ، فَعَلِمْتُ أَنَّ كَلَامَهُ حَقٌّ ، وَأَنَّ الَّذِي قَتَلَ أَبَاهُ ؛
فَقُلْتُ لَهُ : يَا هَذَا إِنَّهُ قَدْ وَجِبَ عَلَيَّ حَقُّكَ ، وَلِعَمْرُوفِكَ لِي يَلْزَمُنِي أَنْ
أَدْلِكَ عَلَى خَصِمِكَ الَّذِي قَتَلَ أَبَاكَ ، وَأَقْرَبَ عَلَيْكَ الْخُطْوَةَ . فَقَالَ :

(١) تديم وتداوم، وتواظب وتلازم . (٢) هلاكي .

وما ذاك ؟ فقلت له : أنا إبراهيمُ بنُ عبدِ الملك ، وأنا قاتلُ أبيك ،
نخذ بثأرك .

فتبسّم مني وقال : هل أضجرك الاختفاء والبعدُ عن منزلك
وأهلك فأحببتَ الموت ؟

فقلت : لا والله ، وليكنّى أقولُ لك الحق ، وإني قتلتُهُ في يومٍ
كذا ، من أجلِ كذا . فلما سمعَ الرجلُ كلامي هذا وعلمَ صدقي تغيّرَ
لونه ، واحمرّت عيناه ، ثم فكّر طويلاً ، والتفتَ إلىّ وقال : أما أنتَ
فسوفَ تلقى أبى عندَ حاكمٍ عادلٍ ، فيأخذُ بثأره منك ، وأما أنا فلا أخفر^(١)
ذمتي ، وليكنّى أريدُ أن تخرجَ عني ؛ فإنّي لستُ آمنُ عليك من نفسي .
ثم إنه أعطاني ألفَ دينار ؛ فأبيتُ أخذها وأنصرفتُ عنه . فهذا
يا أمير المؤمنين أكرمُ رجلٍ رأيتهُ وسمعتُ عنه في عمري بعد
أمير المؤمنين .

وقيل : قُتلَ للأحنفِ بن قيسٍ ولدٌ ، وكان الذي قتله أخاً للأحنفِ ،
فجىءَ به مكتوفاً ليُقيدهُ^(٢) ؛ فلما رآه الأحنفُ بكى ، وأنشد :

(٢) أقاده : اقتبس منه ، وقتله قوداً ،

(١) أنقض عهدي وأغدرك .
والقود : القصاص والأخذ بالثأر

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءُ^(١) وَتَعْزِيَةٌ * إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْنِي وَلَمْ تُرِدْ
كِلَاهُمَا خَلْفُ مَنْ فَقَدْ صَاحِبِهِ * هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِي
وَيَرَى الْفِيلَسُوفُ الْإِنْكَلِيزِيُّ « هِرْبِرْت سِپِنْسَر^(٢) » أَنَّ ضَبْطَ
النَّفْسِ أَسَاسُ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَأَنَّهُ الْغَرَضُ مِنَ التَّرْبِيَةِ .
وَقَدْ ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ « جُورْجَ وَاشِنْطُونَ »^(٣) مُحَرَّرَ أَمْرِيكَ
كَانَ مِثْلًا فِي الْقُدْرَةِ عَلَى كِتْمَانِ الشُّعُورِ ؛ إِذْ لَمْ يَغْضَبْ فِي حَيَاتِهِ إِلَّا
مَرَّةً وَاحِدَةً .

ثَانِيًا : هُنَاكَ مَظْهَرٌ لِلشَّجَاعَةِ يَتَبَيَّنُ فِي التَّعَلُّبِ عَلَى الصَّعَابِ الَّتِي
تَعْتَرِضُ الْإِنْسَانَ فِي الْحَيَاةِ ، وَإِصْلَاحِ الْأَخْطَاءِ الَّتِي تَمُرُّ بِنَا ، سِوَا
أَنَّ هَذِهِ الْأَخْطَاءَ مَنْسُوبَةً إِلَيْنَا أَمْ مَنْسُوبَةً إِلَى غَيْرِنَا . وَهُنَاكَ
كَثِيرٌ مِنَ الْمَصَاعِبِ الَّتِي يُمْكِنُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا بِقَلِيلٍ مِنَ الشَّجَاعَةِ
وَالْحُزْمِ وَالثَّبَاتِ .

وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ الْجُبْنُ سَبَبًا فِي الْإِخْفَاقِ ، وَعَدَمِ النِّجَاحِ فِي

(١) تَعْزِيَةٌ وَسَلَاوِي .

(٢) كَانَ مِنْ كِبَارِ الْمُرَبِّينَ مِنَ الْإِنْكَلِيزِ (١٨٣٠ — ١٩٠٣ م) .

(٣) وَلَدَ فِي ٢٢ مِنْ فَبْرَايِرِ سَنَةِ ١٧٢٢ م . وَتَوَفَّى فِي ١٤ مِنْ دِيَسَمْبَرِ سَنَةِ ١٧٩٩ .

ارْجِعْ إِلَى مَا كَتَبْنَاهُ عَنْهُ فِي كِتَابِنَا : « قِصَصُ فِي الْبَطُولَةِ وَالْوَطَنِيَّةِ » بِمَكْتَبَةِ الْمَعَارِفِ .

العمل. وكما تكونُ الشجاعةُ في الإقدامِ على الشيء تكونُ في الإحجامِ عنه عند تحققِ التهلكة. ولا تقلُ الشجاعةُ في الإحجامِ والتريثِ^(١) حينئذٍ عن الشجاعةِ في الإقدامِ.

وممن كانوا مثلاً للشجاعةِ وأقتحامِ المخاطرِ بين العربِ سيدنا عمرُ بنُ الخطابِ (رضي الله عنه)؛ فقد تربَّى على الشهامةِ والتجدةِ^(٢) والجُرأةِ، وقولِ الحقِّ لا يرى فيه هَوَادَةً؛ فعند الهجرةِ إلى المدينةِ كان الناسُ يخرجونَ يتسلَّلونَ^(٣)؛ خِيفَةً أَنْ يَحْجُزَهم أهلُهم. أما هو فأعلنَ أَنه مُهاجِرٌ، وقال: من أرادَ أَنْ تَشْكَلَه^(٤) أمه فليلقني وراءَ هذا الوادي! ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحدٌ.

وكذلك خالدُ بنُ الوليدِ الخزوميُّ، وقد وُلِدَ في سنةِ خمسٍ وعشرين قبلَ الهجرةِ، وكان والدُه من سادةِ قريشٍ في الجاهليةِ، معروفاً بالعقلِ الرَّاجِحِ، والشرفِ الرَّفيعِ، والمنطقِ الفصيحِ، كان يكسو الكعبةَ عاماً، وكانت قريشٌ بأسرها تكسوها عاماً.

وقد تربَّى خالدٌ تربيةً بدويةً حضريةً، فتعلَّم ركوبَ الخيلِ،

(١) الإبطاء والإمهال . (٢) القتال والشجاعة . (٣) يخرجون .

(٤) تشكله .

وصيدَ الظُّبَاءِ والغزلانِ ، وتعلمَ الرمايةَ والفروسيةَ ، وقد اكتسبَ
علماً واسعاً بفنونِ القتالِ ، وخبرةً دقيقةً بأساليبِ الحربِ وخُدَعِهَا .
انتصرَ في ثلاثين موقعةً على جيوشِ جرارةٍ تفوقُهُ عُدةً وعدداً .

ومما قامَ به مما يُعدُّ عملاً خطيراً في تاريخِ الحروبِ أنه اجتازَ
بجيشٍ صغيرٍ صحراءَ السماوةِ ، سائراً في طريقٍ يترصّدهُ ^(١) الأعداءُ ،
وتنتشرُ فيه عيونُهُم ، ومعَ ذلك فقد استطاعَ بعبقريتهِ الحربيةِ أن
يتجنبَ طرقَ المخاوفِ وسَطَ ذلك المَهْمَةِ ^(٢) الشاسعِ . وهوَ في أعمالِهِ
الحربيةِ العجيبةِ مَضْرِبُ الأمثالِ بينَ عظماءِ القوادِ في التاريخِ . وليسَ
بدعاً أن نقولَ : إنه يفوقُ نُحوتِمِسَ في إقدامِهِ ، ونابليونَ في عزمِيتهِ ،
وهنريالَ في شجاعتهِ ، والقيصرَ في همتهِ ، والإسكندرَ في إدارتهِ ،
وأتاتوركَ في وطنيتهِ . ومن آياتِ شجاعتهِ وإقدامِهِ وقوةِ عزمتهِ
ووطنيتهِ ما كتبه إلى ملوكِ الفرسِ ، قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خالدِ بنِ الوليدِ إلى ملوكِ الفرسِ :
أما بعدُ فالحمدُ لله الذي حلَّ نظامَكُم ، ووهنَ ^(٣) كَيْدَكُم ، وفرَّقَ
كلماتَكُم ، ولو لم يفعلْ ذلكَ بكم كانَ شرّاً لكم ، فادخلوا في أمرنا

نَدَعُكُمْ وَأَرْضَكُمْ ، وَنَجُوزُكُمْ إِلَى غَيْرِكُمْ ، وَإِلَّا كَانَ ذَلِكَ وَأَنْتُمْ
كَارِهُونَ عَلَى غَلَبٍ^(١) عَلَى أَيْدِي قَوْمٍ يُحِبُّونَ الْمَوْتَ كَمَا تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ .
وَمِنْ أَقْوَالِهِ : لَقَدْ لَقِيتُ كَذَا وَكَذَا زَحَفًا ، وَمَا فِي جَسَدِي
مَوْضِعٌ شَبِيرٍ إِلَّا وَفِيهِ طَعْنَةٌ أَوْ رَمِيَةٌ ، ثُمَّ هَذَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي
حَتْفَ أَنْفِي . فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجَبْنَاءِ .

قال جرير :

قُلْ لِلْجَبَانِ إِذَا تَأَخَّرَ سِرْجُهُ * هَلْ أَنْتَ مِنْ شَرِّكَ الْمَنِيَّةِ^(٢) نَاجٍ
وَالْجَبَانُ كَثِيرُ الْخُوفِ وَالرَّعْبِ ، لَوْ سَمَّيْتَ لَهُ الشَّجَاعَةَ خَافَ
لَفْظَهَا قَبْلَ مَعْنَاهَا ، وَذَكَرَهَا قَبْلَ خَوَافِهَا ، وَفَزَعَ مِنْ اسْمِهَا دُونَ مُسَمَّاها ،
فَهُوَ يَهْلِكُ مِنْ تَخَوُّفِهِ أَضْغَاتَ الْأَحْلَامِ ، فَكَيْفَ بِمَسْمُوعِ الْكَلَامِ .
إِذَا ذَكَرْتَ السَّيْفَ لَمَسَ رَأْسَهُ هَلْ ذَهَبَ ، وَمَسَّ جَبِينَهُ هَلْ ثَقُبَ .
وَتَقُولُ الْعَرَبُ : الشَّجَاعَةُ وَقَايَةٌ ، وَالْجَبْنُ مَقْتَلَةٌ . وَقَالَ : أَبُو بَكْرٍ
(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ : إِحْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ تُوَهِّبْ
لَكَ الْحَيَاةَ .

وفي الحكاية الآتية تبدو الجرأة والإقدام :

قال ابن الجوزي^(١) : كان بالكوفة رجل حسني يُعرف بالأدرع شديد القلب جدًا . وكان في خرائب الكوفة شيء يظهر للمُجتازين ليلاً ، فيه نارٌ ، يطولُ تارةً ويقصرُ أخرى ، يقولون : هو غولٌ يَفْزَعُ منها الناسُ .

فخرج الأدرعُ ليلةً راكباً في بعض شأنه ، قال لي الأدرعُ : فاعترض لي السَّوادُ والنارُ ، فطالَ الشَّخصُ في وَجْهِهِ ، فَأَنكَرْتُهُ ، ثم رجعتُ إلى نفسي . فقلتُ أمّا شيطانٌ وَغُولٌ فَهَوَسَ^(٢) ، وليس إلّا إنساناً ، فَذَكَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى ، وَصَلَّيْتُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَجَمَعْتُ عِنانَ الفرسِ ، وَفَرَعْتُهُ بِالْمَقْرَعَةِ ، وَطَرَحْتُهُ عَلَى الشَّخْصِ ، فَازْدَادَ طَوْلُهُ ، وَعَظُمَ الضَّوؤُ فِيهِ ، فَفَرَّ الفرسُ ، فَفَرَعْتُهُ ، فَطَرَحَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ ، فَقَصُرَ الشَّخْصُ حَتَّى عَادَ عَلَى قَدَرِ قَامَةٍ . فَلَمَّا كَادَ الفرسُ يَخَالِطُهُ وَلَّى هَارِباً . فَرَكْتُ الفرسَ خَلْفَهُ ، فَانْتَهَى إِلَى خَرِيبَةٍ فَدَخَلَهَا .

(١) هو صاحب كتاب « الأذكياء » ، وهو الزاهد المحدث المؤرخ الشاعر

أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي عين أعيان بغداد في القرن السادس الهجري ، توفي

(٢) الهوس : طرف من الجنون .

فدخلت خلفه ، فإذا هو قد نزل سرداباً فيها . فنزلت عن فرسي
وشددته ونزلت ، وسيفي مجرّد .

فحين حصلت في السرداب أحسست حركة الشخص يريد
الفرار مني ، فطرحت نفسي عليه . فوقعت يدي على بدن إنسان ،
فقبضت عليه فأخرجته ، فإذا هي جارية سوداء .

فقلت : أي شيء أنت ؟ وإلا قتلتك الساعة .

قالت : قبل كل شيء أنت إنسي أم جني ؟ فما رأيت أقوى
قلبا منك قط .

فقلت : أي شيء أنت ؟

قالت : أمة لقوم بالكوفة ، أبقت^(١) منهم منذ سنين ، فتغربت
في هذه الخربة ، فولد لي الفكر أن أحتال بهذه الحيلة ، وأوهم الناس
أنني غول حتى لا يقرب الموضع أحد ، وأتعرض ليلاً للأحداث ،
وربما رمى أحدهم منديلاً أو زاداً فأخذه ، فأبيعه نهاراً ، وأقتات
به أياماً .

قلت : فما هذا الشخص الذي يطول ويقصر ، والنار التي تظهر ؟

قالت : كِسَاءٌ مَعِي طَوِيلٌ أَسْوَدُ (وَأَخْرَجَتْهُ مِنَ السَّرْدَابِ) ،
وَقَصَبَاتٌ هِنْدِيَّةٌ أُدْخِلُ بَعْضَهَا فِي بَعْضِ الْكِسَاءِ وَأَرْفَعُهُ فَيَطْوِلُ ،
فَإِذَا أُرِدْتُ تَقْصِيرَهُ دَفَعْتُ مِنَ الْأَنْيَابِ وَاحِدَةً فِي وَاحِدَةٍ فَيَقْصُرُ .
وَالنَّارُ فِتِيلَةٌ شَمِيعٌ مَعِي فِي يَدِي ، لَا أَخْرِجُ إِلَّا رَأْسَهَا مَقْدَارَ مَا يَضِيءُ
الْكِسَاءَ (وَأَرْتَنِي الشَّمْعَةُ وَالْكِسَاءُ وَالْأَنْيَابُ) ، ثُمَّ قَالَتْ : قَدْ جَاوَزْتُ
هَذِهِ الْحِيلَةَ نَيْفًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَاعْتَرَضْتُ فُرْسَانَ الْكَوْفَةِ وَشُجْعَانَهَا
وَكُلَّ أَحَدٍ ، فَمَا أَقْدَمَ عَلَى غَيْرِكَ ، وَلَا رَأَيْتُ أَشَدَّ قَلْبًا مِنْكَ .

فَحَمَلَهَا الْأَدْرَعُ إِلَى الْكَوْفَةِ ، فَرَدَّهَا إِلَى مَوَالِيهَا . فَكَانَ يُحَدِّثُ
بِهَذَا الْحَدِيثِ ، وَلَمْ يَرِ بَعْدَ ذَلِكَ أَثَرُ غَوْلٍ ، فَعُلِمَ أَنَّ الْحَدِيثَ حَقٌّ .

وَقِيلَ لَمَّا مَاتَ مَلِكُ الْفَرَسِ أَرَادُوا أَنْ يُمْلِكُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ
آلِ سَاسَانَ ، فَوَفَدَ عَلَيْهِمْ بَهْرَامُ فَقَالَ : اعْمَدُوا إِلَى أَسَدَيْنِ جَائِعَيْنِ ،
فَاطْرَحُوا بَيْنَهُمَا التَّاجَ . فَمَنْ أَخَذَهُ فَهُوَ الْمَلِكُ . فَفَعَلُوا ، فَذَنَّا مِنْهُمَا ،
فَأَهْوَا نَحْوَهُ ، فَأَخَذَ بَرَأْسَ أَحَدِهِمَا فَأَذَانَهُ مِنْ رَأْسِ الْآخَرِ . ثُمَّ نَطَحَهُ
بِهِ وَقَتَلَهُمَا جَمِيعًا ، وَشَدَّ عَلَى التَّاجِ ، فَأَخَذَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى رَأْسِهِ ،
وَمَلَّكَتَهُ الْفَرَسُ عَلَيْهِمْ .

وممن اشتهر بالإقدام من الأوربيين (نابليون بونابرت) إمبراطور فرنسا ؛ فقد كان قائداً فريداً ، وسياسياً مُحْتَكَاً ، وكان في حربٍ مع معظم الممالك المحيطة بفرنسا . لم يَرْضَ (نابليون) لنفسه أن يخضع حتى للعوارض الطبيعية التي لا قِبَلَ للإنسان بمقاومتها ومُغالبتها ؛ فقد قيل له لما أراد أن يكتسح إيطاليا بجيشه الجرّار : « إن جبال الألب الشاهقة تعوقك عن المسير ، وتحول دون أمانيك » . فأرسل فئة من الكشّافة لرؤية طرق في الجبال . فلما عادوا سألهم قائلاً : هل يمكن اجتيازها ؟ فهزّوا رؤوسهم ، فأجاب أحدهم : يمكن ولكن ... فقال نابليون : لا أريد أن أسمع أكثر من ذلك ، إلى الأمام ! إلى إيطاليا ! يجب أن تُتمحى هذه الجبال من الأرض . فضحك الناس واستغربوا كيف يعبر جيش مؤلف من ستين ألف نفس جبالاً لا طريق فيها . ولكن نابليون أنتظر حتى رتبوا كل شيء فضربت الأبواق ، وأمرهم بالمسير . وحينئذ تحرك الجيش ، وبذل كل غاية جهده ، وسرعان ما صعدوا بأمان فوق هذه الجبال الشاخنة . وبعد أربعة أيام كانوا في سهول إيطاليا . فقال نابليون : « إن الرجل الذي صمّم على النجاح

لَا يَعْتَقِدُ أَنَّ فِي الدُّنْيَا مُحَالًا . وَلَا غَرَابَةً ؛ فَكُلُّ غَايَةٍ قَرِيبَةٍ فِي نَظَرِ
الْمُقَدِّمِ ، بَعِيدَةٌ فِي نَظَرِ الْمُحْجَمِ .

ثالثًا : تَظْهَرُ الشَّجَاعَةُ فِي الْإِجَابَةِ وَفِي أَبْدَاءِ الرَّأْيِ :

مِنَ الشَّجَاعَةِ أَنْ يُجِيبَ الْإِنْسَانُ بِكُلِّ أَمَانَةٍ وَإِخْلَاصٍ عَمَّا يُسْأَلُ ،
وَأَنْ يُبْدِيَ رَأْيَهُ بِكُلِّ صَرَاحَةٍ ، وَيُدَافِعَ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ لِلْحَقَائِقِ ،
وَمِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍّ إِلَى الْإِنْكَارِ ، أَوْ ذِكْرِ نَصْفِ الْحَقِيقَةِ خَوْفًا مِنْ أَنْ
يُظْهَرَ بِنَفْسِهِ الْحَقِيقِيَّةِ كَمَا هِيَ . وَإِذَا اعْتَرَفْنَا بِكُلِّ إِخْلَاصٍ بِأَنَّنَا فَعَلْنَا
كَذَا ، وَلَمْ نَسْمَعْ رَوَايَةَ كَذَا ؛ أَوْ لَمْ نَقْرَأْ كِتَابَ كَذَا ، أَوْ أَنَّنَا لَا نَحِبُّ
فُلَانًا ، فَقَدْ يَعْجَبُ الْمُسْتَمِعُ الْعَادِيُّ ، وَلَكِنَّا لَوْ ذَكَرْنَا السَّبَبَ ، بَطَلَ
الْعَجَبُ . وَهَذَا أَفْضَلُ مِنْ تَشْوِيهِ الْحَقَائِقِ بِالتَّغْيِيرِ وَالزُّخْرَفَةِ ، وَتَضْلِيلِ
النَّاسِ . وَهَنَّاكَ أَسْئَلَةٌ شَخْصِيَّةٌ تُدَلُّ عَلَى تَطْفُلِ السَّائِلِ ، وَتَدْخُلُهُ فِي
شُؤْنِ غَيْرِهِ ، فَمِثْلُ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ يَجِبُ أَنْ تُحَارَبَ بِرَفْضِ الْإِجَابَةِ عَنْهَا
بِكُلِّ أَدَبٍ ؛ عِقَابًا لِذَلِكَ الْمَتَطَفِّلِ .

وَتَبْدُو الشَّجَاعَةُ فِي ضَرَارِ الصَّدَائِقِ ^(١) ؛ إِذْ قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ (رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ) : يَا ضَرَارُ صِفْ لِي عَلِيًّا .

(١) نسبة إلى صداء حي من مندهج من الين .

فقال : أَعْفِنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

قال : لِتَصِفَنَّهُ .

فقال : أَمَا إِذَا أَذِنْتَ فَلَا بُدَّ مِنْ صِفَتِهِ . كَانَ وَاللَّهِ بَعِيدَ الْمَدَى ^(١)
شَدِيدَ الْقُوَى ، يَقُولُ فَضْلاً ^(٢) ، وَيَحْكُمُ عَدْلاً ، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ
جَوَانِبِهِ ، وَتَنْطِقُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيهِ ، يَسْتَوْحِشُ ^(٣) مِنَ الدُّنْيَا
وَزَهْرَتِهَا ^(٤) ، وَيَسْتَأْنِسُ بِاللَّيْلِ وَظِلِّهِ . كَانَ وَاللَّهِ غَزِيرَ الدَّمْعَةِ ، طَوِيلَ
الْفِكْرَةِ ، يُقَلِّبُ كِفَّهُ ^(٥) وَيُخَاطِبُ نَفْسَهُ ، يُعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا قَصُرَ ^(٦)
وَمِنَ الطَّعَامِ مَا خَشُنَ . وَكَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا ؛ يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ ، وَيُنَبِّئُنَا
إِذَا أَسْتَبْأَنَاهُ . وَنَحْنُ مَعَ تَقْرِيْبِهِ إِيَّانَا ، وَقُرْبِهِ مِنَّا لَا نَكْادُ نَسْكَامُهُ لِهَيْبَتِهِ ،
وَلَا نَبْتَدِئُهُ لِعَظَمَتِهِ . يُعَظِّمُ أَهْلَ الدِّينِ ، وَيُحِبُّ الْمَسَاكِينَ . لَا يَطْمَعُ
الْقَوِيُّ فِي بَاطِلِهِ ^(٧) ، وَلَا يَمُنُّ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِهِ . وَأَشْهَدُ لِقَدْ رَأَيْتُهُ
فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ ، وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ ^(٨) ، وَغَارَتْ ^(٩) نَجْوَاهُ ،

(١) الْغَايَةُ ، بَعِيدَ النَّظَرِ . (٢) حَقًّا . (٣) يَتَعَدَّى . (٤) حَسَنُهَا .

(٥) يَحَاسِبُ نَفْسَهُ وَيَنْدُمُ . (٦) لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ طَهَارَةِ الثِّيَابِ وَالْقَصْدِ فِي الْمَالِ .

(٧) أَيْ فِي بَاطِلٍ يَجَامِلُ بِهِ الْقَوِيُّ . (٨) جَمْعُ سِدْلٍ كَقَفْلٍ وَحَمَلٍ : السِّتْرُ .

(٩) غَرِبَتْ فِي وَقْتِ السَّحَرِ .

وقد مثل^(١) في محرابه قابضاً على لحيته ، يتململ^(٢) تمللمل السليم^(٣) ،
ويبكي بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غرّيتي غيّرني ! ألي تعرّضت ؟
أم إلى تشوّقت ، هيهات هيهات ، قد باينتك^(٤) ثلاثاً لارجعة فيها ؛
فعمرك قصير ، وخطرُك^(٥) حقير . آه من قلة الزاد^(٦) ، وبعْد السفر ،
ووحشة الطريق .

فبكي معاويةً حتى أخضلت^(٧) دموعه لحيته . وقال : رحم الله
أبا الحسن ؛ فلقد كان كذلك . فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟
قال : حزنٌ من ذُبح واحدُها في حجرها ؟

وفي القصّة التّاريخيّة الآتية يبدو حلم معاوية ، وشجاعة الزرقاء .
قيل : إنه لما ولي معاوية الخلافة وانتظمت إليه الأمور ، وأمتلأت
منه الصدور ، وأذعن لأمره الجمهور ، وساعده الله في مُرادِه ، استحضّر
ليلةً خواصّ أصحابه ، وذاكرهم وقائع أيام صِفّين . ومن كان يتولّى
كبير الكريهة من المعروفين . فانهمكوا في القول الصحيح والمريض ،

(١) وقف منتصب القامة .
(٢) أي لا يكاد يستقر كأن به وجعاً .
(٣) الملوغ كأنهم تفاعلوا له بالسلامة .
(٤) طلقته .
(٥) قدرك .
(٦) أي الزاد للآخرة .
(٧) بليت .

وَأَلَّ حَدِيثُهُمْ إِلَى مَنْ كَانَ يَجْتَهِدُ فِي إِيقَادِ نَارِ الْحَرْبِ عَلَيْهِمْ بزيادة
التحريض. فقالوا: امرأةٌ من أهل الكوفة تُسَمَّى الزرقاء بنت عديٍّ،
كانت تتمتعُ الوقوف بين الصفوف، وترفعُ صوتها صارخةً: يا أصحاب
عليٍّ، تُسمِعهم كلاماً كالصَّوَارِمِ؛ مُسْتَحِشَّةٌ لهم بقولٍ لو سَمِعَهُ الجَبَانُ
لقاتلَ، والمُدْبِرُ لأُقبِلَ، والمسلمُ لحاربٍ، والفارُّ لكرٍّ، والمُنزَلُ
لاستقرَّ.

فقال لهم معاويةُ: أيُّكم يحفظُ كلامها؟
فقالوا: كلنا نحفظُه.

قال: فما تشيرونَ عليَّ فيها؟

قالوا: نشير بقتلها، فإنها أهلٌ لذلك.

فقال لهم معاويةُ: بئسَ ما أشرتُم به؛ وقُبْحًا لما قُلْتُم. أيَحْسُنُ
أنْ يَشْتَهَرَ عني أنِّي بعد ما ظفِرتُ وقدرتُ قتلْتُ امرأةً قد وفَّتْ
لصاحبها؟ إني إذاً للئيمٌ. لا والله لا فعلتُ ذلك أبداً.

ثم دعا بكتابهِ فكتب كتاباً إلى واليهِ بالكوفة أنْ أنفذَ
إلى الزرقاء بنت عديٍّ مع نفرٍ من عَشِيرَتِها، وفرسانٍ

من قومها ، ومَهَّد لها وطَاءً^(١) لَيْنًا ، وَمَرَّ كَبًا ذُلُولًا^(٢) .

فلما وردَ عليه الكتابُ ركبَ إليها وقرأه عليها . فقالت بعدَ قراءةِ الكتابِ : ما أنا بزاغيةٍ^(٣) عن الطاعةِ ، فحملها في هَوْدَجٍ^(٤) ، وجعل غِشَاءَهُ خَزًّا^(٥) مُبْطِنًا ، ثم أحسنَ صُحْبَتَهَا .

فلما قَدِمَت على معاويةَ قال لها : مرحبًا وأهلاً خيرَ مَقْدَمٍ قَدِمَهُ وافدٌ . كيفَ حالُك يا خالَةُ ؟ وكيفَ رأيتِ سَيْرَكَ ؟
قالت : خيرَ مَسِيرٍ .

فقال : هَلْ تعلمينَ لِمَ بعثتُ إليك ؟

قالت : لا يعلمُ الغيبَ إلا اللهُ سبحانه وتعالى .

قال : ألسَتِ راكبةَ الجملِ الأحمرِ يومَ صِفِّينَ ، وأنتِ بينَ الصفوفِ تُوقِدينَ نارَ الحربِ ، وتُحرِّضينَ على القتالِ ؟
قالت : بَلَى !

قال : فما حَمَلَكِ على ذلكِ ؟

قالت : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إنه قد ماتَ الرَّأْسُ ، ويُتَر^(٦) الذَّنَبُ ،

(١) الوطاء : ضد الغطاء . (٢) لينا سهلاً . (٣) مائلة .
(٤) مركب للنساء . (٥) نسيج من وبر . (٦) قطع .

والدهرُ ذو غيرٍ^(١)، ومن تفكّر أبصرَ، والأمرُ يحدثُ بعده الأمرُ.

فقال : صدقتِ ، فهل تعرفين كلامك ، وتحفظين ما قلتِ ؟

قالت : لا والله . قال : لله أبوك ، فقد سمعتكِ تقولين :

« أيها الناس ، إن المصباح لا يضيء في الشمس ، وإن الكواكب لا تضيء مع القمر . وإن البغل لا يسبق الفرس . ولا يقطع الحديد إلا بالحديد . ألا من استوشدنا^(٢) أرشدناه . ومن سألنا أخبرناه . إنَّ الحقَّ كان يطلب ضالَّةً فأصابها . فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار . فكأنَّكم وقد التأم شملُ الشَّتاتِ^(٣) ، وظهرت كلمة العدل ، وغلب الحقُّ باطله ، فإنَّه لا يستوى المحقُّ والمبطلُ . أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ لا يستوون . فالنَّزالُ^(٤) النَّزالُ ، والصبرُ الصبرُ ؟ ألا وإن خضاب النساءِ الحنَّاءَ ، وخضاب الرجالِ الدِّمَاءَ . والصبرُ خيرُ الأمور عاقبةً . ائتوا الحربَ غيرَ ناكسين^(٥) ، فهذا يومٌ له ما بعده . »

يا زرقاء أليس هذا قولك وتحريضك ؟

قالت : لقد كان ذلك .

(١) تغيرات ونوائب . (٢) طلب منا الهداية . (٣) التفرق .

(٤) المحاربة والمضاربة . (٥) راجعين ومحجمين .

قال : لقد شاركتِ عليًّا في كل دمٍ سَفَكه .

فقالت : أحسنَ اللهُ بِشارتكِ يا أميرَ المؤمنين ، وأدامَ سلامتكِ ،
مِثْلَكَ من يُبَشِّرُ بخير ، ويسرُّ جليسةً .

قال معاويةُ : أَوَقَدْ سَرَكِ ذلك ؟

قالت : نعم ، واللهِ لقد سرَّني قولك ، وَأَنَّى^(١) لى بتصديقه ؟
فقال لها معاويةُ : واللهِ لو فاؤكم له بعدَ موتهِ أعجبُ إلى من حُبِّكم
له في حياته . فاذْ كُرِّى حوائجَك تُقْضَ .

فقالت : يا أميرَ المؤمنينِ إِنِّي آليتُ^(٢) على نفسى أَلَّا أُسألَ
أحدًا بعدَ عليٍّ حاجةً .

فقال : قد أشارَ عليٌّ بعضُ من عرفكِ بقتلكِ .

فقالت : لوُمُّ من المُشير . ولو أطمعته لِشاركتَه .

قال كلاً ، بل نَعْفُو عَنْكَ ، ونُحْسِنُ إِلَيْكَ ونُرعَاكَ .

فقالت : يا أميرَ المؤمنينِ ، كَرَّمْتُكَ . ومِثْلَكَ مَنْ قَدَرَ فَعَفَا ،
وتجاوزَ^(٣) عمن أساءه ، وأعطى من غيرِ مَسْأَلَةٍ . فأعطاها كسوةً ودراهمَ ،

(١) من أين . (٢) أقسمت . (٣) صفح .

وَأَقْطَعَهَا صَنِيعَةً^(١) تَغْلُ لَهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ . وَأَعَادَهَا
إِلَى وَطَنِهَا سَالِمَةً ، وَكُتِبَ إِلَى وَالِي السَّكُوفَةِ بِالْوَصِيَّةِ بِهَا وَبِعَشِيرَتِهَا .
وَقَدْ خُطِبَ الْحِجَابُ يَوْمًا فَأُطَالَ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ :
« الصَّلَاةُ » ؛ فَإِنَّ الْوَقْتَ لَا يَنْتَظِرُكَ ، وَالرَّبُّ لَا يَعْذُرُكَ . فَأَمَرَ بِجَسَدِهِ .
فَاتَاهُ قَوْمُهُ وَزَعَمُوا أَنَّهُ مَجْنُونٌ .

فَقَالَ الْحِجَابُ : إِنِّي أَقَرُّ بِالْجُنُونِ خَلَصْتُهُ . فَقَالَ الرَّجُلُ :
لَا يَسُوعُ لِي أَنْ أُجْحَدَ^(٢) نِعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيَّ ، وَأَثْبَتَ لِنَفْسِي
صِفَةَ الْجُنُونِ الَّتِي نَزَّهَنِي اللَّهُ عَنْهَا . فَلَمَّا رَأَى صِدْقَهُ خَلَّى سَبِيلَهُ .

لفضل السائر

هـ - الحكمة

إِنَّ شَخْصِيَّةَ الْإِنْسَانِ لَا تَكُونُ مُتِينَةً إِلَّا إِذَا زَانَتْهَا الْحِكْمَةُ
وَالْعِلْمُ وَالْحَزْمُ ، وَوَضَعُ الْأَشْيَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا ، وَقَدَرُهَا حَقَّ قَدْرِهَا .
وَالرَّجُلُ الْحَكِيمُ هُوَ السَّيِّدُ الرَّأْيِ ، الْبَعِيدُ النَّظَرِ ، الْحَسَنُ التَّقْدِيرِ ،
الَّذِي يَعْرِفُ الْحَقَّ فَيَتَمَسَّكُ بِهِ ، وَيَفْعَلُ مَا يَجِبُ أَنْ يُفْعَلَ ، وَيَتْرَكُ
مَا يَنْبَغِي أَنْ يُتْرَكَ ، وَيَقُولُ مَا يَجِبُ أَنْ يُقَالَ . يَرَى الْفُرْصَةَ فَيَتَمَرَّزُهَا ،
وَيَشْعُرُ بِالطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ فَيَسْلُكُهَا ، يُحْسِنُ نَتِيجَةَ الشَّيْءِ حَتَّى قَبْلَ
حُدُوثِهَا ، وَيَعَامَلُ غَيْرَهُ بِمَا يَجِبُ أَنْ يُعَامَلَ بِهِ ، وَيَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ بِمَا
يُودُ أَنْ يُحْكَمَ بِهِ عَلَيْهِ ، يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ . وَإِذَا حَكَمَ عَلَى
غَيْرِهِ كَانَ حُكْمُهُ بَعِيدًا عَنِ الْأَهْوَاءِ وَالْأَغْرَاضِ ، تَتِمَّلُ فِيهِ الزَّاهَةُ
وَالْعَدَالَةُ . كُلُّ هَذِهِ الصِّفَاتِ نَتِيجَةُ الْحِكْمَةِ وَحَسَنِ التَّقْدِيرِ . قَالَ جَلَّ
شَأْنُهُ : « وَمَنْ يُوتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » . وَقَالَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ » .

والحكمة صفةٌ أساسيةٌ في تكوين الشخصية السامية تحملُ
الإنسانَ على العملِ وَفْقَ العقلِ . وهي خلاصةُ الأخلاقِ ، وأساسُ
كلِّ فضيلةٍ ، بها يتدبَّرُ الإنسانُ عواقبَ الأمورِ ، ويُميِّزُ الخيرَ مِنَ
الشرِّ ، والحقَّ مِنَ الباطلِ .

قال ابن مسكويه الفيلسوفُ الإسلاميُّ في كتابه : « تهذيب
الأخلاق » : « الحكمة وَسْطُ بَيْنِ السَّفَهِ وَالْبَلَهِ » . وَيَعْنِي بِالسَّفَهِ هُنَا
أَسْتِعْمَالَ الْقُوَّةِ الْفَكْرِيَّةِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي ، وَكَمَا لَا يَنْبَغِي . وَيَعْنِي بِالْبَلَهِ تَعْطِيلَ
هَذِهِ الْقُوَّةِ الْفَكْرِيَّةِ وَإِهْمَالَهَا قَصْدًا . أَمَّا إِذَا انْتَفَتِ الْحِكْمَةُ فَإِنَّ
الْإِنْسَانَ يَكُونُ وَاهِنًا ^(١) الرَّأْيِ ، مُضْطَرَبَ الْبَصِيرَةِ ، سَيِّئَ الْخُطِّ ،
عَائِرًا ^(٢) الْجِدِّ ، ضَعِيفَ الشَّخْصِيَّةِ ، يَعْجُزُ عَنْ تَقْدِيرِ الْأَشْيَاءِ ، وَيَفْعَلُ
مَا يَجِبُ أَنْ يُتْرَكَ ، وَيُهْمِلُ أُمُورًا تَجِبُ الْعُنَايَةُ بِهَا ، وَيَهْتَمُّ بِأَشْيَاءَ لَا قِيَمَةَ
لَهَا . يَحِبُّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُكْرَهُ ، وَيَكْرَهُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُحِبَّ ، فَيُصْبِحُ
ضَحِيَّةً لَوْجْدَانِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَيَصِيرُ مَكْرُوهًا لَدَى مَنْ يَعْرِفُونَهُ .
قِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَبْسٍ : مَا أَكْثَرَ صَوَابَكُمْ . قَالَ : نَحْنُ أَلْفُ
رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ ، وَنَحْنُ نَظِيمُهُ ، فَكَا نَنَا أَلْفُ حَازِمٍ .

(١) ضَعِيفٌ . (٢) سَيِّئُ الْخُطِّ .

ومن الحكمة أن تجتهد في إرضاء الناس — وإن كان إرضاءهم جميعاً غاية لا تدرك — من غير أن تضحي بمبدأ من مبادئك، أو مظهر من مظاهر رجولتك؛ حتى تمتلك قلوبهم. وهذا دليل على وجود الشخصية القوية الجذابة. ومنها أن تكون ذا أناة^(١) عند القدرة، وذا حلم عند الغضب، وذا سَطوة^(٢) عند المغالبة.

ومن الحزم ألا يحتقر الرجلُ عدوّه وإن كان ذليلاً، ولا يغفل عنه وإن كان حقيراً، فكم برغوث أسهر فيلاً، ومنع الرقاد ملكاً جليلاً. وكثيراً ما تفسد الحكمة وتُسوّه بالفخر، أو التكبر، أو الحقد، أو الغيرة، أو الغش. فينبغي أن يهذب الإنسان نفسه، ويترك الفخر جانباً ولا يتكبر، ولا يحقد على غيره، ولا يغش أحداً أو يُضله؛ حتى تكون علاقته بغيره حسنةً، وتكون شخصيته محبوبة لدى من يتصلون به أو يعرفونه.

وليس من الحكمة الغضبُ في غير غضب، والكلامُ في غير نفع، والعطيةُ في غير موضع، والثقةُ بكل أحد، وعدم معرفة الصديق من العدو. وفي كيلة ودمنة: «ليس من الحكمة أن تصدّق

ما ينبغي أن يكذب . وتكذب ما ينبغي أن يصدق ، وتلتبس تقويم
من لا يستقيم ، وتعالج تأديب من لا يتأدب ، وتدخل فيما لا يعينك ،
وتعمل غير عملك ؛ فإن الذين يعملون غير أعمالهم ليسوا على شيء ؛
كالذي يضع الرماد موضعاً ينبغي أن يضع فيه الرمل ، والرجل الذي
يلبس لباس المرأة ، والمرأة التي تلبس لباس الرجل ، والضيف الذي
يقول : أنا رب البيت ، والذي ينطق بين الجماعة بما لا يسأل عنه .

قيل لعنترة العبسي : أنت أشجع العرب وأشدّهم بطشاً ؟
فقال لا . فقل له : كيف شاع لك هذا الاسم بين الناس ؟
فقال : إنني أقدم إذا رأيت الإقدام عزمًا ، وأحجم إذا رأيت
الإحجام حزمًا ، ولا أدخل مدخلًا إلا إذا رأيت لي منه مخرجًا ،
وأعتمد إلى الضعيف الساقط فأضربه ضربة يطير بها قلب الشجاع ،
فأثني عليه فأخذه ، والحرب خدعة ^(١) .

وقد ذكر أعرابي قوماً فقال : أدبتهم الحكمة ، وأحكمتهم
التجارب ، ولم تغرهم السلامة المنظوية على الهلكة ، فأحسنوا
المقال ، وشفعوه بالفعال ^(٢) .

(١) يقال خدعة : ختله وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . والحرب خدعة
وخدعة بالضم ، والفتح أفصح . (٢) انتهى من الأمالي لأبي على القالي ص ٢٣ ج ٢

قيل لعربي : مَنْ أَحْزَمُ النَّاسِ ؟ فقال : مَنْ أَخَذَ ^(١) رِقَابَ الْأُمُورِ
بِيَدَيْهِ ، وَجَعَلَ الْعَوَاقِبَ نُصُبَ عَيْنَيْهِ ، وَبَنَدَ التَّهْيِيبِ ^(٢) دَبْرَ ^(٣) أَذُنِيهِ .
وقيل له : وَمَنْ أَخْرَقُ النَّاسِ ؟ فقال : مَنْ رَكِبَ الْخِطَارَ ^(٤) ،
وَأُعْتَسَفَ ^(٥) الْعِثَارَ ، وَأَسْرَعَ فِي الْبِدَارِ قَبْلَ الْاِقْتِدَارِ .

وَالْحَكِيمُ : الْحِلْمُ طَبِيعَتُهُ ، وَالرَّأْيُ الْحَسَنُ سَجِيَّتُهُ ، إِنْ سُئِلَ
أَجَابَ ، وَإِنْ نَطَقَ أَصَابَ ، وَإِنْ سَمِعَ الْعِلْمَ وَعَى ^(٦) . وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَإِنْ
تَكَلَّمَ عَجَلَ ^(٧) ، وَإِنْ حَدَّثَ أَخْطَأَ ، وَإِنْ أَسْتَنْزَلَ عَنْ رَأْيِهِ نَزَلَ .
ومما مُدِحَ بِهِ ذُو الرَّأْيِ ^(٨) قَوْلُ بَعْضِ الشُّعْرَاءِ :

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا * يُخَاطِبُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ
وَأَيْنَ مَفَرُّ الْحَزْمِ مِنْهُ وَإِنَّمَا * مَرَاتِي الْأُمُورِ الْمَشْكَلاتِ تَجَارِبُهُ
وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ فِي سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ :

كَأَنَّ آرَاءَهُ وَالْحَزْمُ يَتَّبَعُهَا * تُرِيهِ كُلَّ خَفِيٍّ وَهُوَ إِعْلَانُ
مَا غَابَ عَنْ عَيْنِهِ فَالْقَلْبُ يَكْلُوهُ * وَإِنْ تَنَمَّ عَيْنُهُ فَالْقَلْبُ يَقْظَانُ

(١) الأمالى ج ٢ ص ٢٨١ طبعة بولاق سنة ١٣٢٤ هـ . (٢) التخوف .

(٣) خلف . (٤) الأمور التي لا تؤمن عاقبتها . (٥) اعتسف : ركب

الطريق على غير هداية ، والعثار : ما يوقع في السقوط . (٦) حفظ .

(٧) أسرع . (٨) راجع نهاية الأرب ج ٦ ص ٨٠ طبعة دار الكتب

وقال آخر :

يَرَى العَوَاقِبَ فِي أَثْنَاءِ فِكْرَتِهِ * كَأَنَّ أَفْكَارَهُ بِالْغَيْبِ كَهَّانُ
وتتطلب الحكمة قبل الشروع في الفعل :

(١) التروى في الأمور ؛ لأن العجلة كثيراً ما تؤدي إلى الخطأ .
وإذا قلنا بالتروى فإننا لا نقول بالإغراق فيه ؛ لأنه يحول دون
النجاح في كثير من الأعمال ، ويفوت الفرصة .

(٢) وفرة العلم والتجربة ؛ فإنها سبيل الحكمة .

(٣) توافر الفطنة ؛ إذ لا سبيل لصحة الفكر غيرها .

(٤) توافر الثبات وكبح النفس .

ومما يحول دون الحكمة :

(١) العجلة في الفعل .

(٢) الإغراق في التروى .

(٣) قلة التجربة والعرفان .

(٤) سقم الفكر أو خطؤه .

(٥) التشبث والجمود .

وتتضمن الحكمةُ حسنَ التدبير ، وجودةَ الذهن ، وثقابةَ^(١) الرأي ، وصوابَ الظنِّ . قال معاويةُ بنُ أبي سفيان^(٢) : « إني لا أضعُ سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضعُ سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين العامة شعرةً ما أقطعتُ أبداً ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا جذبوها أرخيتها ، وإذا أرخوها جذبتها » .

وفي هذا القولِ تتمثلُ الحكمةُ والحلمُ .

ولا عجبَ فقد كان معاويةُ يلبسُ لكلِّ حالةٍ لبوسها ، لا تُبطرُهُ النعمةُ ، ولا تحزنُهُ النعمةُ ، لا يَغتمُ لحوادثٍ لم تحدثْ ، ولا يَضيقُ^(٣) ذرعاً بما حدث ، قال :

قد عِشتُ في الدهر ألواناً على خُلُقٍ

شئى وقاسيتُ فيه اللينَ والطَّبعَا

كلَّ لبستُ فلا النِّعماءُ تُبِطِرُنِي

ولا تَعَوَّدْتُ من مَكروها جَشَعَا

(١) اتقاد واشتعال . (٢) انتهى من نهاية الأرب ج ٦ ، ص ٤٤ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ م . (٣) يقال ضاق بالأمر ذرعاً أى لم يُطقه ولم يقوَ عليه .

لا يملأ الأمرُ صدرِي قبلَ مصدره

ولا أضيقُ به ذرعاً إذا وقعا

وقد سألَ الإسكندرُ الأكبرُ يوماً جماعةً من حكمائه ، وكان قد عزمَ على سفر ، فقال : « أَوْضِحُوا لِي سَبِيلاً مِنَ الْحِكْمَةِ أَحْكَمُ فِيهِ أَعْمَالِي ، وَأَتَقِنُ بِهِ أَشْغَالِي » .

فقال كبيرُ الحكماء :

أيها الملكُ . أَعْمَلِ الْفِكْرَ وَاتَّخِذْهُ وَزِيْرًا ، وَاجْعَلِ الْعَقْلَ صَاحِبًا وَمُشِيرًا ، وَاجْتَهِدْ أَنْ تَكُونَ فِي لَيْلِكَ مُتَيْقِّظًا ، وَلَا تَشْرَعْ^(١) فِي أَمْرٍ بغيرِ مَشُورَةٍ ، وَتَجَنَّبِ الْمِيلَ وَالْمَحَابَاةَ فِي وَقْتِ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ جَرَتْ الْأُمُورُ عَلَى إِشَارِكَ^(٢) ، وَتَصَرَّفْتَ بِاخْتِيَارِكَ .

٦ - التفاؤل

من العناصر التي لا تقل أهميةً في تكوين الشخصية الممدوحة :
 التفاؤل واليأس^(١) ، والنظر إلى الأشياء بمنظار الفأل الحسن ، ويمن
 الطالع ، لا بمنظار التشاؤم والتطير^(٢) ؛ ذلك المنظار الأسود ، منظار
 الشؤم والطيرة ؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يحب الفأل ،
 ويكره الطيرة . وفي الحديث : « ليس منّا من تطير » . قيل :
 لما قدم رسول الله المدينة نزل على رجل من الأنصار ، فصاح
 الرجل بعلا ميه : ياسالم ويايسار ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :
 « سَأِمْتُ لَنَا الدَّارُ فِي يُسْرٍ » . وفي هذا تتمثل روح التفاؤل لدى
 الرسول الكامل .

ولا نقصد بالتفاؤل أن نغمض أعيننا عن الحقائق ، ونتأجج الأمور ،
 بل نقصد أن نعتاد في تفكيرنا النظر إلى الأشياء بعين الأمل والرحمة ،

(١) رجاء الخير ، والتبرك . (٢) يقال تطير من الشيء وبالشئ ، والاسم الطيرة
 وهو ما يتشاءم به من الفأل الرديء .

لابعين اليأس والقنوط، وننظر إليها في نور الأمل، لا في ظلام اليأس،
من الناحية المضيفة من الطريق، لا من الناحية المظلمة الحالكة.
والمتفائل يرضى بالماضي خيره وشره، ويثق بالمستقبل ثم يؤدي
الواجب ويترك النتيجة لله سبحانه وتعالى. وتعدّ هذه العادة العقلية
— وهي عادة التفاؤل — من الأمور الجوهرية في تقوية الشخصية.
وكثيراً ما ينشأ التفاؤل عن نشاط الشخص، وقوته العقلية والعصبية،
وعن نوع الأفكار التي يسمح لها بالدخول إلى العقل. وإذا تعود
الإنسان أن يزود نفسه بالأفكار الصحيحة السارة فإنه لا يتجنب
التشاؤم والحزن فحسب، بل قد يطّل من نوافذ العقل على الناحية
السارة المضيفة من الحياة.

وينشأ التشاؤم عن ضعف النشاط وضعف القوة العصبية،
وهن^(١) الرقابة العقلية (Mental Control) في الإنسان، فيسمح
لنفسه بأن تسبح في جوّ مظلم من الأوهام، حتى يصبح عقله متلبداً
بغيوم لا حقيقة لها، ودخان لا أصل له، هي غيوم التطير، ودخان
التشاؤم.

وإن ضبط النفس والنظر إلى الناحية السعيدة دائماً ، مما يُزيل
عن أولئك المتشائمين ، وهؤلاء المتطيرين هذه الهموم والأحزان التي
يسيطرُ على نفوسهم .

وإذا كان التفاؤل مُوقظاً للعقل ، ومَدعاةً للنشاط ، وباعثاً على
الإقدام ، ومحزّراً للإنسان ، ومنشّطاً لجميع قواه العقلية ، فالتشاؤمُ
سببٌ في الخمول والكسل ، وكثرة التردد والإخفاق ، والشقاء
والضعف ، لا في التفكير فَحَسْبُ ، بل في الشخصية كذلك .

فالشخصيةُ الحيةُ القويّةُ ، ينبغي أن تتمسكَ بالتفاؤل ، وتلتزمَ
الناحيةَ السارة ، يقودُها الأمل ، ويُحييها الرجاء ، تُفكر في النجاح
أكثرَ من الخيبة ، وفي التقدم أكثرَ من التأخر ، وتميلُ إلى جانب
الثقة أكثرَ من الميل إلى جانب التردد ، وتثقُ بما تقول وما تفعل ،
ولديها كلُّ علاج ، وهي منبعُ النشاط والقوة .

ومن الحكمة أن ترجّحَ جانبَ الخيرِ على جانب الشر ، واللينَ
على الشدة ، والتعقلَ على الطيش ، والأملَ على اليأس ، والنورَ
على الظلام .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأى أحدكم الطير ، فقال : اللَّهُمَّ لا طيرَ إلا طيرُك ، ولا خيرَ إلا خيرُك ، ولا إلهَ غيرُك ، لم تضره » .
 وكان الرسول الكريم يتفاءل ولا يتطير ، ويحبُّ الاسمَ الحسنَ .
 وقال ^(١) : « ثلاثة لا يسلمُ منهمَّ أحدٌ : الطَّيْرَةُ والظَنُّ والحَسَدُ . قيل له : فما المخرجُ منهمَّ يا رسولَ الله ؟ قال : إذا تطيَّرتَ فلا ترجعْ ، وإذا ظنَّنتَ فلا تُحقِّقْ ، وإذا حسَدْتَ فلا تبغ . »

قال الشيبانيُّ : لما قدِمَ قُتَيْبَةُ بن مسلم والياً على خراسان قام خطيباً ، فسقطت المِخْصَرَةُ ^(٢) من يده ، فتطيرَ به أهلُ خراسان ، فقال : « أيها الناسُ ليس كما ظننتم . ولكنه كما قال الشاعر :

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَأَسْتَقَرَّ بِهَا النُّوَى * كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرِ

وهنا يبدو حضورُ الذهنِ ، وروحُ التفاؤلِ لدى قُتَيْبَةَ .

وفي الأدب العربي كثير من النوادر عن التطير والتشاؤم ، ولا عجب ؛ فقد كانت العربُ تتطيرُ من بعض الأقوال والأفعال ، وأصواتِ البُومِ والغربان . قال أبو الشَّيْصِ :

(١) انتهى من العمدة لابن رشيق ، ج ١ ص ٣٩ ، طبعة سنة ١٩٠٧ للخانجي .

(٢) كالسوط ، أو كالعصا مما يعسكه الإنسان بيده فيتوكأ عليه أو يشير به .

وفي نعبات^(١) الغراب أغتراب^٢ * وفي البان^(٣) بين^(٣) بعيدُ التَداني
وقال آخر في السَّفر جَل :

أهدى إليه سَفَر جَلًّا فَتَطِيرًا * منه فَظْلٌ مُفَكِّرًا مُسْتَعْبِرًا
خَوْفَ الْفِرَاقِ لِأَنْ شَطَرَ^(٤) هِجَاثَهُ * سَفَرَتْ وَحَقَّ لَهُ بَأْسٌ يَتَطِيرًا
ويتناني التشاؤم مع العقل السليم ، ويدل على قِصَرِ النظر ،
والوسوسة ، وضعف العقيدة ؛ ففي التطير ظنٌ بمعرفة الغيب ، « وما
يعلمُ الغيبَ إلا الله » . « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم » .
وكان ابنُ الروميَّ^(٥) كثيرَ الطَّيرَةِ ، ربما أقام المدة الطويلة
لا يتصرف ؛ تطيراً بسوء ما يراه ويسمعه ، حتى إن بعضَ إخوانه من
الأمراء افتقده^(٦) ، فأعلم بحاله في الطيرة ، فبعثَ إليه خادماً اسمه إقبال ،
ليتفأئل به . فلما أخذ أهْبَتَهُ^(٧) للركوب ، قال للخادم : انصرف إلى
مولاك ؛ فأنت ناقص ، ومنكوس^(٨) أسمك « لا بقاً^(٩) » . وابن الرومي

(١) أصوات الغراب ، يقال نعب الغراب أى صوت وصاح . (٢) غصن البان
الذى ينوح عليه الغراب . (٣) البين : الفراق . (٤) شطر الشيء : نصفه .
(٥) ابن الرومي هو أبو الحسن علي بن العباس المعروف بابن الرومي ، وهو من
الشعراء العباسيين ، عرف بالهجاء والعتاب في شعره ، وهو مولى يوناني ولد ببغداد سنة
٢٢١ هـ ، ومات مسموماً سنة ٢٨٣ هـ . (٦) افتقده وتفقده : طلبه عند رغبته .
(٧) عدته . (٨) منكوس حروفه . (٩) يريد « لا بقاء » .

هو القائل : الفأل لسانُ الزمان ، والطيرةُ عنوانُ الحَدَثانِ ^(١) ، وله فيه احتجاجاتٌ وشعرٌ كثير .

وعجيبٌ أن آثارَ تلك الروح ، روح التطير والتشاؤم لا تزال سائدة في خرافاتِ الأمم المتمدنة والمتوحشة ؛ فالمشئُ تحت السلم ، ورقم ١٣ ، والحلة الخضراء للعروس ، وكسر الآنية ، ورمى القلل القديمة وراء المبعضين ؛ كلها تؤدي إلى السوء والشرِّ في نظر المخرِّفين المتشائمين . وما أبعدَ هذه الترهّات ^(٢) عن الحقيقة والواقع .

(١) حدَثان الدهر : نوبه . (٢) الترهّات : الطرق الصغار غير الجادة تنشعب عنها الواحدة (ترهّةٌ) فارسي معرب ثم استعير في الباطل .

فصل الثامن

٧ - التواضع وعدم التصنع

العنصر السابع من عناصر الشخصية التواضع وعدم التصنع ؛ وذلك بأن يكون لدى الإنسان استعداد به يقدر نفسه ومركزه تقديراً يدل على التفكير والحكمة من غير تصنع ، أو تظاهر بما ليس فيه .

فإذا تصنع المرء وادّعى صراحةً أو ضمناً ما ليس فيه ؛ كأن يقدر نفسه فوق قدرها ، ويُعطيها أكثر من حقها ، ويتعظم وما هو بالعظيم ، ويدّعى العلم وما هو بالعالم ، والثروة وما هو بالثري ، والقوة وما هو بالقوى - إذا ادّعى شيئاً من هذه الأشياء فقد يتضح أمره لدى الناس ، ويتبين جهله أو فقره أو ضعفه على عكس ما ادّعى ، فيعاملون كذبه ، فيحتقرونه ويزدرونه ، وينفرون منه ، ويتباعدون عنه ، ويصير ممقوتاً عندهم جميعاً .

وإن مدّح الإنسان نفسه ثقيل لا يُقبل ، وإذا قُبِلَ فإنه يجب

أَنْ يُؤَسَّسَ عَلَى حَقَائِقَ . وَالْأَوَّلَى أَنْ يَتْرَكَ الْإِنْسَانُ عَمَلَهُ لِيَدُلَّ عَلَيْهِ ،
وَيَتَحَدَّثَ عَنْهُ ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَتَحَدَّثَ هُوَ عَنْ نَفْسِهِ . وَإِذَا كَانَ الْمَرْءُ
جَدِيرًا بِالْمَدْحِ فَسَرَّعَانَ مَا تَظْهَرُ حَقِيقَتُهُ ، وَيَقْدِرُ النَّاسُ كِفَايَتَهُ ،
وَيَزِنُونَ أَعْمَالَهُ ، وَيَعْتَرِفُونَ بِشَخْصِيَّتِهِ وَمَقْدَرَتِهِ .

فَالْتَوَاضِعُ فِي غَيْرِ ذِلَّةٍ سَبِيلُ النِّجَاحِ وَالرَّفْعَةِ ، وَالتَّصَنُّعُ سَبِيلُ
الْإِخْفَاقِ وَالْمَهَانَةِ .

وَإِنَّمَا وَإِنْ كُنَّا ضِدَّ التَّصَنُّعِ وَالتَّظَاهَرِ ، لَا نَمْنَعُ أَنْ نُنْزِلَ أَنْفُسَنَا
مَنْزِلَتَهَا ، وَنَعُدَّهَا وَاحِدَةً مِنَ الْجُمُوعِ ، لَهَا مَا لَهَا ، وَعَلَيْهَا مَا عَلَيْهَا ،
وَنُسْتَحْسِنُ أَنْ نَتْرَكَ لغيرِنَا الْحُكْمَ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا ، وَأَنْ نَتَحَلَّى بِالتَّوَاضِعِ
فِي غَيْرِ ضَعْفٍ أَوْ ضَعَةِ . فَالْتَوَاضِعُ أَسَاسُ لِلشَّخْصِيَّةِ الْمَحْبُوبَةِ الْجَذَابَةِ .
وَإِنَّمَا نَجْتَذِبُ غَيْرَنَا ، بِقَدَرِ حُبِّ غَيْرِنَا لَنَا .

وَإِذَا كَانَتِ الشَّخْصِيَّةُ مَظْهَرًا لِقُوَّةِ النَّفْسِ ، فَهِيَ عَدُوَّةُ الْكَذِبِ
وَالْتَضَلِيلِ . فَلَيْسَ الْمُهْمُّ أَنْ يَدَّعَى الْإِنْسَانُ كَذِبًا ، وَلَكِنَّ الْمُهْمَّ أَنْ
يَعْمَلَ حَتَّى يُثَبِّتَ لِنَفْسِهِ الْعِظَمَةَ إِنْ كَانَ عَظِيمًا ، وَالزُّعَامَةَ إِنْ كَانَ
زَعِيمًا . وَيَبْدُو الْمَتَكَبِّرُ وَكَأَنَّ كَسْرَى حَامِلُ لَوَائِهِ ، وَبَلَقِيسَ دَايَةُ لَهُ ،

وكأنه يوسفُ جمالا ، ولقمانُ حكمةً ، والشمسُ لم تطلعْ إلا من جبينه ، والغمامُ لم يَبْدُ إلا من يمينه ، وكأنه امتطى السَّما كَيْن ، وملاك الخافقين ، وما هو بهذا ولا بذاك .

عن أبي أُمَامَةَ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) متوكئا على عصا ، فقمنا له ، فقال : « لا تقوموا كما يقومُ الأعاجمُ يُعْظَمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا » . ودخل عليه رجل فأصابته من هَيْبَتِهِ رِعْدَةٌ . فقال له : « هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ ^(١) » . وكان يَعُودُ الْمَسَاكِينَ ، وَيَجَالِسُ الْفُقَرَاءَ ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْعَبْدِ ، وَيَجْلِسُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ مُخْتَلِطًا بِهِمْ حَيْثَمَا انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ جُلُسًا . وكان يُدْعَى إِلَى خَبْزِ الشَّعِيرِ وَالْإِهَالَةِ ^(٢) السَّنِيخَةِ ^(٣) فَيَجِيبُ .

وكان على بنُ أبي طالبٍ يَعْمَلُ عَلَى الدَّوَامِ عَلَى أَنْ يُحْسِنَ إِلَى الْفُقَرَاءِ فِي الْخُفَاءِ ، حَتَّى لَا يَعْلَمَ بِذَلِكَ أَحَدٌ ، فَرَمَاهُ بَعْضُ الْعَرَبِ بِالْبَخْلِ . فَلَمَّا تَوَفَّى خَرَجَتِ النِّسَاءُ الْفَقِيرَاتُ بِأَكْيَاتٍ يُرَدِّدْنَ « مَنْ يُنْفَقُ

(٢) الدسم : الزيت والشحم :

(١) القديد : اللحم المقدد .

(٣) يقال سنخ الدهن : زغ .

علينا بعدك يا عليّ ؟ » وهذا خير إحسانٍ بعيدٍ عن الظهور ، وهو أجملُ إحسانٍ عند الله .

وأصبح النجاشيُّ يوماً جالساً على الأرض والتأج عليه ، فأعظمت بطارقتهُ ذلك ، وسأله عن السبب الذي أوجبه . فقال : « وجدت فيما أنزل الله على المسيح : « إذا أنعمتُ على عبدي نعمةً فتواضع أتمتها عليه ، وإنه ولدى هذه الليلة غلامٌ ، فتواضعتُ شكر الله » .

وقد كان التواضعُ يتمثلُ في سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ؛ فقد قال : أريدُ رجلاً إذا كان في القوم وهو أميرُهم كان كبعضهم ، وإذا لم يكن أميرُهم فكأنه أميرُهم . وفي ذاتِ مرة خاطبه رجلٌ بقوله : « اتق الله يا أمير المؤمنين » ، فهال ذلك رجلاً كان حاضراً ، وقال : أتقولُ لأُمير المؤمنين اتق الله ؟

فقال له عمر : « دعه فليقلها لي . نعم ما قال . لا خيرَ فيكم إذا لم تقولوها . ولا خيرَ فينا إذا لم نتقبلها » . وإلى مثل هذا ينتهي الأدبُ والتواضعُ ، ورقةُ الجانب ، ولطفُ المعاملة .

وقيل إن السراجَ همَّ ليلةً بأن يُحمد ، فوثب إليه أحدُ الحاضرين

مع عمر بن عبد العزيز ليُصلِّحَه ، فأقسم عليه عمرُ فجلس . ثم قام فأصلِّحَه : فقبل له أتقومُ يا أمير المؤمنين ؟ فقال : قتُ وأنا عمرُ ، ورجعتُ وأنا عمرُ .

قال أبو تمام :

مُتَبَذِّلٌ^(١) فِي الْقَوْمِ وَهُوَ مُبَجَّلٌ^(٢) * متواضعٌ فِي الْحَيِّ وَهُوَ مُعْظَمٌ
وقال آخر :

متواضعٌ وَالشُّبْلُ يَحْرُسُ قَدْرَهُ * وأخو التواضع بالنِّبَاهَةِ يَنْبُلُ
وكان الرشيدُ يتواضعُ للعلماء ؛ قال أبو معاوية الضريُّ ، وكان
من العلماء :

أَكَلْتُ مَعَ الرَّشِيدِ يَوْمًا ، فَصَبَّ عَلَى يَدَيَّ الْمَاءَ رَجُلٌ ،
فَقَالَ لِي ، يَا أبا معاوية ، أَتَدْرِي مِنْ صَبَّ الْمَاءَ عَلَى يَدِكَ ؟ فَقُلْتُ
لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

قال : أَنَا . فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا إِجْلَالًا
لِلْعِلْمِ . قال : نَعَمْ^(٣) .

(١) من لا يصون نفسه عن القبيح . (٢) محترم . (٣) انتهى من الفخرى .

ومما يحكى عن تواضع « لُويس باستور ^(١) » العالم الفرنسى وهو من أعظم العلماء نفعا للبشرية — فهو من الذين خدَموا العلم ورقَّوه ، وعالج الكلبَ والجَمرةَ وآفاتِ الكروم والخنزير . مما يحكى عنه أنه دخل مرة في مؤتمر طبيٍّ دوليٍّ عُقد في سنة ١٨٨١ م . فقام الأطباء ، وحيَّوه بهتاف عال ، فنظر إلى جاره قائلاً : « أظن هذا الهتاف لأن ولَّى العهد قد حضر . كان يجب على أن أبكر » .

وممن يعدون مثلاً علياً للتواضع ، « المهاتما غاندى الزعيمُ الهنديُّ » ؛ فقد سئل مرة : لماذا تركب في الدرجة الثالثة من قطرِ السكة الحديدية ؟ فقال : « لأنى لا أجد فيها درجة رابعة » .

وقيل : دخل أبو العتاهية على ابنه محمد ، وقد تكلف التصوف فقال : ألم أكن قد نهيتك عن هذا ؟ فقال : وما عليك أن أعود الخير وأنشأ عليه ! فقال : يا بُنى : يحتاج المتصوفُ إلى رقةٍ حال ، وحلاوةٍ شمائل ، ولطافةٍ معنى ، وأنت ثَقيلُ الظلِّ مظلمُ الهواء ، راكِدُ النسيم ، جامدُ العينين . فأقبل على سُوقِكَ ؛ فإنها أعودُ عليك — وكان بزازا .

(١) Louis Pasteur (ولد سنة ١٨٢٢ ، وتوفي سنة ١٨٩٥ م) .

والتصنع والتظاهر والجمعية من علامات الضعف ؛ فالرجل
الذى يشعر بنقص فى ناحية من النواحي يعمل على أن يسد ذلك
الفرغ ، ويكمل ذلك بالنقص بالادعاء حيناً ، والإعلان أحياناً .

قال المأمون : ما تكبر أحدٌ إلّا لنقصٍ وجده فى نفسه ،
ولا تطاول إلّا لو هن أحسّه من نفسه . وأظنك قرأت فى كيلة
ودمنة أن ثعلباً أتى أجمة^(١) فيها طبلٌ معلقٌ على شجرة . وكما هبت
الريحُ على قضبان تلك الشجرة حرّكتها . فضربت الطبل ،
فسمع له صوتٌ عظيم ، فتوجّه الثعلبُ نحوه لأجل ما سمع من
عظيم صوته . فلما أتاه وجدة ضخماً ، فأيقن فى نفسه بكثرة الشحم
واللحم . فعالجه حتى شقّه . فلما رآه أجوفَ لاشئ فيه قال :
لا أدري ! لعل أكثر الأشياء إخفاقاً أجهرها صوتاً ، وأعظمها جثّة .

فليس من الحكمة أن يغترّ الإنسان بالمظاهر ؛ فقد دخل
كثير عزة على عبد الملك بن مروان ، فقال عبد الملك : أنت
كثير عزة ؟ قال : نعم . قال : أن تسمع بالمعبدى خيرٌ من أن

(١) الشجر الكثير الملتف .

تراه . قال يا أمير المؤمنين : كلُّ عند محله رجب^(١) الفناء ، شامخ^(٢)
البناء ، عالي السَّناء^(٣) ، ثم أنشأ يقول قصيدة ، من أبياتها .

ترى الرجلَ النَحيفَ فتزدرية^(٤) * وفي أثوابه أسد هَـصُور^(٥)
بُعَاث^(٦) الطَّيرِ أطولها رقاباً * ولم تطلِ البزاة ولا الصَّقُورُ
ضعاف الأسدِ أكثرها زُبيراً^(٧) * وأضرَمها^(٨) اللّواتي لا تزيّر^(٩)
فما عِظُم الرِّجالِ لهم بزِن * ولكن زينهم كرمٌ وخيرُ
فقال عبدُ الملك لجلسائه : لله درُّه . ما أفصحَ لسانه ، وأضبطَ
جَنانَه^(١٠) ، وأطولَ عِنانَه . والله إني لأظنه كما وصفَ نفسه .

وقد اجتمع عامر^(١١) بنُ الظَّرب العدوانيَّ وحممة بن رافع الدَّوسيّ
عند ملك من ملوك حمير . فقال : تَساءَ لا حتى أسمعَ ما تقولان .
فقال عامرُ لحممة : من أحقُّ الناسِ بالِمَقْتِ ؟

قال : الفقيرُ المحتالُ ، والضعيفُ الصَّوال^(١٢) ، والعي^(١٣) القوال^(١٤) .

(١) واسع . (٢) على . (٣) من الرفعة (٤) تحمقره . (٥) كاسر .
(٦) طائر أغبر ضعيف . (٧) صوتاً وصباحاً . (٨) أقواها . (٩) تصيح .
(١٠) قلبه وعقله . (١١) وفي رواية عمرو . (١٢) الصوال : المعتدى على غيره .
(١٣) العي : من عنده لكمة . (١٤) الكثير القول .

ووقف عُيَيْنَةُ بْنُ حَصْنِ بِيَابِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ،
فَقَالَ : أَسْتَأْذِنُوا لِي عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقُولُوا : « هَذَا ابْنُ الْأَخْيَارِ
بِالْبَابِ . » فَأَذِنَ لَهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ : أَأَنْتَ ابْنُ الْأَخْيَارِ ؟
قَالَ : نَعَمْ . قَالَ لَهُ : بَلْ أَنْتَ ابْنُ الْأَشْرَارِ ، وَأَمَّا ابْنُ الْأَخْيَارِ فَهُوَ
يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ .

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ حَيَّانَ : الشَّرِيفُ إِذَا تَقَوَّى تَوَاضَعَ ، وَالْوَضِيعُ
إِذَا تَقَوَّى تَكَبَّرَ .

وَقَالَ كَسْرَى : احْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ ، وَاللَّئِيمِ
إِذَا شَبَعَ .

وَقِيلَ مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ دُونَ قَدْرِهِ رَفَعَهُ النَّاسُ فَوْقَ قَدْرِهِ .
وَمَنْ رَفَعَهَا عَنْ حَدِّهِ وَضَعَهَا النَّاسُ دُونَ حَدِّهِ .

وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَفْضَلُ الرِّجَالِ مَنْ تَوَاضَعَ عَنْ رِفْعَةٍ ،
وَعَفَا عَنْ قُدْرَةٍ ، وَأَنْصَفَ عَنْ قُوَّةٍ .

الفصل التاسع

٨ — حسن مظهر الإنسان وقوامه

لمظهر الإنسان أثرٌ في شخصيته ؛ فالرجل الصحيحُ الجسم ، الحسنُ القامة ، ربما لا يحتاج في إظهار شخصيته والتأثير في غيره إلى ما يحتاج إليه الشخصُ النحيفُ الجسم ، المشوّهُ الخَلْقَةُ ؛ فبينما تجد الأولَ طبعياً في معاملته ؛ لأنه لا يشعرُ بنقص خارجي يريد أن يكمله تجدُ الثاني محبباً للتظاهر ، متكلفاً في أقواله وأفعاله ، منتهزاً كل وسيلةٍ يستطيع أن يُظهرَ بها نفوذَه ، فيتظاهر بالعلم تارة ، ويفخر بحسبه ونسبه تارة أخرى . وقد يتخذ أحياناً وسائلَ ثعبانيةً أو تعليمية ، ليُظهرَ بها نفسه أمام من ينبغي الظهورَ بينهم ، فيلجأ إلى الوشاية حيناً ، وإلى الملق حيناً آخر . وقد يُضطر إلى التجميل في جسمه ولبسه ، أو المداعبة في حديثه ؛ كل ذلك ليكمل ما فيه من نقص جسمي .

فالإنسان حينما يُحسُّ نقصاً من الناحية الجسمية مثلاً ، تراه يعمل

على أن يملأ هذا الفراغ ، ويكمل ذلك النقص من الناحية العقلية أو الخلقية أو العلمية ؛ حتى يُظهر شخصيته للملأ .

فسقراط^(١) مثلاً شيخ الفلاسفة من اليونان ، كان أفطس الأنف ، غليظ الشفتين ، جاحظ^(٢) العينين ، قبيح المنظر ، ولكنه قد وصل بمواهبه العقلية والخلقية الأخرى إلى ذروة المجد . ويكفيه فخراً أنه أستاذ أفلاطون ، وأنه أكبر فلاسفة اليونان .

والجاحظ^(٣) كان أديب العلماء ، وعالم الأدباء ، وما لُقّب بهذا اللقب الذي كان مُبَغَّضاً إليه إلا لأنه كان جاحظ العينين (بارزهما) ، دميم^(٤) الخلق ، حتى قيل : إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم ، فاستقدمه إليه (بسر من رأى) ليؤدّب ولده . فلما رآه استبشع منظره ، وصرفه بعشرة آلاف درهم . ولكنه بجانب ذلك كان خفيف الروح ، ذى الفؤاد ، واسع الاطلاع . وكان يُعدُّ دائرة معارف في الآداب والعلوم واللغة والتاريخ ؛ حتى أصبح لقبه — الذى

(١) ولد بأثينا سنة ٤٦٩ ق . م . وحكم عليه بالقتل ظمأ سنة ٣٩٧ ق . م .

(٢) جحظت عينه : عظمت مقلتها وتأتأت . (٣) ولد بالبصرة سنة ١٦٠ هـ ، وتوفي

سنة ٢٥٥ هـ ، وعاش نحو ٩٥ سنة . (٤) قبيح .

كَانَ يَكْرَهُهُ — دَلِيلًا عَلَى التَّبَحُّرِ فِي الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَالْفَوْقِ فِي فَنُونِ
الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ . سُئِلَ كَيْفَ حَالُكَ يَا أَبَا عَثْمَانَ ؟ فَقَالَ : « حَالِي أَنَّ
الْوَزِيرَ يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِي ، وَيَنْفِذُ أَمْرِي ، وَيُؤَاتِرُ^(١) الصَّلَاتِ إِلَى . . »

وَمَا يُرَوَى عَنْ ابْنِ الْأَثِيرِ صَاحِبِ الْكَامِلِ فِي التَّارِيخِ أَنَّهُ كَانَ
يَجْلِسُ فِي صُفَّةٍ عَلَى بَابِ دَارِهِ ، يُطَالِعُ الْكُتُبَ ، وَيُسَلِّي نَفْسَهُ بِمَنْظَرِ
السَّابِلَةِ فِي الطَّرِيقِ . وَكَانَ لَهُ جَارٌ رَثُ الثِّيَابِ ، أَشْعَثُ أُغْبَرُ ، تَفْوَحُ
مِنْهُ رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ ، وَكَانَ يَحُلُو لِهَذَا الْجَارِ الْقَذِيرِ أَنْ يَرْكَبَ أَكْتَفَ
ابْنِ الْأَثِيرِ حِينَ يَرَاهُ يُطَالِعُ كُتُبَهُ . وَكَانَ ابْنُ الْأَثِيرِ يَسْتَحْيِي مِنْهُ ،
وَيَتَمَلَّلُ تَحْتَ هَذَا الْجُلِّ الثَّقِيلِ ، كَمَا كَانَ يَتَأَذَى مِنْ رَائِحَتِهِ الْكَرِيهَةِ
الْمُثِيرَةِ لِلنَّفْسِ ، وَكَانَ يَدْفَعُ عَنْهُ أَذَى الرَّجُلِ بِشَيْءٍ مِنَ اللَّطْفِ
وَحُلُو الْحَدِيثِ . فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى فَعْلِهِ قَالَ لَهُ يَوْمًا : أَمَا تَسْتَحْيِي
أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنَ الزُّكُوبِ عَلَى كَتِفِي وَأَنْتَ لَا تَدْرِي مَا أَطَالِعُهُ مِنْ
عِلْمٍ نَافِعٍ يَشْرَحُ الصَّدْرَ ، وَيُعَلِّمُ النَّفْسَ ؟

فَلَمَّا أَخْجَلَهُ بِهَذَا التَّعْنِيفِ قَالَ لَهُ الرَّجُلُ : وَمَاذَا تُطَالِعُ يَا شَيْخَنَا ؟

فَقَالَ لَهُ : أَطَالِعُ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْاِقْتِبَاسِ .

فَقَالَ لَهُ : اُنْشِدْنِي مِمَّا تَقُولُ ، فَأُنْشِدَهُ بَيَّتَيْنِ لَمْ يَسْتَحْسِنَهُمَا
الرَّجُلُ ، وَعِنْدُنِي ارْتَجَلَ الرَّجُلُ عِدَّةَ أَبْيَاتٍ هِيَ مِنْ أَجْوَدِ الشَّعْرِ
وَأَبْلَغِهِ ، فَقَامَ ابْنُ الْأَثِيرِ إِجْلَالًا لَهُ ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ .

فَقَالَ الرَّجُلُ لَابْنِ الْأَثِيرِ : إِيَّاكَ وَأَنْ تَحْتَقِرَ إِنْسَانًا أَوْ تَسْتَخَفَّ
بِمَخْلُوقٍ مَهْمَا يَكُنْ شَأْنُهُ ؛ فَإِنَّ مَوَاهِبَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الصُّدُورِ
لَا فِي الشِّيَابِ وَالظُّهُورِ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى
أَجْسَامِكُمْ ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ . » وَأَشَارَ
بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ .

وَالتَّارِيخُ حَافِلٌ بِكَثِيرٍ مِنَ الْعِظَاءِ الْمَشْهُوَةِ أَجْسَادُهُمْ ، السَّامِيَةِ
أَرْوَاحُهُمْ وَعَقُولُهُمْ . فَلَا تَسْتَهِنْ بِرَجُلٍ قَبِيحِ الْمَنْظَرِ ، وَلَا تَغْتَرِ بِشَخْصٍ
حَسَنِ الْمَظْهَرِ ؛ فَقَدْ تَجَدَّدَ فِي الْأَوَّلِ عِظْمَةٌ وَبُطُولَةٌ ، وَقَدْ تَجَدَّدَ فِي الثَّانِي
نَقْصٌ أَوْ ضَعْفٌ فِي أَيْ نَاحِيَةٍ مِنَ النِّوَاحِي ، وَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى التَّطْوِيلِ .
وَكُلُّ مَا نَزِيدُ أَنْ نَقُولَهُ : هُوَ أَنَّهُ إِذَا نَقَصَ الْإِنْسَانُ مِنْ جِهَةٍ حَاوَلَ
أَنْ يُكَمِّلَ نَفْسَهُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى . وَإِذَا حُرِمَ الْإِنْسَانُ صِفَةً مِنْ
الْصِّفَاتِ وَهَبَ صِفَةً أُخْرَى تَحِلُّ مَحَلَّهَا .

لفضل العاشر

٩ - قوة البيان

إن قوة البيان ، وفصاحة اللسان ، وحسن المنطق ، والقدرة على التأثير في السامع مع راحة العقل ، تُكسب الإنسان شخصية قوية ، وتجعل له منزلة بين سامعيه ، ولذلك لما أمر الله تعالى سيدنا موسى (عليه السلام) أن يذهب إلى فرعون ، شكى موسى إلى الله في القول ، وطلب من الله أن يرسل معه أخاه هرون لفصاحته ، قائلاً : « وأخي هرون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً ^(١) يُصدّقني » يريد فرعون .

وإننا لا نريد بالفصاحة التزثرة والتشدق ، والتوعر في الكلام ، كما لا نريد بها أن يزيد كلام الإنسان على عقله ، بل نريد حسن التعبير عما في النفس ، وقوة التأثير في المستمع ، والتكلم من غير تهيب أو تخوف ، بحيث يكون الكلام حلواً رشيقاً ، سهلاً عذباً مؤثراً .

(١) عوناً ومساعداً .

أما العي^(١) والخصر^(٢) واللجلة^(٣) والتممة^(٤) والفأفة^(٥) وكثرة التردد في القول ، والجلل في أثناء التكلم فتقلل من تأثير الشخص في سامعيه .

وإن حسن التعبير عما في النفس شرط أساسي لقوة الشخصية ، وهو يتطلب العلم بالشئ الذي نريد التكلم عنه ؛ لأن أفكارنا إذا عرفت كان من السهل التعبير عنها .

وكما يجب أن نعرف ما نريد أن نقول ، وما نريد أن نفعل ، كذلك يجب أن نحسن القول . ونحسن العمل . وما أجل الكلمة الصائبة في اللحظة المناسبة . وكما ينبغي حسن التكلم والخطاب ، كذلك ينبغي حسن الإصغاء والاستماع للمتكلم . وقد تكون لدينا الأفكار السامية ، ولكننا نحتاج إلى شجاعة في إظهارها حتى ينتفع بها غيرنا . ولقوة البيان أثر كبير في نفس المستمع ؛ فقد تنجى من القتل ؛ قيل : زين المرء اثنان : اللسان البليغ ، والشعر الجيد . وقيل :

(١) البطء في الكلام .

(٢) التردد في الكلام .

(٣) ترديد الكلام كثيراً .

(٤) العي وضيق النفس .

(٥) رد الكلام إلى التاء والميم .

أَتَى مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ ^(١) بِأَسْرَى مِنْ أَصْحَابِ الْمُخْتَارِ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ
بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ أُسَيْرٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، مَا أَقْبَحَ بِكَ
أَنْ أَقُومَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى صُورَتِكَ هَذِهِ الْحَسَنَةِ ، وَوَجْهَكَ الْمَلِيحَ الَّذِي
يَسْتَضَاءُ بِهِ . فَاتَّعَلَقَ بِكَ وَأَقُولُ : « يَا رَبُّ ، سَلْ مُصْعَبًا فِيمَ قَتَلَنِي ؟ »
فَاسْتَحْيَا مُصْعَبٌ ، وَأَمَرَ بِإِطْلَاقِهِ .

فَقَالَ الْأَسِيرُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، أَجْعَلْ مَا وَهَبْتَ مِنْ حَيَاتِي فِي خَفَضٍ
وَدَعَةٍ مِنَ الْعَيْشِ .

قَالَ الْأَمِيرُ : قَدْ أَمَرْتُ لَكَ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ .

قَالَ الْأَسِيرُ : إِنِّي أَشْهَدُكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنْ شَطَرَ هَذَا الْمَالِ
لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ الرُّقَيْيَاتِ . قَالَ : وَلِمَ ذَلِكَ ؟
قَالَ : لِقَوْلِهِ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّاسَةِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّالِمَاءُ
فَضَحَكَ مُصْعَبٌ . وَقَالَ : أَقْبِضْ مَا أَمَرْنَا لَكَ بِهِ . وَلَا بَنَ قَيْسٍ
عِنْدَنَا مِثْلُهُ . فَمَا شَعَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ إِلَّا وَقَدْ وَاثَاهُ الْمَالُ .

(١) انتهى من العمدة لابن رشيق ج ١ ، ص ٤٢ طبعة الخانجي سنة ١٩٠٨ م .

وإن الرجلَ الفَصِيحَ تكونُ الأعناقُ إليه أميلَ ، والعقولُ عنه أفهمَ ، والنفوسُ إليه أسرعَ . وقد ذكر اللهُ لنبِيهِ (صلى اللهُ عليه وسلم) حالَ قريشٍ في طلاوةِ عباراتهم ، وخلاصةِ ألسنتِهِمْ ، وأستِمالَتِهِمُ الأسماعَ بِحسنِ منطِقِهِمْ . فقال : « وإن يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ » . وكلَّمَا كان اللسانُ أبينَ كانَ أحمدَ .

قال الجاحظُ في كتابه « البيان والتبيين ^(١) » :

والبيانُ أسمى لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ عَنْ قِنَاعِ ^(٢) المعنى ، وهتَكَ ^(٣) الحُجُبَ دُونَ الضميرِ ، حَتَّى يُفْضِيَ السامِعَ إِلَى حَقِيقَتِهِ ، وَيَهْجُمَ عَلَى مَحْصُولِهِ ^(٤) ، كائِنَمَا كَانَ ذَلِكَ الْبَيَانُ ، وَمِنْ أَىِّ جَنَسٍ كَانَ ذَلِكَ الدَّلِيلُ ؛ لِأَن مَدَارَ الْأَمْرِ — الْقَصْدَ الَّذِي إِلَيْهِ يَجْرِي الْقَائِلُ وَالسَّامِعُ — إِنَّمَا هُوَ الْفَهْمُ وَالْإِفْهَامُ . فَبأَيِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ الْإِفْهَامَ ، وَأَوْضَحْتَ عَنِ الْمَعْنَى ، فَذَلِكَ هُوَ الْبَيَانُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ .

قيل لجعفر بن يحيى البرمكي : ما البيان ؟

قال : أَن يُحِيطَ لَفْظُكَ بِمَعْنَاكَ ، وَيَكْشِفَ عَنْ مَغْزَاكَ ، وَيُخْرِجَهُ

(١) ج ١ ص ٤٢ طبعة « محب الدين الخطيب »

(٢) حجاب ، والمراد خفي .

(٣) كشف

(٤) بقيته .

من الشركة ، ولا يستعان عليه بالفكرة ، ويكون سليماً من التكلف ، بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأويل .

وذكر سهل بن هرون^(١) جعفر بن يحيى فقال :

قد جمعَ في كلامه وبلاغته الهدى^(٢) والتمهل ، والجزالة والحلاوة ، وكان يفهم إفهاماً يغنيه عن الإعادة للكلام . . . فإنه لا يتجسس ، ولا يتوقف في منطقه ، ولا يتلجلج ، ولا يتسعل ، ولا يترقب لفظاً قد استدعاه من بُعد ، ولا يلتمس معنى قد عصاه بعد طلبه له .

فثل جعفر بن يحيى يُقال إن لديه قوة بيان .

وقيل : البيانُ بصرٌ ، والعى عَمى ، كما أن العلمَ بصرٌ ، والجهل عَمى . والبيانُ من نتاج العلم ، والعى من نتاج الجهل . قال سهل بن هرون : العقلُ رائدُ الروح ، والعلمُ رائدُ العقل ، والبيانُ ترجمانُ العلم . وقيل : حياةُ المروءةِ الصدقُ ، وحياةُ الروحِ العفافُ ، وحياةُ الحلمِ العلمُ ، وحياةُ العلمِ البيانُ .

وقال يونس بن حبيب : ليس لعَيٍّ مروءةٌ ، ولا لمنقوصِ

(١) كان خطيباً شاعراً توفي سنة ١٧٣ هـ . (٢) الهدى : السرعة .

البيان بهاءً ، ولو حك ييا فوخه عنان السماء . وقال ابن التوام : الروح عمادُ البدن ، والعلمُ عمادُ الروح ، والبيانُ عمادُ العلم .

وقال الجاحظ : وأحسنُ الكلام ما كان قليله يُعْنِيكَ عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، فإذا كَانَ المعنى شريفاً ، واللفظُ بليغاً ، وكان صحيحَ الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ، ومُنزَّهاً عن الاختلال ، مَصُوناً عن التكلف — صَنَعَ في القلبِ صَنِيعَ الغيثِ في التربةِ الكريمةِ ، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أَصْحَبَهَا اللهُ مِنَ التوفيقِ ، ومنَحَهَا مِنَ التأييدِ ، ما لا يمنعُ من تعظيمها به صدور الجبابة ، ولا يذهل عن فهمها عقولُ الجُهلة .

وقد قال عامرُ بنُ عبد القيس : « الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان » .

وقال الحسن (رضي الله عنه) — وقد سَمِعَ متكلماً يَعِظُ ، فلم تقع موعظته بموضع من قلبه ، ولم يَرِقَّ عندها — : يا هذا إِنَّ بقلبك لشرّاً أو بقلبي .

وقيل^(١) : إن أولَ ما عُرف من تقدم الأحنف بن قيس أنه وفَدَ على عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، وكان أحدثَ القومِ سنًّا ، وأقبحهم منظرًا . فتكلم كلُّ رجلٍ من الوفدِ بحاجته في خاصته ، والأحنفُ ساكتٌ ، فقال له عمرُ : قلْ يا فتى ، فقال :

يا أميرَ المؤمنين ، إن العربَ نزلتْ بمساكنَ طَيِّبةٍ ، ذاتِ ثمارٍ وأنهارٍ عذبةٍ ، وأكننةٍ ظليمةٍ ، ومواطنٍ فسيحةٍ ، وإنا نزلنا بسبخةٍ^(٢) نشاشةٍ^(٣) ، ماؤها ملحٌ ، وأفئدتُها ضيقةٌ . وإنا يأتينا الماءَ العذبُ في مثلِ حلقِ النعامةِ بالأنزار . كُنّا يا أميرَ المؤمنين نحفرُ نهرًا يقدرُ ماؤه ، حتى تأتي الأُمّةُ فتُعرفَ بِجَرَّتِها وإِناءِها ، ونوشك أنْ نهلك .

قال : ثم ماذا ؟

قال : تزيد في صاعِنَا^(٣) ومُدَّنَا . وتثبت من تلاحق في العطاء من دُرَيْتِنَا .

قال : ثم ماذا ؟

(١) من زهر الآداب ج ٣ ص ٦٠ طبعة مصطفى محمد . (٢) أرض سبخة أى ذات ملح ونز . (٣) سبخة نشاشة . يحف ثراها ، ولا ينبت مرعاها . (٣) الصاع الذى يكال به .

قال : تخفف عن ضعيفنا ، وتنصف قويننا ، وتتعاهد ثغورنا ،
وتجهز بعثنا .

قال : ثم ماذا ؟

قال : إلى هنا أنتهت المطالب ، ووقف الكلام .

قال : أنت رئيسُ وفدِكَ ، وخطيبُ مصرِكَ ، قُمْ عن موضعِكَ
الذي أنت فيه ، فأدناه حتى أقعده إلى جانبه ، ثم سأله عن نسبه ،
فانتسب له ، فقال أنت سيدُ تميمٍ ، فبقيت له السيادةُ حتى مات .
فبحسْنِ البيانِ كَانَ للأحنفِ بنِ قيسٍ منزلةٌ ساميةٌ بين الخلفاء
والأمراء ، مع أنه كَانَ دميمَ الخِلقةِ ، أُلصقَ الرأسُ ، متراكمَ الأسنانِ ،
مائلَ الذقنِ ، ناتئَ الوجنتين ، ماحقٌ ^(١) العينين . وكانت العيونُ
تقحمه ^(٢) لدمايته ^(٣) ، وقلةِ روائه ^(٤) ، ولكنه كَانَ إذا وقف ليتكلمَ
أَصغَتِ القبائلُ إليه ، وَأُنْثَلَتْ ^(٥) عليه ، وخشعت الأبصارُ لكلامه .
وقال الناس : هذا أبو بجر ، هذا خطيبُ بني تميم .

وقيلَ أَمَرَ الْحِجَّاجُ صاحبَ حَرَسِهِ أَنْ يطوفَ بالليلِ ، فمَنْ رآه بعدَ

(١) غائر . (٢) تحتقره . (٣) لقبح منظره ، وصغر جسمه .

(٤) حسن شكله . (٥) انشال الناس عليه من كل وجه : اجتمعوا .

العِشاء سكرانَ ضربَ عُنُقَه . فطافَ ليلَةً مِنَ الليالي ، فوجدَ ثلاثةَ
فَتَيانٍ يَتَمِيلُونَ وَعَلَيْهِمْ أَمَارَاتُ السُّكْرِ . فَأَحَاطَتْ بِهِمُ الْعِلْمَانُ .
وَقَالَ لَهُمُ صَاحِبُ الْحَرَسِ : مَنْ أَنْتُمْ حَتَّى خَالَفْتُمْ أَمْرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَخَرَجْتُمْ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمْ :

أَنَا ابْنُ مَنْ دَانَتْ الرِّقَابُ لَهُ * مَا بَيْنَ مَخْزُومِهَا وَهَاشِمِهَا
تَأْتِيهِ بِالرَّغْمِ ^(١) وَهِيَ صَاغِرَةٌ * يَأْخُذُ مِنْ مَالِهَا وَمِنْ دِمِهَا
فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَقَالَ : لَعَلَّهُ مِنْ أَقَارِبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

ثُمَّ قَالَ لِلْآخَرِ : وَأَنْتَ مَنْ تَكُونُ ؟ فَقَالَ :
أَنَا ابْنُ مَنْ لَا تَنْزِلُ الدَّهْرَ قَدْرُهُ * وَإِنْ نَزَلَتْ يَوْمًا فَسَوْفَ تَعُودُ
تَرَى النَّاسَ أَفْوَاجًا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ * فَمِنْهُمْ قِيَامٌ حَوْلَهَا وَقَعُودٌ
فَأَمْسَكَ عَنْهُ ! وَقَالَ : لَعَلَّهُ ابْنُ أَشْرَفِ الْعَرَبِ .

ثُمَّ قَالَ لِلْآخَرِ : وَأَنْتَ مَنْ تَكُونُ ؟ فَأَنْشَدَ عَلَى الْبِدِيَّةِ :
أَنَا ابْنُ الَّذِي خَاضَ الصُّفُوفَ بَعَزْمِهِ * وَقَوَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى اسْتَقَامَتْ
وَرَكْبَاهُ لَا يَنْفُكُ رِجْلَاهُ مِنْهُمَا * إِذَا الْخَيْلُ فِي يَوْمِ الْكُرِيهِةِ ^(٢) وَلَّتْ

فَأَمْسَكَ عَنْهُ ، وَقَالَ : لَعَلَّهٗ ابْنُ أَشْجَعِ الْعَرَبِ ، وَحَافِظَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا .
فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ رَفَعَ أَمْرَهُمْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَحْضَرَهُمْ ،
وَكَشَفَ عَنْ حَالِهِمْ ، فَإِذَا الْأَوَّلُ ابْنُ حَجَّامٍ ، وَالثَّانِي ابْنُ فَوَّالٍ ،
وَالثَّلَاثُ ابْنُ حَائِكٍ . فَتَعَجَّبَ مِنْ فَصَاحَتِهِمْ ، وَقَالَ لِمَلْسَائِهِ : « عَلِّمُوا
أَوْلَادَكُمْ الْأَدَبَ ؛ فَوَاللَّهِ لَوْلَا فَصَاحَتُهُمْ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ » .

وَذَكَرَ أَنَّ الْبَادِيَةَ قَحِطَتْ أَيَّامَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَوَفَدَ
عَلَيْهِ رَهْوَسُ الْقَبَائِلِ . فَجَلَسَ لَهُمْ وَفِيهِمْ صَبِيٌّ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَنَةٍ
يُسَمَّى دِرْوَاسَ بْنَ حَبِيبٍ ، فِي رَأْسِهِ ذَوَابَةٌ ^(١) ، وَعَلَيْهِ بُرْدَةٌ يَمْنِيَّةٌ ،
فَاسْتَصْغَرَهُ هِشَامٌ وَقَالَ لِحَاجِبِهِ : « مَا يَشَاءُ أَحَدُهُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْنَا إِلَّا
وَصَلَ حَتَّى الصَّبِيَّانُ » .

فَقَالَ دِرْوَاسُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ دَخُولِي لَمْ يُخْلِلْ بَكَ ، وَلَا
انْتَقَصَكَ ، وَلَكِنَّهُ شَرَّفَنِي . وَإِنْ هُوَ لَا قَدِيمُوا لِأَمْرِ فَهَابُوكَ دُونَهُ .
فَأَعْجَبَهُ كَلَامُهُ ، وَقَالَ : « أَذْكَرُ مَا تَشَاءُ ، لَا أُمُّ لَكَ » ^(٢) .

فَقَالَ : « إِنَّا أَصَابَتْنَا سِنُونُ ثَلَاثُ : فَسَنَةٌ أَكَلَتِ اللَّحْمَ ، وَسَنَةٌ

(١) شعر في منبت الناصية من الرأس . (٢) يوضع هذا موضع المدح .

أَذَابَتْ الشَّحْمَ ، وَسَنَةَ أَنْقَتَ ^(١) الْعَظْمَ . وَفِي يَدَيْكُمْ فَضُولُ أَمْوَالٍ ، فَإِنْ
كَانَتْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَفَرَّقُوهَا عَلَى عِبَادِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ فَلَا تَحْبِسُوهَا
عَنْهُمْ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ فَتَصَدَّقُوا بِهَا عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُجْزِي
الْمُتَصَدِّقِينَ ، وَلَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَإِنْ الْوَالِي مِنَ الرِّعَايَةِ كَالرُّوحِ
مِنَ الْجَسَدِ لَا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِهِ .

فَقَالَ هِشَامُ : « مَا تَرَكَ الْغَلَامُ فِي وَاحِدَةٍ مِنَ الثَّلَاثِ عَذْرًا » .
وَأَمَرَ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ فَفَرَّقَتْ فِي أَهْلِ الْبَادِيَةِ . وَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ
أَلْفِ دِرْهَمٍ .

فَقَالَ دُرَّوَيْسٌ : أَرُدُّدَهَا فِي جَانِزَةِ الْعَرَبِ ، فَمَا لِي حَاجَةٌ فِي
خَاصَّةِ نَفْسِي دُونَ عَامَّةِ النَّاسِ .

الفصل الحادى عشر

١٠ - الثقة بالنفس والاعتماد عليها

من العناصر الأساسية في تكوين الشخصية الثقة بالنفس أولاً ، والاعتماد عليها ثانياً . ومتى وجدت الثقة بالنفس فمن السهل الاعتماد عليها في كل عمل ممكن من الأعمال ، وفي التغلب على مشاق الحياة . والسبب في كثرة الاعتماد على الناس أن الغريزة الاجتماعية قوية في الجنس البشرى ، متأصلة فيه ، وأنا اعتدنا التفكير الجمعى لا التفكير الاستقلالى .

فينبغى أن نعوّد الأطفال الاعتماد على أنفسهم ، والاستقلال في تفكيرهم من غير اتكال على أحد ؛ كي يستطيعوا في المستقبل أن يعيشوا مستقلين بأنفسهم .

ولا يراد بذلك أن يعتزل الإنسان العالم ، وينقطع عن الناس ، ويفكر في نفسه فحسب ، فليس هذا من الإنسانية في شيء ، بل إنه باعتزاله غيره يفقد كثيراً ، ولا يرجح إلا قليلاً . ولكننا نريد تعويد

الأطفال الاستقلال الشخصي ، والقدرة على القيام بأعباء الحياة من غير اتكال على غيرهم في كل شيء ؛ حتى يتمكنهم أن يقوموا بواجبهم نحو أنفسهم ، ونحو المجتمع . وكثيراً ما يحتاج الإنسان إلى مُعاونة صديقه ، ومُساعدة رئيسه ، ومُعونة خادمه . فالتعاون ضروري للجماعة التي تربط أفرادها روابط وثيقة من الحب والإخاء .

والاعتماد على النفس يتطلب أن يكون لدينا شيء جوهري يمكن الاعتماد عليه هو الثقة بالنفس ، والدقة في العمل ، والتحقق منه ؛ حتى تكون أحكامنا صائبة ، وأمورنا نافذة ، وأقدامنا ثابتة . أما إذا انتفت الثقة بالنفس أو الدقة في العمل أو التثبت منه ، فالاعتماد على النفس حينئذ يكون عبثاً ومن قبيل الأحلام .

والاعتماد على النفس أمر ضروري ، يجب أن يُحلّه المرء من نفسه محلاً رفيعاً في كل عمل يُقدّم عليه ، وأن يَنْتَفِعَ بقواه الشخصية ، وَيَتَّقَ بِقُدْرَتِهِ على القيام بما يحتاج إليه ، مِنْ غير أن يَلْجَأَ إلى سِوَاهُ ، أَوْ يَعْتَمِدَ على غيره .

والرجل الواثق بنفسه ثقةً بعيدةً عن الغرور والاستبداد ،

الواثق بقوله وفعله — يستطيع أن يقف وحده مُنادياً برأيه ، مبرهنًا على سدادِه وصوابه . وليس من يستقلُّ برأيه في أمرٍ من الأمور يكونُ مخطئًا دائمًا ، بل قد يكون مصيبًا في رأيه ، وقد يسبق في آرائه المجتمع الذي يعيش فيه بعشرات السنين ، كأمثال المصلحين ؛ فإنهم غالبًا يكونون في وادٍ ، والمجتمع في وادٍ آخر ، لا يُقدرُ رأيهم إلا بعد مماتهم . وبالمصلحين الذين يثقون بأنفسهم يحيا المجتمع .

وقد قامَ (دِزرائيلي) حينما كان رئيسًا للوزارة بالجلطة بشراء كلِّ ما أمكنه شراؤه من أسهم قناة السويس ، في وقتٍ كان يُعارضه فيه مجلسُ العموم — وهو يُمثِّلُ الأمة كُلَّ التمثيل — ومديرُ مصرف إنجلترا ، وكان بيده ما يحتاجُ إليه من المال ، ولكنَّ (دِزرائيلي) قامَ بتنفيذِ فكرته التي كان يؤمنُ بها ، ولمْ يُفكِّرْ في مُعارضيه . وقد برهنتِ الأيامُ على أنه كان أبعدَ نظرًا ، وأصدقَ فِراسةً . ويُعترفُ الآنَ كلِّ يومٍ بفضلِهِ ، ويُعدُّون هذه مَثرةً من مآثرِهِ ، ويذكرونها له بالفخر والإعجاب .

ولعلَّكَ سمِعتَ قصةَ ذلك البحَّارِ الجريءِ (روبنسن كروزو) ، الذي تحطَّمتْ سفينتهُ قُربَ شواطئِ أمريكا الجنوبيَّةِ ، فتعلَّقَ

بَلَوَحٍ مِنَ الْخَشَبِ ، وَجَعَلَ يُصَارِعُ الْمَوْتَ وَيُعَالِجُهُ ، حَتَّى اسْتَطَاعَ
بَعْدَ جُهِدٍ وَمَشَقَّةٍ أَنْ يَصِلَ إِلَى شَاطِئِ إِحْدَى الْجَزَائِرِ ، الَّتِي لَمْ تَطَأْهَا
قَدَمُ إِنْسَانٍ قَبْلَهُ .

نَزَلَ الْجَزِيرَةَ ، وَأَخَذَ يَجُوسُ خِلَالَهَا ، حَتَّى اهْتَدَى إِلَى بُقْعَةٍ بِهَا
كَثِيرٌ مِنْ أَشْجَارِ الْفَاكِهَةِ ، وَيَجْرَى عَنْ كَثَبٍ مِنْهَا جَدُولُ مَاءٍ
عَذْبٍ ، فَعَوَّلَ عَلَى الْبَقَاءِ بِقُرْبِهَا ، وَأَخَذَ يَعْمَلُ فِي جِدِّ وَنَشَاطٍ ، حَتَّى
بَنَى كُوخًا جَمِيلًا ، حَوْلَهُ سَوْرٌ مِنْ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ ، الَّتِي اقْتَطَعَهَا
مِنْ غَابَاتِ الْجَزِيرَةِ ، لِيَحْمِيَهُ مِنْ هَجَمَاتِ الْوُحُوشِ الضَّارِيَةِ فِي
أَثْنَاءِ اللَّيْلِ ، وَصَنَعَ لِنَفْسِهِ مَقْعَدًا يَجْلِسُ عَلَيْهِ ، وَنَضْدًا يَضَعُ عَلَيْهِ
الطَّعَامَ ، وَصَحَافًا مُخْتَلِفَةَ الْأَشْكَالِ ، اتَّخَذَهَا مِنْ جُذُوعِ الْأَشْجَارِ ،
كَمَا أَعَدَّ لِنَفْسِهِ حَشِيَّةً يَنَامُ عَلَيْهَا ، وَصَنَعَ مِغْزَلًا وَمِنْسَجًا يَنْسِجُ
عَلَيْهِ ثِيَابَهُ ، وَاقْتَطَعَ مِنَ الْحِجَارَةِ طَاحُونَةً يَطْحَنُ عَلَيْهَا الْحَبُوبَ الَّتِي
اسْتَنْبَتْهَا فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ ، وَأَخِيرًا أَعَدَّ لِنَفْسِهِ زَوْرَقًا كَبِيرًا ؛ كَى
يَرْكَبُهُ وَيَعُودُ بِهِ إِلَى وَطَنِهِ ، بَعْدَ أَنْ عَاشَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ زَمَنًا
طَوِيلًا بِمُفْرَدِهِ ، أَعَدَّ فِيهِ لِنَفْسِهِ كُلَّ مَا احتَاجَ إِلَيْهِ .

ذَلِكَ مِثْلُ مَنْ أَمِلَ الْاعْتِمَادَ عَلَى النَّفْسِ ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ الْمَرْءُ أَنْ
يَعْمَلَ عَمَلَ (رُوبِنْسُنْ كَرُوزُو) إِلَّا إِذَا اعْتَادَ مِنْذُ الصَّغَرِ الْاعْتِمَادَ
عَلَى نَفْسِهِ ، وَقَامَ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بِهِ ، بَدُونِ أَنْ يَكُونَ كَلَّا
عَلَى غَيْرِهِ ، وَعَبِيًّا ثَقِيلًا عَلَى مَنْ يَتَصَلُّ بِهِ .

فَاعْمَلْ عَلَى أَنْ تَخْدُمَ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ ، وَاسْتَعْمِلْ قَوَاكَ فِي تَدْبِيرِ
شُئُونِكَ ، وَلَا تَلْجَأْ إِلَى غَيْرِكَ مَا دُمْتَ قَادِرًا عَلَى عَمَلِكَ ، وَأَعِدَّ
نَفْسَكَ لِلنُّزُولِ فِي مُعْتَرِكِ الْحَيَاةِ ؛ كَيْ تَخْرُجَ إِلَى الْمَجْتَمَعِ رَابِطَ الْجَأَشِ ،
قَوِيَّ الْعَزِيمَةِ ، ثَابِتَ الْقَلْبِ ، قَوِيَّ الْإِيمَانِ بِنَفْسِكَ .

وَإِذَا مَدَحْنَا الثِّقَةَ بِالنَّفْسِ فَإِنَّا لَا نَمْدَحُ الْإِفْرَاطَ فِيهَا ؛ لِأَنَّهُ قَدْ
يَكُونُ عَلَامَةً عَلَى الضَّعْفِ لَا عَلَى الْقُوَّةِ ، كَمَا لَا نَمْدَحُ ضَعْفَ الثِّقَةِ ؛
فَإِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ الشَّخْصِيَّةِ .

قَالَ « چوستاف لوبون » : « مَنْ وَثِقَ بِنَفْسِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى
مَدْحِ النَّاسِ إِيَّاهُ . وَمَنْ طَلَبَ الثَّنَاءَ فَقَدْ دَلَّ عَلَى ارْتِيَابِهِ فِي
قِيَمَةِ نَفْسِهِ » .

الفصل الثاني عشر

١١ - اعتدال المزاج

من العناصر الهامة المؤثرة في الشخصية : المزاج . وقد تكلمنا عنه بالتفصيل في الجزء الثالث من كتابنا « في علم النفس » .
فارجع إليه إن شئت .

وقد اختلف العلماء في تعريف المزاج ؛ فكذلك ليرى أنه مجموعة الآثار التي تحدثها في الحياة العقلية التغيرات الغذائية والكيميائية التي تحدث باستمرار في جميع أنسجة الجسم . و (شاند) يقول إن المزاج هو الشخصية الفطرية الطبيعية . و (مكن وولتون) يريان أنه هو نتيجة امتزاج العناصر المكونة للطبيعة البشرية بنسبة خاصة . وكل ما نريد أن نقوله هنا بالإيجاز هو أن الناس يختلفون في أمزجتهم ، كما يختلفون في شخصياتهم ؛ فهذا متفائل ، وذاك متشائم . وهذا سريع التأثر ، وذلك بليد لا يكاد يتأثر . وهذا كثير التردد ، وذلك كثير الإقدام . كل له مزاج خاص وسلوك يختلف باختلاف ذلك المزاج .

ولكن ما السببُ في اختلافِ هذه الأمزجة ؟ وللإجابة عن هذا السؤالِ يجب أن نذكر رأيَ العلماء قديماً ، والعلماء حديثاً ؛ حتى تتضحَ لنا الأسبابُ التي من أجلها اختلفت الأمزجة ، فنقول :

إن العلماء قديماً حاولوا تقسيم الأمزجة إلى أربعة أقسام : دَمَوِيٌّ ، وصفراوِيٌّ ، وَبَلْغَمِيٌّ ، وَسَوْدَاوِيٌّ ، وَبَنَوْا هذا التقسيمَ على السوائل والإفرازاتِ الجسمية^(١) ؛ فالشخصُ الاجتماعيُّ المتفائلُ ، الواثقُ بنفسه ، الغيورُ على عمله ، الصافي الذهن ، الحادُّ الذَّاكِرَة ، كانوا يعدونه كثير الدَّمِ ، وبعبارة أخرى دَمَوِيٌّ المِزاج^(٢) .

والشخصُ العنيدُ ، السريعُ الانفعالِ ، القويُّ الإرادة ، كانوا يقولون إن لديه كمِّيَّة زائدةً من الصفراء أو المِرَّة ، ويدَّعونه صفراوِيٌّ المِزاج^(٣) .

والشخصُ الهادئُ الذي يغلبُ عليه الكسلُ ، وتلوخُ عليه البلادةُ ، الذي لا يُبالِي ولا يكثرُ كثيراً ، ولا يتأثرُ بسهولة ، كانوا يَظُنُّون أن عنده مقداراً من البلغم ، ويُسمُّونه بلغميًّا^(٤) .

أما الشخصُ الذي تنقأه الأُحزانُ ، وتلعبُ به الوسواسُ ،
وتتقاسمه الهمومُ والمخاوفُ من غيرِ سببٍ ، ولأقلِّ سببٍ — فكانوا
يُخَالَوْنَ أن لديه زيادةً في المِرَّةِ السوداء أو الطَّحَالِ ، ويَعْدُوْنَ
سَوْدَاوِيًّا^(١).

وقد زاد بعضهم مِزَاجًا خامسًا وهو المِزَاجُ العَصَبِيُّ الناشئُ عن
وَفَرَةِ السَّائِلِ العَصَبِيِّ^(٢).

أما المُحَدِّثُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَيَرَوْنَ أن هذا التعليلَ لا قيمةَ له من
الوجهةِ العلمية ؛ لأنه مبنيٌّ على الجهلِ بعلمِ وظائفِ الأعضاء ، وعلى
نقصٍ في المباحثِ العلمية قديمًا . وهم وإن أنكروا هذا التعليلَ في
اختلافِ الأُمزجة ، لا ينكرون اختلافَها ، ويُسلِّمون بتعدد أنواعها ،
ويعتقدون أن هناك أسبابًا أخرى لاختلافِ الأُمزجة كالوراثةِ ،
والمناخِ ، والبيئةِ ، والغذاءِ ، والمرضِ ، وضعفِ الأعصابِ ، كما يعتقدون
أن إفرازاتِ الغُدِّ لها أثرٌ كبيرٌ في اختلافِ الأُمزجة ؛ فمِزَاجُ
الشخصِ يختلف باختلافِ قوةِ إفرازِ الغُدِّ أو ضعفه . فلهذه

الإفرازات تأثيرٌ كبيرٌ في الجسم والعقل ، وعن الأمور السابقة ينشأ الاختلافُ في الأمزجة .

فالمزاجُ في رأى المحدثين يتأثر بالمواد الكيميائية وإفرازات الغدد المختلفة التي يحملها الدم إلى المخ والعضلات ، لا بوفرة الدم ، أو الصفراء أو البلغم ، أو السوداء كما يقول القدامى من العلماء . ومن هذه الغدد :

١ — الغدتان الخاصتان بالكليتين^(١) . ولهما صلةٌ بالانفعالات والعواطف ؛ فإذا كان إفرازهما قوياً كان الشخصُ سهلَ التأثر ، سريعَ الغضب . وإذا كان إفرازهما ضعيفاً كان حليماً بطيء التأثر ، قليل الغضب .

٢ — والغدة النكفية وهي غدةٌ صغيرةٌ أسفل العنق ، ولها صلةٌ بالذكاء ؛ فإذا كانت قوية الإفراز كان الشخصُ ذكياً ، وبالعكس . ويرى (مكندوجل) — وهو حجةٌ في علم النفس — أن الضعف العقلي ينشأ عن قلة إفراز الغدة النكفية أو عن عدم وجودها .

٣ — وغدة تفاحة آدم ولها صلةٌ بنشاط الشخص ومشاربته على العمل . وبالتجربة رأى بعضُ الأطباء وعلماء وظائف الأعضاء أن للغدة تأثيراً قوياً في الإنسان . وقالوا — ونرجو أن تُثبت التجارب قولهم — إن بالعمليات الجراحية يمكنُ تنظيمُ إفرازِ غُدَّتَي السكيتين ، وتغييرُ سلوكِ الشخص وطباعه .

وإذا ثبت أن للغدة تأثيراً كبيراً في ذكاء الشخص ومزاجه ، وجبَ التفكيرُ في معالجة الضعف العقليّ وحِدَّة الطبع من الوجهتين : الطَّبيَّة والنفسية معاً . ومجملُ القول أن الشخصية القوية يجب أن تتحققَ فيها العناصرُ الآتية : —

- (١) الجاذبية .
- (٢) النشاطُ العقليُّ أو الذكاء .
- (٣) المشاركة الوجدانية .
- (٤) الشجاعة .
- (٥) الحكمة .
- (٦) التفاؤل .
- (٧) الاعتدال وعدمُ التظاهر .
- (٨) حُسن مَظهر الإنسان وقوامه .
- (٩) قُوَّة البيان .
- (١٠) الثقة بالنفس والاعتمادُ عليها .
- (١١) اعتدالُ المزاج .

الفصل الثالث عشر

أنواع الشخصية

الشخصية نوعان : عملية ، وفكرية ، ولنتكلم عن كُلِّ منهما بالتفصيل فنقول :

(١) الشخصية العملية

كثيراً ما يُسأل الإنسان : أيهما أفضل : الأمور النظرية أم العملية ؟ وبعبارة أخرى أيهما أفضل : الأفكار أم الأعمال ؟ وجوابنا عن ذلك أننا لا نستطيع التفضيل أو التفرقة بين النظريات والعمليات ؛ فنحن في حاجة إليهما معاً ، وكلاهما متوقف على الآخر ، ومُكَمِّلٌ له ، لا ضِدُّه وتقيضه كما يظنُّ بعضُ السائلين ؛ فالأفكار أمهاتُ الأعمال ، ومن الممكن اجتماعهما في شيء واحد .

وكما أن للأمور ناحيتين : إحداها نظرية ، والأخرى عملية ، فللشخصية كذلك ناحيتان : نظرية ، وعملية ؛ فالرجل مثلاً قد يكون موضع الإعجاب ؛ لأفكاره أو لأعماله ، ولو أن الأعمال في النهاية

نتيجة للأفكار. ومع ذلك فقد تغلب على الإنسان إحدى الناحيتين:
النظرية أو العملية، تبعاً للميل والعادة؛ فهذا قد يميل إلى الجهة
العملية، وذلك قد يميل إلى الناحية الخيالية، فتتم في بطريقتة التعود
هذه الناحية أو تلك.

ولا شك أن الشخصية العملية التي تظهر بالعمل والتنفيذ
أكثر أثراً وظهوراً في الحياة العملية من الشخصية الخيالية البعيدة
عن هذه الحياة. والأولى كمثال يقوم بتمثيل دوره عملياً على المسرح
أمام الناس، والثانية كمن يقوم بتمثيل دوره في الخفاء أو وراء الستار،
بعيداً عن الأنظار. فائراً الأولى أكثر وضوحاً وظهوراً من أثر الثانية.

وتتمثل هذه الشخصية العملية في المصلحين وقادة العمل
والمستكشفين الذين نرى آثارهم في أعمالهم التي قاموا بتحقيقها
وتنفيذها خدمة للإنسانية. وتتمثل الثانية في الشعراء والفلاسفة
الخياليين الذين يقومون بتصوير الأشياء ووصفها؛ فيغوصون تارة
في بحار الحقيقة، ويسبحون طوراً في عالم الخيال، ولا ينكر فضلهم
أحد، ولكن أثرهم في هذا العالم المادى أقل ظهوراً؛ ففي اليوم الذي
(١٠)

أجتاز فيه بليزيوت (Bleriot) القناة الإنكليزية بطائرته كانت الأفكار كلها، وأحاديث الفخر والإعجاب موجهة إليه، لا إلى العالم الذي فكّر فيها عدة سنوات حتى اخترعها.

وإننا لا نقصد بذلك أن نقلل من قيمة العلماء والمفكرين أو قادة الفكر، ولكننا نقصد الاعتراف بأن تأثير رجال الأعمال أظهر من تأثير رجال الفكر، وأننا نتأثر بالأعمال النبيلة أكثر من تأثرنا بالأفكار مهما تكن سديدة. ولا ننكر أن الفكر والوجدان يتهيآن بالعمل.

ومنذ زمن ليس بالبعيد كانت التربية تفكر في العلم أكثر من العمل؛ فكان الإنسان إذا أُخْبِر سُئِلَ عن «مقدار ما يعرفه»، أما اليوم فقد تبدلت الحال، وانعكس الأمر فأصبحت التربية تُعنى كل العناية بالعمل والأعمال، وصارت الأسئلة: «ماذا فعل الإنسان؟ وماذا يستطيع أن يفعل؟ وما مقدار ما يفعل؟».

ولم تكن الجامعات فيما مضى تُعنى بالجانب العملي من الحياة، ولم تكن لتعمل على تربية رجال ليعملوا، بل كانت عنايتها موجهة إلى تكوين رجالٍ مُثقفين حُبًّا للثقافة، معلمين حُبًّا للعلم؛ ليكونوا

كزينة لها أينما وجدوا في الأسرة أو في المجمع الديني، أو في المجمع الأدبي. وكان الرجل الجامعي المثقف لا ينتظر منه أن يعمل شيئاً بيده؛ فكان كأداة من أدوات الزينة. وكان المجتمع يزدريه ويحتقره إذا حاول أن يعمل عملاً يدوياً؛ أما الأعمال اليدوية، وأما الصناعات فكانت خاصة بالطبقة الفقيرة التي تدعى الطبقة العاملة. وكان يُظن خطأً أن هذه الطبقة خلقت لتعمل، أما الطبقة الأخرى فخلقت لتفكر.

وقد انقضت — والله الحمد — تلك الأيام، وذهب ذلك العهد، وصارت الفكرة السائدة أن التفكير غير مقصور على طبقة من الطبقات، وأن العمل لا يختص به طائفة دون أخرى، وصار التعليم عاماً بين الفقراء والأغنياء على السواء، لا يمتاز به هؤلاء من أولئك، وجعل وسيلة لإعداد الجميع للقيام بواجبهم العلمي والعملي والأدبي في الحياة. وأصبحت الفرصة — فرصة العمل — سانحة أمام الجميع من غير ما تفريق؛ فالعلم الآن في هذا العالم المادي لا يصلح في نظر الماديين — وما أكثرهم — لأن يكون غايةً مستقلة، بل يجب أن يكون وسيلة للعمل.

ولسنا في شكٍ مطلقاً من أن العلم قوةٌ ، لا ، بل أكبرُ قوةٍ في يد الإنسان . وهو قوةُ اليوم كما كان قوةً بالأمس ، وسيكونُ قوةً إلى الأبد ، ولكننا في حاجةٍ إلى العلم الذي يؤدي إلى العمل ، العلم الذي يمكن تنفيذه والانتفاع به عملياً بتحويله إلى عملٍ ؛ فالعلم بلا عمل لا خير فيه ؛ مثله مثلُ شجرةٍ بغير ثمر .

هذا هو المقياسُ الذي يقاسُ به العلم ، ويُحكمُ به على العلوم اليوم . ولا عجب ؛ فبعد أن كان العلمُ يُطلبُ للعلم ؛ حباً للعلم ذاته ، أصبحنا لا نفكرُ إلا في الماديات ؛ نسأل عن مقدار ما يمكنُ أن يُستفادَ به عملياً في الحياة من تعلم هذا العلم ، أو هذه المادة ، وأصبحت العلومُ التي لا تؤدي إلى أكل الخبز ، أو الخبز والزبد ، يُنظرُ إليها نظرة تشككٍ في الإقبال عليها . ويكثر الإقبالُ على العلم أو المهنة بقدر ما يمكنُ أن تُدرّه من المال في أقصر وقت .

هذا هو مقياسُ الإقبال على العلم الآن ، وهذا هو الرأيُ السائدُ بين الأَكثَرِ من المربين والمتعلمين في الأمم المتمدّنة . فالعالمُ أصبح تجارياً ، والعلمُ كذلك أصبح يُنظرُ إليه بنسبة ما يستطيع صاحبه أن يكتسبه بوساطته من وظيفة أو ثروة أو مركز أو نفوذ .

ويكاد هذا العصر المادى يَقْضَى — أو هو قد قَضَى بالفعل —
على العالمِ الروحىِّ وعلى تعلُّمِ العلمِ حبًّا للعلم ، والاشتغالِ بالفنِّ
حبًّا للفن . وإننا لا نكره ولا ننادى بكرهِ المادة أو احتقارِها ،
ولكن يؤلِّمنا أن تُسيطرَ المادةُ على كلِّ شيء ، حتى على أفكارنا
وتعليمنا . ولا ننكرُ أن النجاحَ فى الحياةِ هو غايةُ الحياةِ وهو الفوز .
وحبِّذا الأمرُ لو أمكننا أن نتجَحَ النجاحَ المادىِّ مع المحافظةِ على
الروحِ العاميةِ الخالصةِ ، فنجمع بين عالمِ المادةِ وعالمِ الروحِ .

فالحياةُ اليومَ نزاعٌ بين القديمِ والجديدِ ، بين عالمِ الروحِ وعالمِ
المادة ، وهو نزاعٌ لا نهايةَ له ، ولكنه ليس نزاعاً عِدائياً ، بل هو
نزاعٌ وُدِّىٌّ تكميلىٌّ . لا غرضَ منه سوى النجاحَ فى الحياةِ . ولكنْ
ما النجاحُ الذى نَبْغِيهِ ؟ وما الرقىُّ الذى نريدُ الوصولَ إليه ؟ هو نجاح
الشعبِ ورقِيَّهٌ روحياً ومادياً ، قوَّةٌ ونفوذاً ، علماً وعملاً ، مبدأً
وإنسانيةً .

ولكن هل يمكنُ الجمعُ بين الروحِ والمادةِ فى آنٍ واحدٍ ؟
ولم لا ؟ إن الإنسانَ يستطيعُ أن يكونَ روحياً إلى حدِّ ما ، ومادياً
إلى حدِّ ما ، بحيثُ لا تتغلبُ الروحُ على المادةِ ، ولا تُسيطرُ المادةُ

على الروح ؛ فيأخذُ من كل منهما نصيبه ، ولا يُعنى بناحية ويهملُ الأخرى .

قال جَلَّ شأنُه : « وابتغ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ، ولا تنسَ نصيبَكَ من الدنيا . » وقال صلى الله عليه وسلم : « اعمل لدنياك كأنك تعيشُ أبداً ، واعمَلْ لآخرتك كأنك تموتُ غداً » وقال : « ليس خيرُكم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكنَّ خيرُكم من أخذَ من هذه وهذه . »

والنجاحُ هو الفوزُ بعدَ الجِدِّ والتعبِ ؛ التعبُ الجسميُّ والعقليُّ ، سواء أكان ذلك النجاحُ في التأليف ، أم في نسج القطن وغزله ، أم في بيعه وشرائه ، أم في صُنع السياراتِ أو الطائراتِ ، أم في كتابة الروايات ... الخ .

ومن الضرورياتِ الأساسيةِ للشخصيةِ العمليةِ العلمُ بالشئ الذي تُريد القيامَ به ، والرغبة في النجاح فيه . ولا فائدة من العلم والرغبة إذا لم يُصحبها بقوة تنفيذية ، معنوية أو حِسِّية ، داخلية أو خارجية ، تعمل على التنفيذ .

فكما أن السيارة لا تستطيع السير إلا إذا كانت مُعدَّة للسير تمام
 الإعداد، وكان بها المقدارُ الضروريُّ من زيتها، وكان الطريق
 مُعبَّدًا صالحًا لسير السيارات، كذلك الإنسان لا يمكنه أن يقوم بعملٍ
 عظيم إلا إذا كان هناك علمٌ به، ورغبةٌ فيه، وذكاؤه وحُسنُ تقدير.
 لكن المتَّصفين بهذه الصِّفات فقدوا صفةً واحدةً من أهمِّ الصفاتِ
 الضرورية للنجاح، تلك هي قوة العزيمة والتنفيذ، فلم ينجحوا في
 أعمالهم؛ لأنهم يميلون إلى كثرة النقد والتحليل، والتشكك في كلِّ
 شيء حتى في أنفسهم، فيمنعهم ذلك الشكُّ من رؤية فائدة الشيء،
 فيترددون في الإقدام، ويرجعون إلى الوراء، فتضيعُ منهم فرصةُ
 النجاح. والفرصةُ — إذا أتت مرةً — ربما لا تعود مرةً أخرى.
 فالعزيمة الصادقة تُعدُّ سرًّا عظيمًا من أسرار الشخصية العملية، والنَّجاح
 في العمل والحياة.

الفصل الرابع عشر

وسائلُ تقويةِ الشخصيةِ العمليةِ

هناك وسائلُ لتقوية هذا النوع من الشخصية نذكر منها ما يأتي :

(١) تحديد الغرض ومعرفة الطريق الموصل :

إن تحديد الغرض في أيِّ عملٍ من الأعمال مع معرفة السبيل الموصل إلى ذلك الغرض من أهمِّ الوسائل المشجعة للإنسان على الاجتهاد في العمل ، والسير فيه إلى النهاية من غير تردد ، وخاصة إذا صحب العمل إرادة قوية ، وثقة به .

فمعرفة الغرض لها أثر كبير في نفوسنا ، سواء أكان ذلك الغرض عادياً أم عظيماً . وإن نظرة واحدة إلى العالم تبين لنا أن لكلِّ إنسان غرضاً يسعى ليدركه ، مهما تختلف هذه الأغراض ، ولكن المهم أن يكون الغرض محدداً سامياً .

كلُّ له غرضٌ يسعى ليدركه * والحرث يجعل إدراك العلاء غرضاً فالصياد يقف على شاطئ البحر وعصاه في يده ، ينتظر بصبرٍ

كبير، وملاحظة دائمة؛ أملاً في أخطياد السمك، وما فيه من لذة، وإرضاء للنفس. وسائقُ السيارةِ يَسِيرُ في طريقه وإن لاقى فيه من مطرٍ أو ثلجٍ أو ضبابٍ أو غبارٍ، رغبةً في الوصولِ إلى مكانٍ معينٍ. ورُبَّانُ الماخرةِ العظيمة، في البحرِ الخضمِّ، يقود ماخِرَتَه في خطٍّ مُعين نحو ميناءٍ أو موانٍ معيَّنة، في جهاتٍ خاصة. وهنا يتمثلُ تحديدُ الغرضِ، ومعرفةُ الطريقِ الصالحِ، والاستيثاقُ منه، والثقةُ به، والصبرُ والمثابرةُ؛ للوصولِ إلى الغرضِ إن لم تحدثْ حوادثٌ أو عوائقٌ غيرُ مُتَظَرَّة. وإذا تمثلتْ هذه الأحوالُ العقليةُ في الشخصيةِ الإنسانيةِ كانت من أعظمِ القُوَى العمليةِ في العالمِ.

فينبغي أن يكونَ للشخصِ غرضٌ معيَّن من العملِ يَسْعَى لإدراكه وتحقيقه بِكُلِّ ما أُوتِيَ من عزيمةٍ، وقوةٍ، ومثابرةٍ، وثقةٍ بالنفسِ، حتى ينتفعَ بقواه العقليةِ، ويقومَ بواجبه في الحياةِ العمليةِ.

قال (وردِسْورث) ^(١) شاعرُ الطبيعةِ من الإنكليزِ عن الأفراد الذين يسرون في الحياةِ نحوَ أغراضٍ معينة: «إن أجتهدهم ناشئٌ عن

(١) William Wordsworth (١٧٧٠ — ١٨٥٠ م) شاعر إنكليزي

يتمثل في شعره الإجابة في وصف الطبيعة وحب الإنسانية.

وازِعَ نفسِي ، يُنِيرُ الطريقَ أمامهم دائماً ، فيقدرون جمالَ الطبيعة ،
ويعملون بما يعلمون ، ويشارون على التعلم .

وبعد الوصولِ إلى الغرضِ الأوَّلِ أو المرحلةِ الأولى من الحياة ،
يمكن التفكيرُ في مرحلةٍ أخرى وتحديدُها ، والعملُ للوصولِ إليها ،
وهكذا إلى نهاية الحياة .

قال عمرُ بنُ عبدِ العزيز : « إنَّ لي نفساً تواقَّةً ، لم تنلْ تَتَوَقُّ^(١) إلى
الإِمَارَةِ ، فلما نلَّتها تاقَتْ إلى الخِلافةِ ، فلما نلَّتها تاقَتْ إلى الجنَّةِ » .
وقيل : « ذوالهمةٍ إن حُطَّ فنفسه تَأبَى إلَّا علوًّا ، كالشعلة من النار
يوجهها صاحبُها ، وتَأبَى إلَّا ارتفاعاً » .

(٢) الرغبة في العمل :

بعد تحديدِ الغرضِ من العمل يجب أن تكونَ هناك رغبةٌ فيه ،
وميلٌ إليه ؛ لأنَّ الرغبةَ .

١ — ترفعُ من شأنِ العملِ الذي تقوم به .

ب — وتؤدِّي إلى الإقدامِ والنشاطِ (وهما القوةُ الطَّبيعيةُ

(١) تاقَتْ نفسه إلى الشيء : اشتاقت إليه .

للشخصية) ، وتكون كوازعٍ نفسيٍّ أو باعثٍ داخليٍّ ، يستنهضُ همتنا ، ويستحثُّنا على العناية بالعمل .

ج — وتمددنا بالقوة التنفيذية ، والإرادة الحقة الضرورية للوصول إلى أغراضنا . فالرغبة هي الدافع الطبيعيُّ للإنسان على العمل ، وإن لاقى في سبيل ذلك العمل كثيراً من المصاعب والمتاعب .

فالرغبة الحقة هي تلك القوة الروحية التي توحى إلى العقل القيام بالشيء بقوة لا تعرف الكلال ، ولا تقف دونها أيُّ عقبة . فإذا وجدت الرغبة ثم وجدت الإرادة ، سهّل الطريقُ مهما يكن شاقاً . والحاجة تفنقُ الحيلة .

فإذا رغبت في معرفة صناعة غزل القطن ونسجه كان الذهابُ إلى معمل الغزل والنسيج أحبَّ الأشياءِ إليك ، وأخذتَ تشعر بأنه يجب أن تعرف كلَّ شيءٍ يتعلق بالقطن ، وأين يُزرع ، وكيف يُزرع ، وكيف تُنقى الآفات السماوية ، وما الأحوال الجوية التي يتطلبها وكيف يُجنى ، وكيف يوضع في الأكياس ، وكيف يخزن ، وكيف يُرسَل إلى السفن ، وكيف يُخلَج ، وكيف يُغزل ، وكيف يُنسج ؟ وإن رغبة (أبراهام لنكولن) في تحرير العبيد يوم أن ذهب مع

بعض العمال إلى الشوق ، فوجد جاريةً تُباع وتُشترى ، فتألم لبيع
الإنسانية وشرائها الألم كله ، فتمنى أن لو أُعطِيَ سُلْطَةً كي يضرب
على الاسترقاق بيد من حديد. فأعطِيَ السُلْطَةَ بعد زهاء ثلاثين عاماً
بانتخابه رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة بأمريكا — تلك الرغبة جعلت
من أوائل أعماله العمل على تحرير العبيد . وقد أدَّى ذلك إلى حربٍ
داخلية ، ولكنَّ النصرَ كان أخيراً في جانب (لينكولن) . وبذلك
يُعدُّ محرراً للعبيد ، مُدافعاً عن الإنسانية المظلومة .

وإن الرغبة في الإصلاح الاجتماعي هي التي جعلت (شارلز
دكنز)^(١) أكبر كاتب ، وأعظم مُصلِح اجتماعيٍّ بالإنجلترا في القرن
التاسع عشر .

وإن الرغبة في شراء أسهم قناة السويس بعد التحقق من فائدها
هي التي خلدت ذكرى (دزرائيلي) بين الإنكليز ، وجعلته يعمل بكلِّ
ما أوتي من قوةٍ على تنفيذ الشراء ، مع شدةٍ ما لقي من معارضةٍ في
مجلس الأمة ، ومن معارضةٍ مُديرٍ مَصْرِفِ إنجلترا .

(١) (Charles Dickens) ولد سنة ١٨١٢ م . وتوفي سنة ١٨٧٠ م . وله منزلة
كبيرة في عالم الأدب الإنكليزي ، ومعظم رواياته حول الفقراء وبؤسهم ، وحول الإصلاح
الاجتماعي . وتدين إنجلترا له بكثير مما فيها اليوم من مدنية وإصلاح . ارجع إلى ما كتبناه
عنه في كتابنا « أروع القصص » لشارلز دكنز بمكتبة المعارف بالقاهرة .

وإن الرغبة في الأعمال (الميكانيكية) هي التي قادت (إديسون Edison) إلى أن يكونَ أكبرَ مخترِع (ميكانيكي) في القرن العشرين .

وقد بدأ « توماس إديسون » ^(١) حياته بائعَ صُحُفٍ ، ثم تعلمَ طريقَ إرسالِ الإشاراتِ البرقيَّةِ وتسليمها . وهو مخترِعُ المصباحِ الكهربائي الذي نستضيءُ بنوره . قيل إنه أنفق نحوَ عشرين ألفَ « جنيه » في التجاربِ التي عملها لاختراعِ هذا المصباحِ ، وكادت تضعُ تجارتُه بغيرِ ثمرةٍ لولا دأبُه وجلده وقوةُ إرادته وعزيمته .

وقيل إنه بقيَ مرَّةً في معمله أربعةَ أيامٍ بلياليها لا ينامُ ولا يستريحُ إلا قليلاً يتابعُ تجاربه ، ويُرَاقِبُ نتائجها ، ويقول : « الفوزُ أو الموتُ » . وقد قدَّرَ له الفوزُ ، وتمَّ له اختراعُ هذا المصباحِ ، فكسبَ الشهرةَ والمجدَ . وقد أفادَ العالمَ بكثيرٍ من المخترعاتِ غيرِ هذا المصباحِ . والحاكي الذي نتسلى به هو واحدٌ من مخترعاته .

وسيرةُ « إديسون » تشهدُ بفضلِ الدَّابِ ، وصدقِ العزمِ ، وتنطقُ بما يُحقِّقه الجِدُّ من الخيرِ والمجدِ للأمةِ والفردِ .
والأمثلةُ كثيرةٌ لا حصرَ لها .

(١) انظر كتابنا المطالعة العربية « القسم القصصى » ج ٢ . للسنة الرابعة الابتدائية
مكتبة المعارف .

فبغير الرغبة لا يستطيع الإنسان أن يقوم بعملٍ عظيمٍ في الحياة . فإذا أردت القيام بعمل من الأعمال سواء كان ذلك العمل دينياً أم اجتماعياً ، أدبياً أم علمياً ، فنياً أم حربياً . فأوجد الرغبة الصادقة وهي كفيلة بالتنفيذ والنجاح في ذلك العمل ، ما دامت تلك الرغبة مصحوبة بالإرادة القويّة ، والعزيمة الثابتة .

والرغبة نوعان : مباشرة ، وغير مباشرة : فالمؤلف الذي يؤلف كتاباً ، أو يكتب مقالةً لصحيفة يومية يجب أن يكون تأليفه وكتابته عن رغبة حقيقية إذا أراد أن يكون لعمله قيمة علمية أو أدبية . فالرغبة في العمل هي الشرط الأساسي للتقدم والفوز في هذا العمل . ولكن هل الرغبة وحدها تكفي للنجاح ؟ الحق أنها ربما لا تكفي ، بل ينبغي أن يكون هناك بعض التشجيع الأدبي أو المادي ؛ لأن المؤلف أو الكاتب ربما لا يكتب حباً للكتابة فحسب ، بل قد يكتب ليعيش ، أو ليحصل على ضروريات الحياة أو كمالياتها ، فهو ينتظر تشجيعاً ، ويجب أن يُشجّع بقدر عمله ، وإعطائه ما يستحق . وبجانب التشجيع يجب أن يتحقق فيمن يريد النجاح — الاستعداد للعمل ، ثم القدرة عليه .

وحينما توجد الرغبة المباشرة الطَّبِيعِيَّةُ في العمل ، ثم تُصَحَّبُ بِرغبة أخرى غير مُباشرة كَالرَّيحِ المَادِيَّ أو المَرْكَزِ الأدَبِيِّ ، فَإِنَّ النِّشَاطَ يتضاعف ، والاجتهاد يستمر ، والعمل يزداد حسناً ، ودواعي النجاح تكون أقوى وأشد ؛ لأنَّ الرغبة متوافرة من كلتا الناحيتين : المباشرة وغير المباشرة .

أما المثل الأعلى ففي أَنَّ نعمل حباً للعمل ، ونؤدى الواجبَ رغبةً في أداء الواجب ، ونقوم بالشئ من غير أن ننتظر جزاء ولا شكوراً . ولكن من حيث إن الإنسان إنسان فهو يفكر دائماً في النتيجة ، وفيما يعود عليه من المنفعة والمكافأة على العمل . وهذه المكافأة نوع من التقدير يشجعه على العمل ، ويدفعه إلى أدائه كما ينبغي وكما يجب أن يكون . وكلما كانت المكافأة قيمةً زادت الرغبة فيها ، وكثر التلهف عليها ، والعمل للوصول إليها . ومعظم الأعمال التي نقوم بها يومياً من قبيل الأعمال التي نُؤَجَّرُ عليها . ويجب أن نُصرِّح بأنه لولا الأجورُ والمرتباتُ التي يتقاضاها العمال والموظفون ما قام أحدٌ منهم بعمل .

ولا تكفي الرغبة غير المباشرة — كالرغبة في الأجر — للنجاح في العمل ، والحصول على شخصية قوية في ذلك العمل بالظهور والتبريز فيه ، بل لا بد أن تصحب برغبة طبيعية ، وميل حقيقي إلى العمل نفسه ، وإلا كان مكروهاً لدى النفس ، تُبغضه وتنتظر بفارغ الصبر التخلص منه ، كالعامل الذي لا يجد لذة في عمله ، فيترقب انتهاء اليوم ومجيء موعد الانصراف بكل ملل . ونحن لا نبغي ذلك النوع من العمل الممقوت ، بل نبغي عملاً مصحوباً بلذة ورغبة وسرور ؛ كي نتجح فيه ونُجيده ، ونجد شوقاً إلى العودة إليه ، ونُظهر فيه فوقاً ومهارة . ومن الصعب أن ننبغ في عمل يكون غير محبوب لدينا .

(٣) الشعور بالواجب : : The sense of duty

من الوسائل التي تساعد على التنفيذ ، وعلى تقوية الشخصية العملية تلك الصفة الحية وهي الشعور بالواجب ، وإجابة نداء الضمير ؛ فالإنسان حينما يشعر بوازع نفسه بأنه يجب عليه أن يفعل كذا ، أو بأنه يجب عليه ألا يفعل كذا ، فإن هذا الشعور وحده يرمي إلى

مَغْزَى خُلُقٍ ، وَيَسْتَدْعِي نَشَاطًا عَقْلِيًّا لِفِعْلِ الشَّيْءِ أَوْ مُحَارَبَتِهِ ؛ فَهُوَ
بِمَثَابَةِ مُؤَثِّرٍ دَاخِلِيٍّ يُؤَثِّرُ فِيهِ تَأْثِيرًا قَوِيًّا ، وَإِنْ إِجَابَةُ هَذَا الْمُؤَثِّرِ
أَوْ الْبَاعِثِ النَّفْسِيِّ خَيْرٌ كَفِيلٌ لَاسْتِنَاضِ الْهِمَّةِ ، وَمُضَاعَفَةِ الْعَزِيمَةِ .

قَالَ (إِمْرَسُون) ^(١) : « إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اسْتَحْتَمَّهُ الْوَاجِبُ عَلَى
أَنْ يَقُومَ بِعَمَلٍ مَا ، قَامَ بِهِ . » وَلَيْسَ الشُّعُورُ بِالْوَاجِبِ ، أَوْ إِجَابَةُ
الضَّمِيرِ أَوْ الصَّوْتِ الدَّاخِلِيِّ مَقْصُورًا عَلَى طَبَقَةٍ دُونَ أُخْرَى ، وَلَا عَلَى
جِيلٍ مِنَ الْأَجْيَالِ ، وَلَا سِنٍ مِنَ الْأَسْنَانِ .

وَإِذَا تَذَكَّرْنَا أَنَّ الشُّعُورَ بِالْوَاجِبِ يَتَضَمَّنُ التَّهْذِيبَ ^(٢) النَّفْسِيَّ ،
وَضَبْطَ النَّفْسِ ^(٣) — أَمْكَنَّا أَنْ نَدْرِكَ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ الشَّخْصِيَّةِ
وَالشُّعُورِ بِالْوَاجِبِ وَإِجَابَةِ الدَّاعِي النَّفْسِيِّ ؛ فَفِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ
الْحَيَاةِ نَجِدُ أَنَّ هَدْوَهُ الْبَالِ أَوْ رَاحَةَ الضَّمِيرِ وَالْإِطْمِئْنَانِ ، ثَمَرَةٌ مِنْ
ثَمَرَاتِ الطَّاعَةِ ، وَمِرَاعَاةِ الْقَوَانِينِ الْعَامِيَةِ وَالْفَنِيَّةِ . فَأَثَارُ بَذَرٍ وَسَكَى
و (كَرْزَلَر) مِنَ الْمَوْسِيقِيِّينَ الْمَعَاصِرِينَ ، وَ (تَنْسُون) ^(٤) ،

(١) Emerson : (١٨٠٣ — ١٨٨٢ م .) مِنْ أَكْبَرِ الْكُتَابِ الْأَمْرِيكِيِّينَ
الَّذِي لَهُمْ أَثَرٌ وَاضِحٌ فِي الْأَدَبِ الْأَمْرِيكِيِّ . وَلَهُ مَوْضُوعَاتٌ قِيَمَةٌ ، وَمَقَالَاتٌ ثَمِينَةٌ مَطْبُوعَةٌ ،

فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْهَامَةِ . (٢) Self-discipline .

(٣) Self-control . (٤) Tennyson (١٨٠٩ — ١٨٩٢ م .) .

و (وَرْدِسُورْت) من شعراء الإنكليز في القرن التاسع عشر ،
 وروحهم وجاذبيتهم نستطيع أن نشعر بها ونلاحظها في جمال
 الموسيقى ، وروعة الشعر ، وتأثير الفن ، وملاءمة قوانين العاطفة في
 الموسيقى والشعر ، والقوانين الفنية والتهدئية . وبالشعور ، والجِدِّ ،
 وإرضاء الضمير ، وسلامة التفكير قد اكتسب الفنون والأدباء
 مراكزهم الروحية في عالم الموسيقى والأدب ، وفي مملكة النبوغ
 والعبقرية .

وحينما نبحث في تاريخ العظماء والأدباء والفنيين نجد أن ذوى
 الشخصيات الخالدة في التاريخ كانوا من ذوى الضمائر الحية الحساسة
 الذين يُحيون نداء الضمير ، ويُصغون إلى نداء الله ، فيسيرون
 بهدّيه . كانوا يُحسّون الواجب فيقومون به ، ويعملون على تنفيذه .
 وكثيراً ما يكون الضمير والشعور بالواجب سبباً في إنقاذ الإنسان
 من صُروف الحياة ، ومن السقوط إلى الهاوية ، فلا يكون فريسةً
 للنفس الشريرة . فكل إنسانٍ تفتَح أمامه السبل المختلفة ، ولكن
 الروح الطاهرة لا تفكر إلا في الطرق الشريفة السامية ، أما الروح

الشريرة فلا تنظرُ إلا إلى الطرق الدنيئة ، وبين هذين الطريقتين :
المستقيم ، والمعوج ، تسير البقيةُ وهي الأكثرية .

وإن الشعورَ بالواجب ، وحبَّ الفضيلةِ والتمسك بالخير
تُكسِب الشخصَ قوةً وروعةً ووقاراً ، وتبعثُ في نفسه الحياةَ ،
وتقوِّده إلى الطريق السَّوَّى ، وتعوِّده الصبرَ والمثابرةَ ، وتقوِّى
الإرادةَ فيه ، وهى التربةُ الصالحةُ التى فيها تنبتُ وتثمرُ الشخصيةُ
القويَّةُ الغنية . قال المرحوم سعد زغلول باشا — وقد كان يمثل
العظمة الإنسانية ، والبطولة المصرية ، والمثل الأعلى للشخصية :

« إننى رجلٌ قد وَضَعْتُ تحت تصرفِ أُمَّتى عقلى وأختبارى
وَيَمانى ، فإن أُستفادت الأمةُ من عملى فذلك ما يجعلُنى سعيداً ،
وإلَّا فهو واجبٌ قد أَخَذْتُهُ على نَفْسِى ، فأنا أقومُ به لأريحَ ضميرى » .

(٤) قوة الوازع الدينى :

إننا فى البحثِ عن الشخصية الإنسانية لا يمكننا أن ننسى
الدينَ وأثره ، والوازعَ الدينى وقوته فى التأثيرِ فى حياة الإنسان .
فكثيراً ما يُواجهُ الإنسانُ بأزماتٍ وشدائدٍ لا قبلَ له بها ، ولولا

الثقة بالله والإيمانُ به لجزع وتملكهُ اليأسُ ، واستولت عليه
الهمومُ من كل جانب . ولكن الوازع الدينيُّ هو الذي ينتشله من
وهدة القنوط ، ويبعث الأملَ في نفسه ، ويُحييه من يأسه ،
ويُزيرُ الطريقَ أمامه بعد أن كان مُظلاماً ، ويَهديه بعد الضلال ،
ويُسليهِ عند الشدائد .

فالعنصرُ الوجدانيُّ قوًى في الدين ، يستحثُّ الشخصَ على أداء
الواجب ، وإرضاء الضمير ، والصبرِ والمثابرة — وكلها من الصفات
الهامة في الشخصية القوية — ويُوحي إليه فعل الخير ، واجتناب
الشر ، ويدعوه إلى الحركة والعمل في الحياة ، ويُرشِدُ عقله
ووجدانه ؛ فيعملُ العملَ وكلهُ أملٌ وثقةٌ بالله . يُوَدِّي واجِبَهُ وَيَتْرُكُ
النتيجةَ خالقه . لا يفكرُ في الماضي لأنه قد فات ، وينظرُ في
الحاضر ، ويتْرُكُ المستقبلَ لله يفعلُ ما يشاء . وبهذه الوسيلة يَهْدِي
باله ، ويطمئنُ خاطره ، ويكونُ سعيداً في الحياة .

قال تعالى : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » .
وقال صلى الله عليه وسلم : « لو تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ

لِرِزْقِكُمْ كما يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا^(١) ، وتَعُودُ بِطَانًا^(٢) . «
وقيل لراهب : مِنْ أَيْنَ تَأْكُلُ ؟ فَأَشَارَ إِلَى فِيهِ ، وَقَالَ : الَّذِي
خَلَقَ هَذِهِ الرَّحَى يَأْتِيهَا بِالطَّحِينَ .

وَمِنَ السَّهْلِ أَنْ تَعْتَمِدَ عَلَى الدِّينِيِّينَ ، الَّذِينَ يَتَّقُونَ بِاللَّهِ تَمَامَ
الثِّقَةِ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُونَ أَتْبَغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ . أَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي
لَا دِينَ لَهُ فَلَا ضَمِيرَ لَهُ ، وَلَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ أَوْ تَثِقَ بِهِ .

وَمُعْظَمُ الْمُصْلِحِينَ فِي الْعَالَمِ كَانَ الْوَازِعُ لَهُمْ فِي الْإِصْلَاحِ دِينِيًّا :
أَمْثَالُ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ . وَالْأُمَّةِ الْأَرْبَعَةِ ، وَالشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدَهُ مِنَ الْمَسَامِينِ ،
(وَهَلِيلِ)^(٣) ، وَالرَّبَّانِيَّ (عَقِيْبَةَ)^(٤) مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ ، وَمَارْتِنِ لُوثِرِ^(٥) ،
وَكَارْتَايِلِ^(٦) ، وَرَسْكَيْنِ^(٧) مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ . فَالَّذِي هُوَ الَّذِي أَمَدَّهُمْ

(١) خِمَاصًا : جِيَاعًا ، وَالْخِمَاصَةُ : الْمَجَاعَةُ . (٢) الْبَطْنَةُ : الْإِمْتِلَاءُ الشَّدِيدُ
مِنَ الطَّعَامِ . بَطَانًا : مَمْتَلَأَةٌ مِنَ الطَّعَامِ . (٣) هَلِيلُ : إِمَامٌ مِنْ أُمَّةِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ
كَإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ لَدَى الْمُسْلِمِينَ . (٤) عَقِيْبَةُ : أَحَدُ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ الْمُصْلِحِينَ ، كَانَ
يَتَّقُ بِاللَّهِ تَقَةً لَأَحَدِهَا . (٥) Martin Luther : (١٤٨٣ — ١٥٤٦ م) .
زَعِيمُ أَلْمَانِيٍّ ، وَمُصْلِحٌ دِينِيٌّ . (٦) Carlyle : (١٧٩٥ — ١٨٨١ م) :
كَاتِبٌ إِنْكَلِيزِيٌّ ، وَمُصْلِحٌ اجْتِمَاعِيٌّ ، وَفِيلَسُوفٌ وَمُؤَرِّخٌ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اعْتَرَفَ
مِنَ الْإِنْكَلِيزِيِّينَ لِسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبَطُولَةِ وَالْإِخْلَاصِ ، فِي كِتَابِهِ :
« الْأَبْطَالُ » . وَمِنْ أَحْسَنِ كُتُبِهِ : « الثَّوْرَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ » .

(٧) Ruskin : (١٨١٩ — ١٩٠٠ م) . كَاتِبٌ إِنْكَلِيزِيٌّ ، وَمُصْلِحٌ كَبِيرٌ ،
وَمُحْسِنٌ عَظِيمٌ ، مَحَبٌّ لِلطَّبِيعَةِ ، وَالْفَنِّ الْجَمِيلِ .

بشَروَةٍ في العقل ، وَقوَةٍ في الروح ، وَعَظَمَةٍ في الخَلْق ، فَأَثَرُوا في جِيلِهِمْ ، وَفي الأجيال التي أَتَتْ من بَعْدِهِمْ .

وَلَسْنَا اليومَ في حاجةٍ إلى رجالٍ يقومون بالواجب فَحَسَبُ ، وَلَكِنَّا في حاجةٍ إلى رجالٍ يَمَكِّنُهُمْ أَيْضًا أَنْ يَحْمِلُوا غَيْرَهُمْ عَلَى القيامِ بِهِ . قالَ أَحَدُ الفلاسِفَةِ : « كُنْ كما شَاءَ القَدْرُ أَنْ تَكُونَ : مَسِيحِيًّا أَوْ مُسْلِمًا أَوْ إِسْرَائِيلِيًّا أَوْ بُوذِيًّا ، وَلَكِنْ لَا تَنْسَ أَنْ لَكَ دِينًا تَنْزِعُ إِلَيْهِ ، وَعَقِيدَةً تَحْرِصُ عَلَيْهَا ، وَوَاجِبًا نَحْوَ اللَّهِ يَجِبُ أَدَاؤُهُ » .

الْخُصْرَةُ :

وَصَفْوَةُ القَوْلِ أَنَّنَا في الشَّخْصِيَّةِ العَمَلِيَّةِ نَحْتَاجُ إلى مَا يَأْتِي :

(١) أَنْ يَكُونَ لَنَا غَرَضٌ مُعَيَّنٌ في الحَيَاةِ ، نَعْمَلُ لِلوُصُولِ إِلَيْهِ ، بِحَيْثُ نَعْتَمِدُ عَلَى أَنْفُسِنَا ، وَلَا نَكُونُ صَدَى لِأَصْوَاتِ غَيْرِنَا ؛ نَكْرِّرُ مَا يَقُولُونَ ، وَنَفْعَلُ مَا يَفْعَلُونَ . وَلَا نَتَأَثَّرُ بِهِؤَلَاءِ المُرْتَدِّينَ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ لَهُمْ غَرَضًا في الحَيَاةِ ، وَلَا يَثْبُتُونَ عَلَى حَالٍ . وَلَا نَشْغَلُ أَنْفُسَنَا بِكَثِيرٍ مِنَ المَشْرُوعَاتِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ تَنْفِيزُهَا ، بَلْ نَكْتَفِي بِمَشْرُوعٍ وَاحِدٍ ، فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ نَعْمَلُ عَلَى إِجَادَتِهِ وَتَنْفِيزِهِ ، ثُمَّ الِابْتِدَاءُ بِغَيْرِهِ وَهَكَذَا .

(٢) أن يكون لدينا حبٌّ شديد لأعمالنا، ورغبةٌ كبيرةٌ فيها، ونعملَ عَلَى ألاَّ نفقدَ تلك الرغبةَ في العمل، وَعَلَى تهذيبها ومضاعفتها.

(٣) الشعور بالواجب والقيامُ به في الحال عَلَى أَكْمَلِ وجهه، من غير تأخيرِ عملِ اليومِ إلى الغد، وبدونِ تفكيرٍ فيما سنحصلُ عليه من الجزاء عند القيامِ بالعمل، بل نجعلُ الجزاءَ أمراً ثانوياً، ونؤدّي العملَ لا لشيء، إلا لأنه يجبُ أن يؤدّى، ونثقُ بغيرِنا كما نثقُ بأنفسنا، ولا نهزأُ بالمُثلِ العليا التي يتخذها سوانا.

(٤) قوة الوازع الدينيِّ مع التمسكِ بالدين . بحيث لا نفكرُ في الماضي، ونعملُ عَلَى الانتفاعِ بالحاضر، ونقومُ بواجبنا كما ينبغي، ونتركُ المستقبلَ لله . وبهذه الوسيلةِ نستريحُ، وتستريحُ نفوسُنا، ونكونُ سعداءَ في حياتنا .

الفصل الخامس عشر

(ب) الشخصية الفكرية أو الخلقية

بعد أن تكلمنا عن الشخصية العملية نريد أن نتكلم عن الشخصية الفكرية أو الخلقية ؛ فالفكر هو مصدر الجاذبية والقوة الشخصية للإنسان . وأقوال الإنسان وأفعاله تتوقف على ما يفكر فيه وما يشعر به في روحه الحقيقي . وتظهر أفكار الإنسان فيما يقوله وما يفعله . وما أعمالنا في الغالب إلا مظاهر خارجية لأحوالنا الداخلية ؛ ففي العمل الإنساني تبدو الشخصية العملية والشخصية الفكرية للإنسان ؛ فالرجل الفني مثلاً يُعبر بالصوت أو الرسم أو الشكل أو اللون عن الأفكار التي يفكر فيها ، والممثل العليا التي يُدركها بعقله .

ومن الخطأ أن نظن أن كل ما نحتاج إليه للمهارة في الموسيقى والحفر والرسم مثلاً هو معرفة القواعد الأساسية لهذه الفنون ؛ فالمعرفة وحدها لا تكفي ، بل لا بد من أن تُصحب بمقدار كبير من الروح الفني ، والميل الفطري .

وبالتعلم والتربية والتهديب مع الميل والرغبة ومحاكاة الفنانين ،
والتمرّن والمثابرة يمكن كسب المهارة الفنية .

ومن الواجب تربية الوجدان والفكر والخيال والإرادة وإحيائها
بالاتصال دائماً بقيادة الفكر في الماضي والحاضر .

وإن الشخصية الفكرية هي التي تُكسب العمل قوةً جاذبية .
وفي العمل تتمثل روح صاحبه وأفكاره وأخلاقه . وليست الشخصية
الفكرية مقصورةً على طبقةٍ دون أخرى ؛ فكما تكونُ بين الأغنياء
تكونُ بين الفقراء ، ولكنها تختلفُ قوةً وضعفًا من غير نظرٍ إلى
طبقةٍ أو جنسية .

وقد وصف الشاعر الإنكليزي « روبرت برُوننج » شخصية
امرأةٍ فقيرة ، سعيدةٍ قانعةٍ تُدعى « ييبا » في قصيدته « ييباتمر » .
وفيها يصفُ هذه الشخصية الفكرية ، والسعادة الفطرية ، والروح
القوى في « ييبا » ؛ تلك المرأة العاملة الفقيرة التي تشتغل طولَ عامها
في غزل الحرير بمصنع من مصانع (أسُولو) لتكسبَ قوتَ يومها ،
وتعيشَ معيشةَ الكفاف . وفي اليوم الذي تجعله للراحة ، تخرج

« يَبِيبَا » والسعادةُ تبدو عليها ؛ تُغْنِي أُغْنِيَتَهَا الْعَذْبَةَ الْجَمِيلَةَ ، التي تتمثل فيها تلك الروحُ السعيدة :

« نحن الآن في فصلِ الربيع ، في الصباح ، الله في ملكوته ، والعالمُ جميل . »

ففي تلك المرأةِ الفقيرةِ تتمثل تلك الروحُ القوية ، السعيدةُ في فقرها ، السعيدةُ في عملِها المُضْنَى ، الراضيةُ بالكفاف ، الهائِنةُ بِحَيَاتِهَا وهي مَثَلٌ للروحِ السامِي ، والعظمةِ الفكرية ، والشخصيةِ القوية ، تستطيع أن تؤثرَ في غيرها ليرضى رِضاها ، كما يؤثرُ عظماءُ الرجال وشُجعانُهم في غيرهم من ناحيةِ العظمةِ والشجاعة . وبينَ الفقراءِ من الفلاحين أمثلةٌ كثيرةٌ للرِّضا والقناعةِ في الحياة .

والروحُ القويةُ قد تجدها هنا وهناك ممثلةً في كلِّ مدرسة ، وفي كلِّ وسط ، في فردٍ هو الرئيسُ الذي يُوحى إلى غيره أفكاره وأخلاقه ، ويُؤثِّرُ في المتصلين به تأثيراً كبيراً . وإن وجودَ تلك الروحِ القويةِ في رياسةِ أيِّ عملٍ من الأعمالِ يكفي أن يسيرَ هذا العملُ بكلِّ هدوءٍ ونجاح . وإذا أختفتْ تلك الشخصيةُ وهذه الروحُ من الرياسةِ

أبتدأ سوء التفاهم ، وكثرت المنازعات والمشاجرات والتحزبات
والمؤامرات ، فيختل نظام العمل ، ويتحقق الإخفاق .

فالرئيس قد يكون ضخم المرتب ، قليل العمل ، فنظن أنه
لا يستحقه لأنه لا يتكافأ مع العمل الذي يقوم به . ولكننا نقول : إذا
كان الرئيس قوياً الشخصية كان وجوده وحده كافياً لإيجاد روح
في ذلك العمل ، ووضع نظام أو مقياس يسير عليه الجميع . ومن أجل
هذه الشخصية ، وتلك الروح القوية ، والأخلاق القوية ، يستحق
ذلك المرتب الضخم ، لا من أجل مقدار ما يقوم به من العمل .

والشخصية القوية بأفكارها وأخلاقها لا تستدعي جلبه
ولا ضوضاء ، ولا تدعو إلى طبل ولا زمر . وإذا بحثنا وجدنا أن
القوى العظيمة في الطبيعة هي تلك القوى الهادئة التي تعمل ،
وتعمل كثيراً ، ولا تسمع لها طنيناً . ومن السهل وجود الهدوء
والرزانة حتى في الحياة المضطربة .

الفرق بين الشخصيتين العملية والفكرية

بعد أن تكلمنا عن الشخصيتين العملية والفكرية نريد أن نذكر الفرق بينهما ، فنقول : إن الأولى تُوجّه قوتها نحو عمل الأشياء العظيمة ، في حين أن الثانية تُصرف قوتها في أن يكون الإنسان قوياً في روحه ، عظيماً في خلقه . وإن العالم الذي نراه بما فيه من مدنية وحضارة وتقدم في العلم والاختراع مدينٌ لتلك الشخصيات القوية التي فكرت وتخيّلت وجربت ونفّذت .

وقد يُظنُّ أنه لا أثرٌ للشعر والفلسفة والفنون الجميلة في الأعمال الهامة العظيمة في الحياة ، والحقُّ أنَّ لها أثراً كبيراً في تلك الأعمال ؛ لأنها لا تزود الشخص النشيط العامل بالمثل العليا فحسب ، ولكنها تبثُّ فيه أيضاً القوة والنشاط والروح الضروري لتنفيذها والوصول إليها .

الصفاتُ التي يجب أن تتحقَّق في الشخصية الفكرية أو الخلقية

هناك صفاتٌ تُعدُّ عناصرَ للشخصية الفكرية الصامتة ، تلك هي :

(١) الهدوء العقلي . (٣) حُسْنُ الطبع .

(٢) الرضا بالحياة مع العمل .

ولنشرح كلاً منها فنقول :

(١) الهدوء العقلي :

يُرَادُ بالهدوء العقليَّ أطمئنانُ البالِ ، وهدوءُ الخاطر ، وعدمُ التفكيرِ في أشياء تؤدي إلى القلقِ أو الاضطرابِ النفسيِّ . وهذا الهدوء قد يكون فطرياً ناشئاً عن طبيعة المزاج ، وقد يُكتسبُ بالتربية والتهذيب ، وضبطِ النفس ، وضبطِ العواطف ، والوجداناتِ التي تتأثر بالأحوالِ الخارجية للحياة . والخوفُ أكبرُ عدوٍّ مُزعِجٍ للعقل ، وأقوى سببٍ في الاضطرابِ العقليِّ . وما دام العقلُ متأثراً بالخوافِ فالهدوء محال .

وقد يَنشأُ الاضطرابُ عن الغيرةِ أو الحقد ، أو عن طلبِ
المحال والتعلق به ، نعم يجبُ أن تكونَ آمالنا كبيرةً ، ولكن يجبُ
أن يكونَ من الممكنِ تنفيذُها^(١) . وقد يَنشأُ الاضطرابُ العقليُّ
عن كثرةِ الرغباتِ التي لا نهايةَ لها ؛ فالإنسانُ منا يريدُ أن يذوقَ
الحياةَ ، ويتمتعَ بما فيها من لذاتٍ في لحظةٍ واحدةٍ ، من غيرِ تفكيرٍ
في تركِ شيءٍ للتمتعِ به في المستقبلِ . يريدُ أن يَقْطِفَ الحياةَ كما
يقطفُ عنقودَ العنبِ ، وَلَيْتَهُ يَنْتَفِعُ بما يقطفُ ؛ فقد يَضْغَطُ العنقودَ
لشدةِ حرصه فيَتلفهُ ، ويبقى جالماً كما كان من قبلُ . وإن كثرةَ
الرغباتِ لا تتركُ أثراً للمسرَّاتِ القلبيةِ ، وكثيراً ما تؤدِّي إلى التَّألمِ
أو الحرمانِ ؛ فالحرىصُ محرومٌ لو بلغَ الرزقُ فاه ، لولاه قفاه ، كما قال
بديعُ الزمانِ الهمذاني^(٢) .

- (١) قد صرَّح (وليام هازلِت) : William Hazlitt (١٧٧٨ — ١٨٣٠ م) .
الكاتب الإنجليزي المعروف بقوة النقد ، وقد حضرته الوفاة ، بأنه عاش سعيداً في نفسه .
ولكن القارئ لتاريخ حياته يجدُها مملوءة بالأحزان ، فقد كان يتأثر ويهيج ويثور لأقل
شيء ؛ فكانت حياته تتغير تغير الجو في البلاد الإنكليزية ؛ لا يثبت فيها الجو على حال .
وكان يعرف أنه مكروه لدى معاصريه ، ولا يدري لذلك سبباً . أما السبب فقد كان سرعة
تأثره ، وعجزه عن ضبط نفسه ؛ فنسَفَر منه عارفوه ، مع أنه كان كريماً مخلصاً ، أديباً ذكياً .
- (٢) ولد سنة ٣٥٨ هـ . وتوفي سنة ٣٩٨ هـ . وهو كاتب من كتّاب العربية في
القرن الرابع الهجري . ونثره خير من شعره . وهو أول من اشتهر بكتابة المقامات ، وله
ولع كبير بالحسنات والزخرفة اللفظية والبديعية .

(٢) الرضا بالحياة مع العمل :

ليس معنى الرضا أن يقبل الإنسان كلَّ شيء كما هو، ولو كان خطأً ؛ فهذا يُعدّ ضعفاً وجُبناً ؛ بل معناه أن يكون الإنسان حياً ، يفعل ما يجب أن يُفعل ، ويرضى بما يجب الرضا به . ويحتجّ على ما ينبغي الاحتجاج عليه ، ويردُّ على ما يقتضى الردّ . هذا هو الرضا ، وهو معنى الحياة . وفي اللحظة التي ينقطع فيها الردُّ أو الاحتجاج تنقطع الحياة ، ويتلوها الموت والفناء . أما الرضا المصحوبُ بالكسل والحوّل فليس برِضاً ، وإنما هو الموت في الحياة . فالرضا بالحياة يجب أن يُصحبَ بالجد والعمل والمثابرة مع الاقتناع بما يجب الاقتناع به . وفي البيئَةِ والحياةِ أمورٌ برّهنَت التجاربُ على خطئِها . فهذه يجب ألاّ نقنعَ بها ، بل نعمل بكلّ قوة على علاجها وإصلاحها ، وإلاّ وقفَ العالمُ في مكانه ، وتأخّرَ الفكرُ والحضارة .

وينبغي أن نقنعَ القناعةَ التي بها تستريحُ نفوسُنا ، ونكون سعداء ، بحيث نرضى من جهة ، ونعملُ للرقى والكمال من جهة أخرى . وتمثلُ تلك الروحُ الراضية « في الروح العظيمة بالكوخ الصغير » .

أَلَا تَرَى الْبَدْوَىَّ فِي بَيْتٍ مِنْ قِطْعَةِ خَيْشٍ ، لِبَاسُهُ شَمْلَةٌ^(١) مِنْ
وَبَرٍ أَوْ شَعِرٍ ، وَطِيْبُهُ الْقَطْرَانُ ، وَحَلْيُ زَوْجَتِهِ الْوَدَعُ ، وَثَمَارُهُ الْمُقْلُ^(٢) ،
وَصَيْدُهُ الْيَرْبُوعُ ، وَهُوَ فِي مَفَازَةٍ^(٣) لَا يُسْمَعُ فِيهَا إِلَّا صَوْتُ بَوْمَةٍ ،
وَعَوَاءُ ذَيْبٍ ، وَهُوَ قَانِعٌ بِذَلِكَ ، مُفْتَخِرٌ بِهِ ؟ .

وَكَانَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ : « الشَّمْسُ فِي الشِّتَاءِ جَلَالِي ،
وَنُورُ الْقَمَرِ سِرَاجِي ، وَبَقْلُ الْبَرِيَّةِ فَكْهَتِي ، وَشَعْرُ الْغَنَمِ لِبَاسِي ،
أَيِّتُ حَيْثُ يُدْرِكُنِي اللَّيْلُ ، لَيْسَ لِي وَلَدٌ يَمُوتُ ، وَلَا بَيْتٌ يُخْرَبُ ،
أَنَا الَّذِي كَبَيْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِهَا . »

وَمَنْ الْخَطَأُ أَنْ يَنْتَظِرَ الْإِنْسَانُ الْمَحَالَ ، أَوْ يَطْلُبَ أَشْيَاءَ يَنْبَغِي
أَلَّا يُجَابَ إِلَيْهَا . وَمِنْ الْعُيُوبِ الَّتِي كَانَتْ تُؤْخَذُ عَلَى (جِيَّتِهِ)^(٤)
الْفِيلَسُوفِ الْأَلْمَانِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُعَارِضُ وَلَا يَقْنَعُ حَتَّى بِالْأُمُورِ الَّتِي
لَا مَفْرَءَ مِنْهَا ، وَلَيْسَ مِنْهَا بَدْءٌ . وَذَلِكَ نَاشِئٌ عَنِ الْعِجْزِ عَنْ ضَبْطِ
النَّفْسِ ، وَهُوَ نَقْصُ خُلُقٍ شَائِعٍ . وَمَا الْفَائِدَةُ مِنْ طَلَبِ الْمَحَالِ ؟

(١) الشَّمْلَةُ : كِسَاءٌ يُشْتَمَلُ بِهِ . (٢) الْمُقْلُ : ثَمَرُ الدَّوْمِ (٣) صَوَاءٌ

(٤) Goethe (١٧٤٩ — ١٨٣٢ م .) : هُوَ شَاعِرٌ وَفِيلَسُوفٌ أَلْمَانِيٌّ ،

لَهُ شَهْرَةٌ ذَائِعَةٌ بَيْنَ فَلَاسِفَةِ الْعَالَمِ ، وَعُلَمَاءِ الطَّبِيعَةِ .

إِنْ عَدَمَ الرِّضَا لَنْ يُقَرَّبَنَا مِنْ تَحْقِيقِ رَغْبَاتِنَا ؛ لِأَنَّهَا رَغْبَاتٌ يُسْتَحِيلُ
تَنْفِيزُهَا ، وَلَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهَا . وَلَوْ حُدِّدَتِ الْآمَالُ وَالْأَحْلَامُ ،
ثُمَّ عَمِلْنَا بِجِدِّ وَطَيْبِ خَاطِرٍ ، وَنَفْسٍ مُسْتَرِيحَةٍ ، فَمِنْ الْمُمْكِنِ
إِدْرَاكُ هَذِهِ الْآمَالِ ، وَتَحْقِيقُ تِلْكَ الْأَحْلَامِ ، بِالْوُصُولِ إِلَيْهَا أَوْ إِلَى
مَا يَقْرُبُ مِنْهَا .

فَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ نُحْزِنَ أَنْفُسَنَا ، وَنَحْرِقَ قُلُوبَنَا ، فِي سَبِيلِ
أَحْلَامٍ لَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُهَا . فَنَحْنُ لَا نَزِيدُ قَنَاعَةً تُصَحِّبُ بِالضَّعْفِ
أَوِ الْإِهْمَالِ ، كَمَا لَا نَزِيدُ جَشَعًا يُؤَدِّي إِلَى الْفَلَقِ الْفَكْرِيِّ ، وَالاضْطِرَابِ
الْعَقْلِيِّ ، وَالْأَلَمِ الْنَفْسِيِّ . وَلَكِنَّمَا نَزِيدُ قَنَاعَةً تُؤَدِّي إِلَى السَّعَادَةِ ،
وَتُسْتَدْعَى الْعَمَلُ ، وَتَتَطَلَّبُ الْمَثَابَةُ فِي سَبِيلِ الرِّقِّ الْمُسْتَمِرِّ ، مَعَ رَاحَةِ
الضَّمِيرِ ، وَهَدْوِ الْبَالِ . وَبِهَذِهِ الْوَسِيلَةِ تَكُونُ حَيَاتُنَا هَادِئَةً سَعِيدَةً
مَمْلُوءَةً بِالثِّقَةِ وَالْأَمَلِ . وَمَا الْحَيَاةُ إِلَّا حُزْمَةٌ مَكُونَةٌ مِنْ عِيدَانِ
صَغِيرَةٍ . وَلِلْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الْحُزْمَةِ الْكَبِيرَةِ يَجِبُ أَنْ نَحْصَلَ أَوَّلًا
عَلَى الْعِيدَانِ الصَّغِيرَةِ .

قال « اللورد أف بَرِي » في كتابه : « مسرّات الحياة ^(١) » : « كلُّ من يسعى للنجاح في الحياة يناله ، ولكنه لا يصل إلى كلِّ ما يتمناه لنفسه . إن الإخفاق الشريف خيرٌ من الفوزِ الدنيء . ولعمري إن الإنسان إذا حاول وأخفق ، لا يخسر شيئاً مطلقاً إلا إذا تولاه اليأس ، ودخل في قلبه القنوط . وإذا لم نحصل على مرادنا مرةً فلا يدعُ ذلك إلى قطع الآمال . »

وقال « مارك توين » : « حافظ على آمالك ؛ فإنها إذا ذهبت تركتك هائماً بغير حياة . »

وقال « بيكون » : من يسع وَيَتَّقِظُ يُبَصِّرُ الحظَّ ؛ فإنه (أى الحظ) — وإن كان ضريراً لا يُبَصِّرُ — لن يفوتنا ، مادامت تُبَصِّرُهُ عُيُونُنَا .

(٣) مسع الطبع أو البشاشة ورُعب الصدر :

إن للبشاشة أثراً كبيراً في الشخصية الفكرية أو الخلقية ، وتنشأ عن ضبط النفس ، وحسن التفكير ، وسلامة الأعصاب ،

وأعتدالِ الصحة ، والنجاح في الحياة ، ورقى البيئته . أما سوء الطبع المصحوب بضيق الصدر ، فينشأ عن ظلام الفكر ، أو شدة تأثير الأعصاب ، أو ضعف الصحة ، أو الإخفاق في العمل ، أو تأخر البيئة ، أو عنها كلها مجتمعة .

ومن السهل معالجة ذلك النقص بالنصح تارة ، ومقاومة النفس تارة أخرى ، والاتصال كثيراً بالمثُل العليا في الأخلاق ، والعمل دائماً على مراعاة شعور الناس ، والمحافظة على روح الصداقة مع الأصدقاء^(١) .

ومن مظاهر قوة الشخصية الفكرية أن تتغلب على عاطفتك ، وتشارك الناس في سرورهم لنجاحهم في أعمالهم ، مهما تكن في دياجير^(٢) الشقاء ، وفي غياهب^(٣) البؤس ، متمثلاً بذلك الرجل

(١) وقد قيل عن (السير وولتر سكوت) ، الكاتب الأسكتلندي العظيم : إن شخصيته كانت تتمثل في حسن طباعه ، ومثانة أخلاقه ، وشدة صبره ، والنظر إلى كل إنسان يعرفه أو يتصل به نظرة كلها عطف ، نظرة الأب الشفيق إلى الابن البار ، نظرة تدل على قدره الإنسانية ، وحبه لغيره من بني الإنسان .

(٢) الديجور : الظلام ، وليلة ديجور : مظلمة .

(٣) الغيب : الظلمة .

الضالَّ الشريدِ في العالمَ ؛ تطرُدُه تلكَ البلدةُ فينتقلُ إلى أخرى ،
وهو يغني تلكَ الأغنيَّةَ :

« أَيُّهَا الْحَيَاةُ ! مَا أَجْمَلَكِ ! وما أَجْمَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ ! هَوَاءٌ عَلِيلٌ ، وَسَمَاءٌ صَافِيَةٌ ، وَحَيَاةٌ عَذْبَةٌ . مَا أَحْلَى الْحَيَاةَ !
الْحَيَاةُ هُنَا إِلَى الْأَبَدِ » !

وهل هُنا مَنْ هُوَ أَسْعَدُ نَفْسًا ، وَأَقْوَى رُوحًا مِنْ ذَلِكَ الشَّرِيدِ
الطَّرِيدِ ، الَّذِي يَبْتَسِمُ لِلْحَيَاةِ الْبَائِسَةِ ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا تِلْكَ النُّظْرَةَ
السَّارَّةَ ؟

الفصل السادس عشر

مُضْعِفَاتُ الشَّخْصِيَّةِ

هناك أشياء كثيرة تؤدي إلى إضعاف الشخصية ، وتُعدُّ عائقاً لها ، منها :

(١) انطال الشخص على غيره :

وذلك بمحاكاة غيره في أقواله وأفعاله ، وحركاته وسكناته وتفكيره ، بحيث يصير الإنسان صورةً مقلدةً لا شخصية لها ، ولكنها متأثرة بشخصية غيرها .

(٢) التأثر بالعادات والتقاليد :

فالرأي العام كثيراً ما يكون مصيباً ، وكثيراً ما يكون حسناً ، ولا نستطيع أن ننكر ذلك . ولكننا نريد أن يكون الرأي العام بمثابة القائد المرشد ، لا بمثابة القائد المستبد ، الذي يتحكم في الأفراد ، فيضلُّهم أحياناً ، ويقودهم إلى حيث يتعدون عن الحياة ، وينفصلون عن حقائقها ، وينقطعون عن العالم أقطاع عجلات القطار عن

القاطرة الأمامية التي بها يسير القطار، ويتصلون بعالم آخر هو عالم الموت، أو عالم الحقائق الميتة التي فقدت كل حياة.

فنحن نريد احترام العادات، ونطالب باحترام التقاليد، وتعليم الأطفال احترامها، وتعويدهم تقديس الرأي العام. ولكننا نريد مع ذلك أن نعوّدهم التفكير بأنفسهم، والاستقلال بالفكر؛ حتى لا يكونوا عبيداً لغيرهم في آرائهم، كما نعوّدهم الخضوع للحق، والانقياد لما تُعلمه عليهم عقولهم وضمائرهم؛ كي يُحافظوا على شخصياتهم. فالشخصية لا يمكن أن تنمو في قفص من حديد لا يجد فيه الطفل حرية في الرأي، وحرية في التفكير.

وفي حدود العادات والتقاليد يجب على كل منا أن يكون له رأياً، وأن يقبل من الآراء ما أثبتته التجربة والبراهين، ويتمسك بالصواب، ويترك ما يتبين خطؤه. ومن المحال أن نُضِلَّ الطريق المستقيم إذا أُسِّسَ الرأي العام على الحكمة، والعقل، والصواب، والمصلحة العامة.

أما العادات والتقاليد الدينية المتصلة بالدين القويم فيجب أن

تُحْتَرَمَ وتؤخذ كما هي ؛ لأنها تتفق مع العقل والمنطق ، ولو أننا ربما لا نصل إلى إدراك الحقيقة أو السر أحياناً ؛ لأن التفكير الإنساني محدودٌ ، ولو فكرنا في الأمور الدينية لوجدنا أن لكل أمرٍ حكمةً أو سرّاً ربما لا ندركه . فتهذيب الشخصية لا يتنافى مطلقاً مع مراعاة الروح والتقاليد الدينية .

(٣) ومن الأسباب التي تحسّم في الشخصية :

التمسكُ بالأفكار التي يقرؤها الإنسان في الكتب العادية .
وجديرٌ بالإنسان أن يقرأ ، وأن يقرأ كثيراً ، ثم يُحكّم عقله ،
ويأخذ الحسن ، ثم يترك القبيح . ويجب ألا يعتقد كلٌّ ما يقرأ ،
ولا يصدق كلٌّ ما يقال ، كما يعتقد ويصدق كثير من القراء . إننا
لا نريد ذلك الكسل العقلي ، والحمول الفكرى ، بل نريد أن نفكر
فيما نقرأ ، ونستعمل عقولنا ، فلا نتقبل كل بضاعة تُعرض علينا
ولو كانت مُزجاةً . ولسنا بذلك نقلُّ من قيمة القراءة والاطلاع ،
أو من قيمة من يقرأون ويطلعون ، ولكننا نودُّ أن يكون لكلٍ
منهم شخصيةٌ مستقلةٌ في التفكير ، فيفكر في كل شيء ، وفي كل
كتاب يقرؤه ؛ فنحن لا نريد القراءة فحسب ، ولكننا نريد أن نقرأ ،

ونفكر فيما نقرأ ، بحيث يكون تفكيرنا أكثر من قراءتنا ، كي نصل إلى حديث جديد ، أو رأي طريف جيد ، بحيث نزن كل فكرة ، فتكثر الآراء السديدة ، والأفكار الناضجة . وهذه الوسيلة تظهر شخصياتنا الحقيقية ، وتبدو أنفسنا كما هي .

ومما قاله (چن چاك رُوسو^(١)) عن نفسه : « إنني لا أشبه أحداً آخر عرفتُه . ومع ذلك فإنني إذا لم أكن أحسن ، فإنني مختلف عن غيري على الأقل » . فأساس الشخصية هو في وجود شيء خاص في كل منأميزه من غيره . وقد ينجل الإنسان أو يعتذر إذا وجد نفسه يختلف عن غيره . وليس في حاجة إلى الخجل أو الاعتذار ، ولكنه في حاجة إلى الشجاعة في أن يرى نفسه مختلفاً عن غيره ، ويرى غيره يختلف عنه في أمور هي أساس الشخصية ، ومظهر من مظاهر النفس الحقيقية . وفي تربية الشخصية يجب أن نعود الطفل أن يظهر بحقيقته كما هو ، من غير رياء أو تظاهر أو تغيير للحقائق ، ونفهمه حينما

(١) Jean Jacques Rousseau (١٧١٢ — ١٧٧٨ م .) هو مرب من أكبر فلاسفة التربية وعلماء الاجتماع في القرن الثامن عشر ، ويعد كتابه : (إميل) أكبر ذخيرة في التربية ، يرجع إليها المربون في كثير من الأمور حتى يومنا هذا . وهو من الكتب التي ترجمت إلى معظم اللغات الحية ، وعسى أن يترجم إلى اللغة العربية ترجمة دقيقة . ويمكنك أن تطلع على آراء (روسو) في كتب تاريخ التربية إذا شئت .

يَكْبَرُ أَنْ الْعِلْمَ يَتَطَلَّبُ هَدْوَةً وَتَوَاضِعًا ، وَإِخْلَاصًا ، وَمَعْرِفَةً لِلنَفْسِ ،
وَأَحْتِرَامًا لَهَا ؛ أَحْتِرَامًا بَعِيدًا عَنِ الْعُجْبِ وَالْكِبَرِ وَالْكَذِبِ ؛ أَحْتِرَامًا
مَبْنِيًّا عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ . وَإِذَا أَعْتَادَ الشَّخْصُ
أَحْتِرَامَ نَفْسِهِ أَحْتِرَامًا بَعِيدًا عَنِ الْعُجْبِ ، فَإِنَّ حُبَّ الظُّهُورِ يَضْعُفُ
تَدْرِيجًا ، وَيُصْبِحُ أَحْتِرَامُ النَّفْسِ مَعَ التَّحَلِّيِّ بِالْكَامِلِ كَطَبِيعَةٍ
ثَانِيَةٍ لِلشَّخْصِ .

وَإِذَا قَلْنَا بِأَحْتِرَامِ النَّفْسِ ، فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنْ نُعْطِيَ أَنْفُسَنَا حَقَّهَا ،
وَنَقْدِرَهَا حَقَّ قَدْرِهَا . وَلَكِنْ لَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ نُفَكِّرَ فِي أَنْفُسِنَا
أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي ، أَوْ أَنْ نَرْفَعَهَا فَوْقَ مَنَزَلَتِهَا ، أَوْ أَنْ نُعْطِيَهَا أَكْثَرَ
مِمَّا تَسْتَحِقُّ .

(٤) وَمِنْ مَضْمُونَاتِ الشَّخْصِيَّةِ تَحْكِيمُ مَبُولِ الشَّخْصِ فِيهِ ، وَعَجْزُهُ عَنِ
ضَبْطِ تِلْكَ الْمَبُولِ ، فَيُثَوِّرُ وَيَهْيِجُ ، وَيَتَدَيُّ الْيَوْمَ عَمَلًا وَيَتْرَكُهُ
غَدًا . وَيَفَكِّرُ الْيَوْمَ فِي مَشْرُوعٍ ، وَغَدًا فِي آخَرٍ . وَمِثْلُ هَذَا الشَّخْصِ
عَادَةً نَشِيطٌ ، وَلَيْسَ بِكَسْلَانَ وَلَا ضَعِيفَ الْإِرَادَةِ ، وَلَكِنَّهُ فِي حَاجَةٍ
إِلَى التَّرْبِيَةِ ؛ تَرْبِيَةِ مُبُولِهِ ، وَضَبْطِ أَنْفَعَالَاتِهِ ، وَتَوْجِيهِ هِمَّتِهِ نَحْوَ
مَشْرُوعٍ مِنَ الْمَشْرُوعَاتِ ، وَعَدَمِ تَرْكِهِ إِلَّا بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْهُ .

الفصل السابع عشر

الصفات الكمالية للشخصية

الآن وقد تكلمنا عن ماهية^(١) الشخصية، وتعريفها، والاختلاف فيها، والعناصر الأساسية التي تُبنى عليها، وأنواعها، ووسائل تقوية الشخصية العملية، والصفات التي يجب أن تتحقق في الشخصية الفكرية الخلقية، نريد أن نذكر الصفات الكمالية للشخصية على العموم، وهي كثيرة، منها:

- (١) الذاتية أو الاستقلال الذاتي^(٢). (٢) الإخلاص^(٣).
- (٣) الحماسة أو شدة الغيرة والإقدام^(٤).
- (٤) قوة الوجدان أو الإحساس^(٥)، ولتكلّم عن كل منها فنقول:

(١) الذاتية أو الاستقلال الذاتي

الذاتية هي أهمُّ صفةٍ من الصفات الكمالية للشخصية. وقد عرّفت بأنها:

(١) حقيقة . (٢) Individuality . (٣) Sincerity

(٤) Enthusiasm . (٥) Sensibility

مجموعة الصفات العقلية الخاصة بالفرد . وتختلف هذه المجموعة باختلاف الأفراد ؛ فقد تكون كبيرة لدى بعض الأشخاص ، صغيرة لدى بعضهم الآخر .

وتختلف الشخصية^(١) عن الذاتية في أن الأولى أعم من الثانية ؛ لأن الشخصية تشمل الصفات العقلية والعملية والجسمية والروحية أو الخلقية الخاصة بالفرد ، بخلاف الذاتية فإنها عنصر هام من عناصر الشخصية يتعلق بمجموعة الصفات العقلية للفرد ليس غير .

وإننا نشعر بالملكية الذاتية في نسبة الشيء إلى الفرد أو الأفراد ، فنقول : هذا كتابي ، وذاك كتابه ، وهذا كتابكم ، وذلك مستشفى الجمعية الخيرية ، وتلك مدرسة الطائفة الإسرائيلية ، وهذه جماعة الشبان المسلمين أو المسيحيين ، وهكذا . ولكل إنسان طريقة خاصة وأفكار خاصة في الحياة يمتاز بها من غيره .

ومن الأسباب التي أدت إلى إخفاق كثيرين في الحياة أنهم لا يستقلون بأنفسهم في تفكيرهم ، بل يعتمدون على غيرهم ، ويحكونهم في أقوالهم وأفعالهم وآرائهم ، ويتشبهون بهم في كل

شيء . فَيَفْقِدُونَ اسْتِقْلَالَهُمُ الذَّاتِيَّ ، وَتَنْدَمِجُ شَخْصِيَّتُهُمْ فِي شَخْصِيَّةٍ غَيْرِهِمْ حَتَّى تَضْعُفَ .

فَيَنْبَغِي أَنْ يَبْذُلَ الْإِنْسَانُ جُهْدَهُ فِي أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَسْتَقِلَّ فِي تَفْكِيرِهِ بِطَرِيقَتِهِ الْخَاصَّةِ ، فَالْأَشْيَاءُ الَّتِي يَصِلُ إِلَيْهَا بِفِكْرِهِ الْخَاصِّ خَيْرٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُحَاكِ فِيهَا غَيْرَهُ . وَالْأَمْرُ الَّذِي يَقُومُ بِهِ بِنَفْسِهِ يُمْكِنُهُ أَنْ يَقُومَ بِهِ خَيْرَ قِيَامٍ .

أما العوامل التي تمتاز بها الذاتية فهي :

(١) الصراحة وعدم الالتواء في الفكر والقول والعمل :

يُرَادُ بِالصَّرَاحَةِ إِظْهَارُ مَا فِي النَّفْسِ بِغَيْرِ التَّوَلُّاءِ أَوْ أَعْوَجَاجِ أَوْ لَفٍّ بَعِيدٍ^(١) ، بِحَيْثُ تَكُونُ أَفْكَارُ الْإِنْسَانِ ظَاهِرَةً ، وَأَقْوَالُهُ وَاضِحَةً ، وَأَعْمَالُهُ تَتَّفَقُ مَعَ أَقْوَالِهِ ، يَقُولُ مَا يَعْتَقِدُ ، وَيَعْتَقِدُ مَا يَقُولُ ، وَلَا يُلْقِي الْقَوْلَ عَلَى عَوَاهِنِهِ^(٢) ، وَلَا يَتَرَدَّدُ فِيمَا يَقُولُ . لَا يُثْبِتُ الْيَوْمَ شَيْئًا ثُمَّ يَنْفِيهِ غَدًا . إِذَا تَكَلَّمَ كَانَ كَلَامُهُ عَنْ عَقِيدَةٍ ، يَدُلُّ عَلَى سِدَادِ رَأْيٍ ، وَحَسَنِ تَفْكِيرٍ ، وَتَقْدِيرٍ لِلنَّتَائِجِ .

(١) قَالَ صَاحِبُ الْمَصْبَاحِ : صَرُوحُ الشَّيْءِ بِالضَّمِّ صَرَاحَةٌ : خَلَصَ مِنْ تَعْلِقَاتٍ غَيْرِهِ فَهُوَ صَرِيحٌ . وَكُلُّ خَالِصٍ : صَرِيحٌ ، وَمِنْهُ الْقَوْلُ الصَّرِيحُ وَهُوَ الَّذِي لَا يَفْتَقِرُ إِلَى إِضْمَارٍ أَوْ تَأْوِيلٍ . . . وَقَالَ صَاحِبُ الْقَامُوسِ : التَّصْرِيحُ خِلَافُ التَّعْرِيزِ ، وَتَبْيِينِ الْأَمْرِ .
(٢) لَمْ يَبَالِ أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ .

قَالَ رَجُلٌ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسِيرَ^(١) إِلَيْكَ شَيْئًا .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِأَصْحَابِهِ : إِذَا شِئْتُمْ . فَتَهَضُّوْا ، فَأَرَادَ الرَّجُلُ الْكَلَامَ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ :

لَا تَمْدَحْنِي ؛ فَإِنَّا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْكَ ، وَلَا تَكْذِبْنِي ؛ فَإِنَّهُ لَا رَأْيَ لِلْمَكْذُوبِ . وَلَا تَغْتَبْ عِنْدِي أَحَدًا .

فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَفْتَأْذَنُ لِي فِي الْإِنْصِرَافِ ؟
قَالَ لَهُ : إِذَا شِئْتَ .

وَقَالَ الْمَرْحُومُ سَعْدُ زَغُولٍ بَاشَا : « قَدْ عَاهَدْتُ اللَّهَ مِنْذُ نَشَأْتُ عَلَى أَنْ أَصْرِّحَ بِمَا فِي ضَمِيرِي ، وَهَذِهِ هِيَ لَدَّتِّي فِي حَيَاتِي » .

وإن كثرة التردد في الرأي والقول والفعل تقلل من شخصية الإنسان ومنزلته ، وكثيراً ما تعوقه عن النجاح في الحياة العملية والاجتماعية ؛ كَانَ يَطَالِبُهُ رَئِيسُهُ بِإِبْدَاءِ رَأْيِهِ فِي شَأْنٍ مِنَ الشُّؤْنِ ، فَيَخْتَلِطُ عَلَيْهِ الْأَمْرُ ، وَيَضْطَرُّ عَقْلُهُ ، وَتَضْطَرُّ أَفْكَارُهُ ، وَتَكُونُ غَامِضَةً . وَهُوَ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرِ مَنْ أَنْ يَفْكَرَ فِي

الأمر ملياً^(١)، ثم يبدي رأيه بعبارة موجزة واضحة، قوية، مؤثرة، ولا يخرج عن الموضوع.

والناس عادة يحبون أن يُصغوا إلى ما نقول، وأن يشاركونا في شعورنا إذا كان ما نقول يستحق الإصغاء؛ كأن تكون الأفكار سديدة، والعبارة واضحة خالية من الخطأ، ويكون الأسلوب مؤثراً جذاباً. أما إذا كانت الأفكار معدومة أو عقيمة، أو ملتوية معوجة، أو فجة غير ناضجة، ثم عُبرَ عنها بلغة غامضة مملوءة بالأخطاء، أو بعبارة ركيكة معقدة، فلا عجب إذا نفر السامعون، وقلَّ إصغائهم وأنتباههم، وأخذوا في التلهي عن المتكلم.

ولا تلمهم إذا أنصرفوا عنه حرصاً على وقتهم. وإذا مكثوا ولم ينصرفوا فما ذلك إلاَّ محافظة على آداب الاستماع. ومن السهل اكتساب قلوب المستمعين بالأفكار الصائبة، واللغة السليسة السهلة الصافية، الخالية من الغموض والتعقيد والالتواء، وبالأسلوب الجذاب، والإلقاء الحسن.

أخبرَ بعضُ الأدباءِ قال^(١) : ما رأيت رجلاً عُرضَ عليه الموتُ فلم يكثرْ له إلا تيمُّمَ بنِ جَمِيلٍ الخارجيِّ . كان قد خَرَجَ على المعتصم ورأيتُهُ قد جىءَ به أسيراً . فدخلَ عليه في يومٍ موكِبٍ^(٢) وقد جلسَ المعتصمُ للناسِ مجلساً عامّاً ، ودعا بالسيف والنُّطع^(٣) . فلما مثَلَ بين يديه نظرَ إليه المعتصمُ ، فأعجبه شكُّهُ وقَدُّهُ^(٤) ومشيتُهُ إلى الموتِ غيرَ مُكترِثٍ له . فأطالَ الفِكرةَ فيه ، ثم أَسْتَنْطَقَهُ^(٥) لينظرَ في عقله وبلاغته ، فقال : يا تيمُّمُ إن كان لك عذرٌ فأتِ به .

فقال : أمّا إِذْ أُذِنَ أميرُ المرمين (جبر الله به صدع^(٦) الدين . ولمَّ شعث^(٧) المسلمين . وأخذَ شهابَ الباطل . وأَنارَ سُبُلَ الحقِّ) — فالذَنوبُ يا أميرَ المؤمنين تُخْرِسُ الألسنةَ ، وتَصَدِّعُ الأفتدةَ . وَأَيُّمُ الله^(٨) قد عَظُمَتِ الجُريرةُ^(٩) ، وَأَنقَطَعَتِ الحُجَّةُ ، وساءَ الظنُّ ، ولم يبقَ إلا العفوُّ أو الانتقامُ . وأميرُ المؤمنين أقربُ إلى العفوِّ ، وهو أَلْيَقُ شَيْمِهِ الطاهرة . ثم أنشد :

(١) من كتاب ثمرات الأوراق للحموي . (٢) الموكب : بابة من السير ، وهو أيضاً القوم الركوب على الإبل للزينة ، وكذلك جماعة الفرسان . (٣) بساط من جلد . (٤) القَد : القامة . (٥) كله . (٦) الشق . (٧) جمع أمرهم . (٨) صيغة قسم . (٩) الجناية .

أَرَى الْمَوْتَ بَيْنَ السِّيفِ وَالنَّطِيعِ كَامِنًا
يُلاحِظُنِي مِنْ حَيْثُ مَا أَتَلَفْتُ
وَأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّكَ الْيَوْمَ قَاتِلِي
وَأَيُّ أَمْرٍ أُرَى مِمَّا قَضَى اللَّهُ يُفْلِتُ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَأْتِي بِعُذْرٍ وَحُجَّةٍ
وَسِيفُ الْمَنَايَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُصَلَّتٌ^(١)
وَمَا جَزَعَنِي مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنِّي
لَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ شَيْءٌ مُوَقَّتٌ^(٢)
وَلَكِنْ خَلَفِي صَبِيحَةً قَدْ تَرَكَتُهُمْ
وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ^(٣) تَتَفَتَّتُ
كَأَنِّي أَرَاهُمْ حِينَ أَنْعَى^(٤) إِلَيْهِمْ
وَقَدْ لَطَمُوا تِلْكَ الْخُدُودَ وَصَوَّتُوا
فَإِنْ عَشْتُ عَاشُوا سَالِمِينَ بِغَبْطَةٍ^(٥)
أَذُودُ^(٦) الرَّدَى^(٧) عَنْهُمْ وَإِنْ مِتُّ مُوَّتُوا

(١) بارز . (٢) له وقت . (٣) الحسرة : أشد التلهف على الشيء الفائت .
(٤) النعي : خبر الموت . (٥) سرور . (٦) أدفع . (٧) الهلاك .

فبَكَى الْمُعْتَصِمُ وَقَالَ : إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا . ثُمَّ قَالَ : كَادَ
وَاللَّهِ يَا تَمِيمُ أَنْ يَسْبِقَ السَّيْفُ الْعَذْلَ ^(١) ، وَقَدْ وَهَبْتُكَ لِلَّهِ وَلِصَبِيَّتِكَ ،
وَعَفَرْتُ لَكَ هَفْوَتَكَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِفِكَ قِيُودِهِ ، وَأَعْطَاهُ خَمْسِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ .

(٢) حُبُّ الْمَسْئُولِيَّةِ وَعَدَمُ الْفِرَارِ مِنْهَا :

إِنَّ حُبَّ الْمَسْئُولِيَّةِ وَعَدَمَ الْفِرَارِ مِنْهَا يَنْشِئَانِ عَنِ الثِّقَةِ بِالنَّفْسِ .
وَقَدْ لَوَحِظَ أَنَّ الْأَفْرَادَ الْأَمْنَاءَ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَتَحَمَّلُوا التَّبِعَةَ
يَفِرُّونَ مِنْهَا ، وَأَنَّ الْأَفْرَادَ الَّذِينَ لَا يَسْتَحِقُّونَ الثِّقَةَ بِهِمْ يُحِبُّونَ تَحَمُّلَهَا .
وَهَذَا خَطَأٌ فِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ . وَإِنَّا الْآنَ لَا نَتَكَلَّمُ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
يَزُجُّونَ بِأَنْفُسِهِمْ فِي أَشْيَاءَ لَيْسُوا أَهْلًا لَهَا ، وَيَقِفُونَ فِي مَوَاقِفَ غَيْرِهِمْ
أَوَّلَى بِهَا ، بَلْ نَتَكَلَّمُ عَنْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْمَقْدَرَةِ الطَّبِيعِيَّةِ ،
وَالْكَفَايَةِ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى الْقِيَامِ بِالْعَمَلِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَمِيلُونَ إِلَى الْفِرَارِ
وَالْتِبَاعِدِ عَنْ هَذَا الْعَمَلِ .

وَهَذَا الْفِرَارُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ الذَّاتِيَّةِ أَوْ
ضَعْفِ الْإِسْتِقْلَالِ الذَّاتِيِّ ، وَدَلِيلٌ عَلَى الْخَوْفِ أَيْضًا ؛ الْخَوْفُ مِنْ

(١) الْعَذْلُ : الْمَلَامَةُ .

النتائج والظروف ، والخوف من غيرهم . فهُمْ ضحايا الخوف ، الخوف
حتى من أنفسهم .

وأنت تعلم أن تحمل التبعة قد يُعرض الإنسان للخطر .
ولكن بماذا تجتذب قلوب الناس ؟ إنك تجتذبهم بالإقدام ، وعدم
الفرار من المسؤولية ، والتعرض للأخطار .

قد تفرّ من الشيء خوفاً من نقد الناقدين ، وحسد الحاسدين ،
ومنافسة المنافسين ، ولكن ماذا يهمُّك من هؤلاء ؟ ولم تعبأ بهم
ما دُمتَ مخلصاً لله ، مُرضياً ضميرك ؟ إن من المحال أن ترضى الناس
جميعاً ، فإرضاء الناس غاية لا تدرك . ولن تعدم أن تجد بجانب هؤلاء
الحاقدين المرضى في نفوسهم — كثيرين من المخلصين الذين يُقدِّرون
من يستحق التقدير ، ويشقون بمن يستحق الثقة ، فيعترفون بفضلك ،
ويُقرُّون بمقدرتك . وهذا أكبر مُشجّع أدبي للإقدام ، وعدم
الخوف من المسؤولية .

فالمسؤولية تجعل القوي أقوى ، وتُصيِّر الضعيف أضعف ،
فينبغي ألا تُعطى إلا من يستحقها .

(٣) الصبر :

الصبرُ فضيلةٌ تُمَكِّنُ العقلَ من القيامِ بوظائفه العقليةِ في هدوءٍ وثباتٍ ، وتُثَقِّدُهُ من الاضطرابِ عندَ الشدائدِ ، وتجعلُ الإنسانَ هادئًا ، رزينًا ، بعيدًا عن الطيشِ والاندفاعِ في الأشياءِ من غيرِ تفكيرٍ في العواقبِ .

وقد سأل (وليام پِت^(١)) ذاتَ مرةٍ : « ما أهمُّ صفةٍ يجب أن يتصفَ بها رئيسُ الوزارة ؟ »

فأجاب أحدُ الحاضرين : « الفصاحةُ » . وقال آخر : « العلمُ » ، وقال ثالث : « الجِدُّ في العمل » . فقال (وليام پِت) : « إن أهمَّ صفةٍ يجب أن يتصفَ بها رئيسُ الوزارة هي الصبرُ » . والحقُّ أن الصبرَ ضروريٌّ لالرؤساءِ فحسبُ ، ولكنَّ للمرءَ وسينَ العاديينَ أيضًا .

وقد كَانَ خالدُ بْنُ الوليدِ يَسِيرُ في صفوفِ الحربِ ، وَيُشَجِّعُ الناسَ ويقولُ لهم : « يا أَهْلَ الإِسْلامِ ! إنَّ الصبرَ عِزٌّ ، وإنَّ الفشلَ عِجْزٌ ، وإنَّ النَّصْرَ معَ الصبرِ » .

(١) William Pit (١٧٥٩ — ١٨٠٦ م .) : كان من أكبر السياسيين من الإنكليز المعروفين بالخطابة وحسن البيان .

وقد سأل عمرُ بنُ الخطابِ رضى الله عنه بنى عبسٍ : كيف كنتم
تَقْهَرُونَ من ناوأكم^(١) ، ولستم بأكثرَ منهم عدداً ولا مالا ؟
فقالوا : كنا نصبرُ بعدَ اللقاءِ (لقاء الجيش) هُنيئةً^(٢) .

وقال على كرم الله وجهه : « الصبرُ مطيةٌ لا تكبو^(٣) ، وسيفٌ
لا يَنْبو^(٤) » .

وكانَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضى الله عنهما يقول : إنكم لا تَنالونَ
ما تُحِبُّونَ إلا بتركِ ما تشتهون ، ولا تدركون ما تؤمِّلون إلا بالصبرِ
على ما تكرهون .

وقال ضائبُ بن الحارث البرجمي :

ولا خيرَ فيمن لا يُوطِّن^(٥) نفسه * على نائباتِ^(٦) الدهرِ حينَ تنوبُ
والجزعُ معناه العجزُ عن ضبطِ النفس ، والإخفاقُ في وجهِ
القوةِ والحِمِيَّةِ والحرارةِ — التي تُسيِّرُ العقلَ نحوَ النصرِ والظفرِ —
ومعناه الخيبةُ في العمل . والشخصيةُ القويةُ تُنافي مع الجزعِ وعدمِ
الصبرِ . وكما أن الصبرَ يُوَدِّي إلى النجاح ، فالجزعُ يُوَدِّي إلى الإخفاقِ

(١) ناوأه مُناوأةً ونِواءً : عاداهُ . يقال : إذا ناوأَتِ الرجالَ فاصبر .

(٢) وقتاً يسيراً . (٣) لا تسقط . (٤) لا يخيب . (٥) يُعوِّدُ

(٦) النائبة : المصيبة .

في كلِّ شيء . ولا توجد العظمةُ بين الرجالِ إلا حيثُ يُوجدُ الصبر . والضعيفُ الصبورُ قوىٌ بصبره ، والقوىُّ الجزعُ ضعيفٌ بجزعه . وإذا وُجد الصبرُ أُرْسِلَتْ أشعةٌ من النورِ إلى الشخصِ فيثبُّ بنفسه ، ويجهِدُ في إيجادِ جَوٍّ للفوزِ والنجاحِ في العمل . وإذا ذهبَ الصبرُ ذهبَت الراحةُ والهدوءُ ، واضطربتِ النفسُ ، وقلِقَ الفكرُ .

فينبغي أن يتحلَّى الإنسانُ بالصبر ، ويشتغلَ بقدرِ طاقته ، وينتفعَ بالفرصِ التي تمرُّ به ؛ كي يصلَ إلى غرضه ، ويبرزَ وجوده في هذه الحياة . وإن الصبرَ مع الضعفِ أقوى وأشدُّ أثراً من الجزعِ مع القوة . والمثابرةُ على العملِ مع عدمِ المبالاةِ بالنتائجِ أحسنُ وسيلةً للفوزِ والانتصارِ في كلِّ عملٍ من الأعمال .

قال صلى الله عليه وسلم : « الصبرُ نصفُ الإيمان » ، وقال أيضاً : « إذا ثَبَّتْ أَصْبَتْ أَوْ كَدَتْ تُصِيبُ ، وإذا اسْتَعْجَلَتْ أَخْطَأَتْ أَوْ كَدَتْ تُخْطِئُ » .

وقال المسيحُ عليه السلام : « إنكم لا تُدرِكون ما تحبون إلا بصبرٍ كم على ما تكررهُون » .

وقال على كرم الله وجهه : « الصبرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . ولا جسد لمن لا رأس له . ولا إيمان لمن لا صبر له . وقال أيضاً : لا يعدمُ الصبورُ الظفرَ وإن طال به الزمانُ » .

وقال الإمام المرحومُ الشيخ محمد عبده : « الصبرُ خلقٌ من أمهات الأخلاق ، بل مساكٌ كلُّ خلقٍ » .

ولتتمثل (بإسحق نيوتن) الفيلسوف الإنكليزي الكبير (١٦٤٢ — ١٧٢٧ م .) والعالم العظيم ؛ فإنه ما كان ذا قريحة ^(١) وقادة ، وذلكاء في مدرسته ، بيد أنه عُرف بالصبر والجِد ، ومضاء ^(٢) العزيمة ، حتى لقد أنبه معلمه مرةً فغضب وقال : « ياسيدي إنني وإن كنتُ عاجزاً لستُ مُقصرّاً ، وثقْ بأنني قد بذلتُ كلَّ جهدي في استذكار دروسي » .

ولقد سُئِلَ (نيوتن) مرةً : كيف أَسْتَنْبَطْتُ كلَّ هذه المستنبطات الغريبة ؟ فأجاب : بالتأمل المستمرِّ فيها ؛ فقد كنتُ أضعُ الموضوعَ نُصبَ عيني ، وأنابرُ على مزاولته وعلاجه ، حتى يَبْزَغَ ضَوْؤُه ، ويصيرَ

نوراً ساطعاً. ومن أقواله المأثورة: « إن كنت قد أدبت للعالم خدمة فباجتهادى وجلدى^(١) ».

وفي المثل الإنكليزي: « الحجر المتدحرج لا يثبت عليه العشب ». وفي المثل الفرنسي: « النبوغ صبرٌ طويل ». والحق أن أعظم هبة طبيعية منحها الإنسان هي الصبر؛ فبالصبر والمثابرة يصل الإنسان إلى مُبتغاه. وبالجزع وضعف العزيمة يُخفق في عمله مهما يؤت من ذكاء.

(٤) المثابرة : Determination

إن المثابرة وقوة الإرادة من أهم صفات الشخصية العظيمة. وممن عرفوا بالإرادة الحديدية خالد بن الوليد، والإسكندر المقدوني، و نابليون بونابرت، وجورج واشنطن، والزعيم الخالد الذكر سعد زغلول باشا، وكثير غيرهم من العظماء، ومنهم السير (فول بكستون^(٢)) الذي بذل جهداً عظيماً في حركة تحرير الأرقاء في أيام (ولبرفورس^(٣))؛ فقد كان (بكستون) لا يعرف الرجوع إلى الوراء. ومن نصائحه المأثورة عنه للقراء:

(١) لا تترك كتاباً تقرؤه حتى تُتمّه .

(ب) لا تظن أنك قد أنهيت من الكتاب إلا إذا فهمته جيداً .

(ج) حَكِّمْ عقلك في جميع ما تقرأ .

وفي نهاية حياته التي لم يشعر فيها براحةٍ قال : « إني واثقٌ بأن
الفرق العظيم بين الناس قُوَّيهم وضعيفهم ، عظيمهم وحقيرهم ، في
النشاط ، وقوَّة العزيمة ، وتحديد الغرض ، ثم النصر أو الموت » .

وحيثما وجدت الإرادة الحديدية وجدت قوة الشخصية . ولا
يكفي أن تقول : أريد أن أكون كذا ، أو أحبُّ أن أفعل كذا ،
أو أرغب في كذا ، بل يجب أن تكون الإرادة قوَّةً ، والعزم شديداً ،
والرغبة كبيرةً ، ثم تُصحب هذه الرغبة بعزيمة ثابتة لا تعرفُ
الضعف ، وهمة عظيمة تستلذُّ التعب ، وتثابر في عملك حتى تنجح في
الوصول إلى أُمْنِيَّتِكَ . وإنك لا تستطيع أن تنتفع بالحديد وتصوره
كيف شئت إلا إذا كان مصهوراً شديداً الحرارة . فإذا ما تركته حتى
أصبح بارداً فمن الصعب أن تُكوِّن منه شيئاً .

وبعرفة الشيء ، وإدراك نتائجه ، يمكن تحريك العاطفة ، وإظهار
القوَّة ، وتقوية العزيمة والإرادة ، فينظر الإنسان إلى الأمام ، ويعملُ

إلى النهاية، غير مُبالٍ بالخطر ما دام يعتقد في الفوز والنجاح، والوصول إلى الغرض. ولن يؤثر فيه مدحٌ أو ذمٌّ متى شعر في نفسه بأنه إذا عزم على شيء فلن يستريح حتى يحققه وينتصر عليه.

قال أبو جعفر المنصور:

إذا كنتَ ذارأيَّ فكُنْ ذاعزِيَّةً * فَإِنَّ فسادَ الرأيِ أنْ تتردداً
وقد أمرَ الإسكندرُ المقدونيُّ أحدَ قوَّادِهِ بالإغارةِ على حصنٍ
أمنعَ من عُقابِ الجوِّ، خالفه القائدُ قائلاً: يا سيدي إن ذلك مما
لا يُستطاع. فصاح الإسكندرُ في وجهه مُغضباً: «لا شيء في العالمِ
محالٌ على مَنْ يبذلُ جهداً، ويُضَيِّعُ عزمًا». ولم يمضِ إلا قليلٌ حتى
أخضعَ الإسكندرُ عدوَّهُ، ودمَّرَ حصونَهُ، وأذلَّ حُماةَهُ.

وكان نابليونُ إمبراطورُ فرنسا (١٧٦٩ — ١٨٢١ م.) يكره من
الكلماتِ ثلاثاً: «لا أعرف — لا أستطيع — محال». فكان جوابُهُ
عن الأولى: «تعلم». وعن الثانية: «حاول». وعن الثالثة: «جرب».

الفصل الثامن عشر

(ب) الإخلاص Sincerity

الإخلاصُ هو الصفاء ، هو الصدقُ في القولِ والعمل ، هو المروءة ، هو أن تعملَ في السِّرِّ ما لا تستَحْيِي منه في العلانية ، هو البعدُ عن الكذب والرياء والنفاق . يقول الشاعرُ العربيُّ :

فِسرِّي كإِعلاني ، وتلكَ خَلِيقَتِي * وظُلُمَةُ لَيْلِي مِثْلُ ضَوْءِ نَهَارِيَا
وهذا هو الإخلاصُ عِنه ، وهو روحُ الشخصية . وإذا قيل إن فلاناً أبيضُ القلب ، صافي السريرة ، صادقٌ صريحٌ في قوله ، فأعتقدُ أنه مخلصٌ ، وأن له شخصيةً جذابةً .

فالإخلاصُ يُظهرُ العقلَ حقيقةً من غير زيادةٍ أو نقصٍ أو مبالغةٍ أو رياءٍ أو كذب . وحينما يَنْتَفِي الإخلاصُ يُحَاوِلُ العقلُ أن يُخْفِيَ حقيقته ، فيغير الحقائقَ عمداً أو عن غير عمد ، ويجعلُ الحقَّ باطلاً ، والباطلَ حقاً ، والبعيدَ قريباً ، والقريبَ بعيداً . وليس هذا من الإخلاص في شيء .

وللإخلاص أثرٌ كبيرٌ في شخصية الإنسان ، وفي نجاحه في عمله ،
وفي حياته العلمية والاجتماعية والاقتصادية . ولا أحد يستطيع أن ينجح
إلى النهاية بالغش والكذب والخيانة . وإن الذين يلجئون إلى هذه
الدنيا المنافية للإخلاص يخسرون أكثر مما يربحون . ومن المحال
تأسيس عمل عظيم من الأعمال إلا على أسس قوية من الصدق
والأمانة والإخلاص والجِد . وقد نغش بعض الأفراد مدة من الزمن ،
ولكننا لا يمكننا أن نغش الجميع ونضلّهم ونضلّهم إلى النهاية .

وما الأسماء العظيمة والجماعات الكبيرة المحترمة ، والشركات
التجارية المشهورة ، والمصارف الموثوقة بها إلا أثرٌ من آثار
الإخلاص والأمانة والصدق في المعاملة . وإذا ذهبَت الأمانة ، وهي
روحُ الإخلاص ، ذهبَت هذه الأسماء والجماعات والشركات
والمصارف ، وأصبحت في خبرِ كان .

يقول (إمرسون) الأمريكي : « إن الشرط الأساسي للنجاح
في العمل هو الغيرة على العمل . والغيرة نتيجة الإخلاص » . وإن
عدم إخلاصنا يقلل من ثقتنا بغيرنا ؛ فاللص يعتقد أن الناس جميعاً

لصوص . والخائنُ يعتقدُ أنه كغيره من النَّاسِ ، وأنهم كلَّهم خَوَنَةٌ .
والجَرمُ يُظنُّ أن السَّكَّالَ مجرمٌ مثله . وفي الوقت الذي يرتكب فيه
الشَّخصُ عمداً خطيئةً من الخطايا يعتقد في هذه الخطيئة ،
ولا يثق بغيرها .

وتظاهرُ الإنسان بغير الحقيقة ينشأ عن عدم الإخلاص ؛ لأنَّ
فيه تشويهاً للحقائق ، وتضليلاً لغيره بالكذب حيناً ، والمبالغة
الممقوتة حيناً آخر . وإذا عُرِفَتْ حقيقة المتظاهر — وسرَّان
ما تُعرف — وأتضح أمره ، شكَّ النَّاسُ في كلامه ، وقلَّتْ
أو فُقدَتْ ثقتهم به . ومتى فُقدَت الثقة بالشَّخص ضاعت شخصيتهُ .
ولا يتظاهرُ بالعلم — كما قلنا — إلَّا من يشعرُ بالجهل . ولا يتظاهرُ
بالغنى إلَّا الفقراء . ولا يدَّعي القوةَ إلَّا الضَّعفاء . وإذا أُستطاع
الإنسانُ أن يخدعَ النَّاسَ جميعاً فإنه لا يستطيع أن يخدعَ نفسه .
وإذا ضاعت ثقته بنفسه فمن المحال أن يشعرَ بالقوة .

يقول (مارك رَذَرْفورد)^(١) : « إنه لا يوجدُ إنسانَ كلَّه رياءً
أو كلَّه إخلاصاً ؛ فنحن جميعاً مُراءون في كل أقوالنا ، وفي كل أفعالنا ،

وفي جميع أفكارنا . أما الإخلاص فيتوقف على طبيعة الشخص ؛ بمعنى أنه إن كان لديه ميل فطري للإخلاص ، فمن الممكن أن يكون مخلصاً بعض الإخلاص ، لا الإخلاص كله .

وإننا نأسف إذا قبلنا هذا القول كما هو من غير أن يذكر لنا دليل يثبتته . ولكننا نسلم بأن الإخلاص نادر ، وأن المخلصين قليلون ، ونعترف بأنه قوة جذابة ليس فوقها قوة . ولهذا القائل العذر فيما قال ؛ فالحياة مملوءة بالخجلات من الرياء والكذب والنفاق والغش والتضليل والنقائص المضادة للإخلاص .

ومن العظمة النفسية أن يكون الإنسان مخلصاً ، وفيما ، أميناً في قوله وعمله . ومن الإخلاص أن يكون الإنسان صريحاً يقول ما يعتقد بكل أمانة وشجاعة . ولكن كم يُقاسى الشخص في سبيل الصراحة ؟ وأين المكان أو الزمان الذي يسمح بالصراحة ، الصراحة في إبداء الرأي ؟ إننا لا نقول كل ما نعتقد ، ونحن ضحايا البيئة والعادات . وإننا في سيرنا وأحوالنا نعمل على ألا نخالف البيئة التي نعيش فيها ، والعادات التي رُيِّنا عليها . ولكن ما ثمن هذا ؟ الثمن

هو تشويه الشخصية الإنسانية ، وإضعاف نفوذها أو تأثيرها الشخصي . وكيف يمكن أن نُؤثِّرَ في الناس ، ونملك قلوبهم ، ونكتسب احترامهم ، ونتمتع بثقتهم إذا سرنا وراء الستار ، ولم نقف أمام إخواننا وأبنائنا بأنفسنا الحقيقية ؟ كيف نحصل على ثقتهم ، أو نُؤثِّرَ فيهم إذا قلنا ما لا نعتقد ، واعتقدنا ما لم نقل ، وكنا غير مخلصين ؟

ففي عدم إخلاصنا ظلم لأنفسنا ، وظلم لغيرنا ممن يتصلون بنا ، من أبناء وأقارب وأصدقاء ، وغيرهم . وهو إذا وُجد في الجواهر النفيسة عُدَّة نقصاً كبيراً . وإذا حُرِمَ الإنسانُ الإخلاص ، فقد حُرِمَ أكبر قوة جاذبية وجمال طبيعي في الحياة الإنسانية .

قال المرحوم سعد زغلول باشا وهو وكيل الجمعية التشريعية :
« لا عيبَ فينا في الرجوع إلى الحق متى ظهر لنا ؛ لأننا ما جئنا هنا لندافع عن أنفسنا ، بل لندافع عن الحق ونؤيده » .

وقد وضَّحَ (چون بنیان) في كتابه الثمين : « نجاج الحاج ^(١) »

(١) The Pilgrim's Progress تأليف John Bunyan . وقد كتب « بنیان » عدة كتب وهو في سجنه ، أشهرها الكتاب المذكور ، وقد ترجم لغات العالم .

ما كان عليه أهل عصره من غشٍّ وخِداعٍ ورياء . ذكر أنه قد زاره في سجنه أحد المدَّعين من جماعة الأصدقاء^(١) ، وأخبره أنه أحضر له رسالة من الله ، واعتذر له عن التأخير في تسليمها بأنه زار نصف سجون إنجلترا ، وهو يبحث عنه ، وأنه مسرورٌ كلَّ السرورِ للعثور عليه أخيراً . فأحسَّ (بنيان) في الحال عدمَ إخلاصِ هذا الرجلِ الكاذب ، فقال له : « لو كنت مُرسلاً من عندِ الله ما كنت في حاجةٍ إلى هذا التعبِ في البحثِ عني في جميع السجون ؛ لأنه يعلمُ أنني في سجنِ (بدفورد) منذُ سبعِ سنين مَضَتْ » .

وبإخلاصِ (بنيان) اكتسبَ كثيراً من تقديرِ الجمهورِ له .
ومما يُساعدُ على الإخلاصِ :

(١) الدقةُ في القولِ تدقيقنا في النقود ؛ فأقوالُ الإنسانِ هي المرأةُ التي يَرى منها عقله . ومن العيوبِ الشائعةِ التهاوُنُ في استعمالِ الكلماتِ ، وأدعانا معرفةَ أشياءٍ قد نجهلُها .

(٢) الدقةُ في التفكيرِ ؛ فنزِنُ ما نقوله بِمِيزانِ الحقيقةِ خدمةً للحقيقةِ ، ونذكرُ ما نعتقدُ بكلِّ شجاعةٍ وأمانةٍ .

وإننا لا نتطلبُ الإخلاصَ في القولِ فحسبُ ، بل نتطلبُ أيضاً
الإخلاصَ في الكتابةِ ، والإخلاصَ في الفعلِ ؛ كي لا نخدعَ أنفسنا ،
ونُضللَ غيرنا .

والإخلاصُ يُستدعى إظهارَ الحقيقةِ كما هي ، مع الدقةِ في التفكيرِ
والقولِ والكتابةِ ؛ فلا نقولُ إلا ما نعتقد ، ولا نمدحُ إلا من
يستحقُّ المدحَ ، ولا نقُدُّ إلا من يستحقُّ النقدَ ، ولا نحكمُ إلا بما
تُلمية علينا ضمائرنا ، ولا نستعملُ الظروفَ والصفاتِ وأفعالَ التفضيلِ
إلا بكلِّ حكمةٍ ودقةٍ في التعبيرِ .

فكما تجبُ الدقةُ في العُملةِ كذلك تجبُ الدقةُ في الكلامِ ، بحيث
يتفقُ منطقُ الرجلِ مع عقله ، وعقله مع منطقهِ ، وقوله مع تفكيرهِ ،
وتفكيرُهُ مع قوله . ولتتذكرْ دائماً أن الكلامَ إذا خرجَ من القلبِ
وقعَ في القلبِ ، وإذا خرجَ من اللسانِ فإنه لن يجاوزَ الآذانَ .
ولنعملْ بما نقولُ حتى لا نوصَفَ بالرياءِ والتضليلِ ؛ قال تعالى :
« كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » . وقال الله لعيسى
عليه السلام : « يا ابنَ مريمَ عِظْ نَفْسَكَ ، فَإِنْ أَتَعَّظْتَ فَعِظِ النَّاسَ ،
وإِلَّا فَاسْتَحِ مَنِي » .

الفصل التاسع عشر

(ج) الحماسة Enthusiasm

الحماسة نوعٌ من الشجاعة تُصحبُ بالشعورِ القويِّ والإقدام .
ولا نريدُ بالحماسة تلك التي تؤدِّي بنا إلى السيرِ في الطريقِ المظلمِ في
الحياة ، ولكننا نريدُ الحماسة المصحوبةَ بقوةِ الإيمانِ من جهة ،
والتفكيرِ من جهةٍ أخرى .

ولا يكفي للنجاح في الحياة أن يكونَ الإنسانُ ذكيًا ماهرًا .
بل يجب أن يتحدَّ مع الذكاء والمهارة قوةً أخرى هي الحماسة ،
والغيرةُ الطبيعية . وما الفائدةُ من أن يصلَ العالمُ الباحثُ إلى نظريةٍ
من النظريات ، أو فكرةٍ من الأفكار ، إذا لم يستطع أن يُنفذَها
لعدم وجودِ الحماسة أو الشجاعة الكافية لديه ؟ إنه لا فائدة من
نظرياتٍ لا يمكنُ تطبيقُها عمليًا .

ولكن هل يمكن أن نبثَّ الحماسة ونولِّدها في النفوسِ الباردة ؟
والجواب : نعم يمكننا أن نعوِّدَ الطفلَ من الصغرِ الإقدامَ والشجاعةَ ،

والقيامَ بالعمل ، والاعتمادَ على النفس في كثير من الأعمال . وهناك أشياء ليست بالقليلة نثقُ بأنها مفيدةٌ ، ونتأجَّجها حسنة ، ومع ذلك نتردَّدُ في تنفيذِها ، نقدِّمُ رجلاً ونؤخِّرُ أخرى ؛ لقلَّةِ حماسَتِنَا ، وخَوَرِ عزيمَتِنَا ، وضعفِ إرادَتِنَا . وكثيراً ما تمرُّ الفرصُ أمامَ أعينِنَا ، وتضيعُ منا بسببِ ذلك النقص . وكلُّ ما نحتاجُ إليه لمعالجةِ هذا النقصِ هو أن نفكرَ في الشيءِ أولاً ، فإذا بدا لنا صوابه فلننصحبَه بالعملِ وقوةِ العزيمة . وإذا وثقتَ بطريقك فأسرعْ في خطاك ، وسرِّ في سبيلك حتى تصلَ إلى النهاية .

قال (إمرسون) الكاتبُ الأمريكيُّ : « بغيرِ الحماسةِ لا يمكنُ القيامُ بأمرٍ عظيمٍ في الحياة . ولأجل أن يكونَ الخلقُ عظيماً ، وتكونَ الشخصيةُ قويةً يجب أن يُضاهى بقوةٍ من الحرارة » .
وتكونُ الحماسةُ بتشجيعِ الطفلِ على أن يطلِّعَ على ما يحسُنُ الاطلاعُ عليه ، وأن يرى ما تحسُنُ رؤيته ، وأن يبحثَ عن الحسناتِ أكثرَ من البحثِ عن السيئاتِ ، وأن يستحسنَ أكثرَ مما يستقبح ، وأن يوافقَ أكثرَ من أن يُخالف ، وأن يُثبتَ أكثرَ مما ينفى ، وأن يُشجِّعَ أكثرَ من أن يُثبِّط .

والأملُ في المسِنَّ — الذي بلغ من العمر سبعين سنةً ، المملوء
حماسةً ونشاطاً ، أكثرُ من الأملِ في الشابِّ الضعيف ، المتردّد ،
الجبان . والأملُ محالٌّ في النفوس الضعيفة المترددة في كل شيء ، وفي
أقلِّ شيء . ولا رجاء في العالم إذا وُضِعَت اليدُ الباردة ، يدُ الجبن ، على
قلوبِ الشباب . فإذا أُعْطِيتَ أيَّ فرصةٍ ففكّرْ ملياً ، ثم إذا
أُستصوبتَ الأمرُ فأقْدِمْ ، ولا تتردّد ، ولا تخفْ صغر السنِّ ،
ما دمتَ على صواب . ومن الخطأ أن يُظنَّ الإنسانُ أنه صارَ
كبير السنِّ ، ولا يُرجى منه عملٌ . ولا تعجب إذا سمعتَ أن
(المستر جلا دِستون^(١)) لم يبتدئ أعماله العظيمة إلا في سنِّ الخمسين .
فعاملُ السنِّ لا يؤثرُ في الحماسةِ كلَّ التأثير كما يُظنُّ . والشبابُ
شيءٌ نسبيٌّ ؛ فقد تجدُ روحَ الشبابِ في بعض الشيوخ ، وتجدُ روحَ
الشيوخ في بعض الشبان .

والإنسانُ يأسفُ إذا قال : إن معظمَ الشبانِ لدينا مُنصرفون إلى
الملاهي ، لا يفكرون إلا في اللذاتِ ، وآمالهم ضعيفةٌ في الحياة ، وكلها
موجّهةٌ إلى الوظائفِ مهما تكنَ وضيعةٌ . أما الإقدامُ على الأعمالِ

الحرّة قليل . وإذا دخلوا ذلك الميدان كانوا مُضطربين . والحماسة بعيدة عنهم ، وهم بعيدون عنها . والإيمانُ بعيدٌ عن قلوبهم ، فهم يعملون عن غير عزيمة أو عقيدة . وقد أصبحت العقولُ مظلمة ، عليها طبقةٌ كثيفةٌ من السُحُبِ والغيوم ، وصارت الأرواحُ ضعيفةً خاملة . ونحن في حاجةٍ إلى الخيالِ والشَّعرِ والموسيقا ؛ حتى تُبعثَ روحُ الحماسة في النفوس ، وتُوجدَ الشخصياتُ الفدّةُ ، كما أننا في حاجةٍ إلى أن نشعرَ بأننا خُلِقنا في هذا العالمِ لنقومَ بتبليغِ رسالةٍ وطنيةٍ أو علميّةٍ أو اجتماعيّةٍ أو خُلقيةٍ أو صحيّة ، ونُمثِّلَ دوراً عظيماً في روايةِ الحياة .

وبجانبِ التعودِ والخيالِ والأملِ نحتاجُ في بثِّ الحماسة في النفوسِ إلى قوةِ الهجوم ، وروحِ الاحتجاجِ والمعارضةِ حينما نُقابلُ أو نُفاجأُ بالمصاعِبِ والعوائقِ التي تعوقنا عن القيامِ بالعمل . فإذا أردتَ أن أنجحَ في عملي فابذلْ كلَّ ما تستطيعُ من جُهدٍ وعملٍ ، واعملْ بجد ، ثم ثابرْ على هذا العمل ، وباللهِ توفيقك .

وينشأُ عدمُ الحماسةِ عن الشكِّ وعن الخُبثِ ، وهما من الدُّ أعداءِ الشخصية . قال (رُوبرت لُويس ستيفنسون^(١)) : «إني أمقت الخُبثِ

(١) Robert Louis Stevenson (١٨٥٠ — ١٨٩٤ م .) : كاتب

إنكليزي ، قضى كثيراً من حياته القصيرة مريضاً . وكتب معظم كتبه وهو على فراش المرض . وهو خير مثل في قوة الروح ، وقوة الإرادة .

(Cynicism) أكثر من مقتى للشيطان إذا كان الاثنان شيئاً واحداً. «
فلنترك كثرة التشكك والتردد، ولنجنب الوسوسة في كل شيء،
ولنتمسك بالجهد والعمل والإقدام كي نتصل بالقوى العظيمة في
الحياة. ولنسِر مع الجماعة، ولا نقف في عزلة؛ ففي الجماعة قوة، وفي
العزلة ضعف. وفي القوة عظمة، وفي الضعف مذلة.

ومن الحماسة أن تُعبّر عما في نفسك بالقول والفعل تعبيراً حسناً؛
فلتحسن التعبير أثر كبير في الشخصية. ومما يقال عن سيدة أساءت
التعبير عن شعورها ووجدانها أنها أخذت تبكي مما شاهدته في
رواية تمثيلية خيالية، في حين أنها تركت سائق عجلتها في البرد حتى
تجمد ومات وهو ينتظرها في خارج المسرح. فينبغي أن يفكر
الإنسان في غيره، ويشاركه في شعوره، ويفكر في الحقيقة أكثر
من تفكيره في الخيال، ويُقدّم حيث يجب الإقدام، ويمتنع
حيث يجب الامتناع، كي يثّل دوره، ويقوم بواجبه، ويحقق
الحكمة من وجوده وهي العمل.

(٥) قوة الإحساس (Sensitive)

إن قوة الإحساس من أكبر المؤثرات في الشخصية القوية ،
وبعضها ينسب إلى الوراثة ، وبعضها مكتسب بالتربية والخبرة
والتهذيب . وإن الإنسان الصادق الحس ، الحسن البصيرة ليس
بدكي فحسب ، ولكنه حسن التقدير والحكم على الأشياء ؛ يرى
الفرصة فيتهزها ، وينتفع بها . والفرص تمر بنا جميعاً ، وقد تمر
عبثاً ولا نحسها ، وإذا أحسناها فقد نتركها حتى تمر مرّ الرياح ،
وتذهب سُدًى .

فالمساواة في الفرصة لا تكفي وحدها ، ولكن يجب الشعور بها
والاستفادة منها . ولو أمكن أن نعطي الناس في الغد فرصة واحدة ،
فإننا نجد قليلين جداً لديهم القدرة على رؤيتها أو الانتفاع بها في
حينها . أما الكثيرون فربما لا يلاحظون مجيئها أو مرورها إلا بعد
انتهائها ، ولكنهم يُظهرون أنهم عقلاء حكماء يتمثل فيهم العقل
والحكمة بعد زوال الفرصة .

وهناك أفرادٌ لهم أعينٌ لا يُبصرون بها ، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها . وليس السببُ في قلةِ الرؤيةِ أو السمعِ ناشئاً عن ضعفِ ما أُوتوا من إحساس ، ولكنه ناشئٌ عن إهمالِ ما لديهم من الإحساس ، وعن عدمِ الانتفاعِ بما مُنحُوا من مواهبٍ وميولٍ وأمزجةٍ وسجايا . وإذا مدحنا صديقَ الحسِّ ، وإجابةَ الداعي ، وقوةَ الإحساسِ في الإنسان ، فإننا لا نمدحُ أن يكون شديدَ الإحساسِ (Sensitive) ، بحيث يتأثرُ لأقلِّ شيءٍ ، بل نطالبُ أن يُحدِّدَ هذا الإحساسُ حتى يعتادَ الشخصُ ضبطَ نفسه ، وكتمانَ شعوره ، فلا يكون شديدَ التأثرِ لأتفهِّ الأسبابِ . فضبطُ النفسِ هو روحُ الشخصيةِ وقوتُها المعنوية . وقد وصفَ الشاعرُ الإنكليزيُّ (شيلي) ^(١) النباتَ الحساسَ في قصيدةٍ له بهذا العنوان ^(٢) ، فقال :

« قد نما النباتُ الحساسُ ^(٣) في الحديقة ، ثم غَذَاهُ النسيمُ العليل

(١) Percy Bysshe Shelley : شاعر إنكليزي من شعراء الطبيعة ، معروف

بـ Sensitive Plant (٢)

محبه للطبيعة ، وغيرته على الإصلاح .

« A Sensitive Plant in a garden grew

(٣)

And the young Winds fed it with silver dew,
And it opened its face like leaves to the light,
And closed them beneath the kisse of night . »

بالطَّل^(١) الفضى . وفتحَ للنَّورِ وُجوهاً من الأوراق ، ثم طَوَّاهَا تحت
قُبَلاتِ الليل . »

وإن معرفة متى نفتحُ عقولنا لاستقبال تلك الآثار التي لا حدَّ
لها في الحياة ، ومتى نمنعُها عن استقبالتها تستلزمُ أن نعرفَ كثيراً عن
أسرار الحياة ، وأسرار السعادة ؛ لأنَّ الجهلَ بتلك الأسرار قد يُؤدِّي
إلى تضحية الإنسانِ براحته العقلية ، وسعادته الداخلية .

لفصل العشرون

اضطراب الشخصية وانقسامها^(١)

الآن وقد تكلمنا عن الشخصية وماهيّتها^(٢) ، وعناصرها ، وأنواعها ، ومُضعفاتها ومُكملاتها ، لا يفوتنا قبل أن نختم هذا الفصل ، وهذا الكتاب ، أن نذكر كلمة موجزة عن اضطراب الشخصية وانقسامها ؛ لما للموضوع من الأهمية . وقد كتبت عنه كتب^(٣) باللغات الأجنبية المختلفة ، فارجع إليها إن شئت .

إن الإنسان وإن كان يُعدُّ وحدةً لا تتجزأ ، ربما لا تتحد دائماً ميوّله الفطريّة^(٤) المختلفة ، ورغباته المتعددة . وقد يتعارض بعضها مع بعضها الآخر ، فيختلف سلوك الإنسان باختلاف الأحوال .

وكثيراً ما نقولُ إنَّ سلوك فلان اليوم يختلف عن سلوكه العاديّ ، أو نقولُ إن فلاناً كاملٌ دائماً ؛ مُريدٍ بذلك أنه لا يتغيرُ مطلقاً ،

(٢) حقيقتها .

Disorders of Personality. (١)

(٣) راجع :

(A) Diseases of Personality, by Ribot, Eng. trans. 1891.

(B) Alterations of Personality, by Binet, Eng. Trans. 1896.

(٤) الطبيعية .

وأن ميوله متَّحدة ، في حين أننا نحكمُ على شخصٍ آخرَ بأنه رجلٌ لا يمكنُ التحققُ منه ، أو الثقةُ به ؛ لأنه كثيرُ التغيرِ والانقلاب ، وليس على حالٍ واحدة . ولكن من الكمالِ تهذيبُ الميولِ المختلفة ، والتوفيقُ بينها بحكمة ؛ حتى تكونَ شخصيةُ الإنسانِ كاملةً .

انقسام الشخصية^(١)

قد تنقسمُ الشخصيةُ وتتعدَّدُ وتسيرُ في أكثرَ من طريقٍ واحدة ، فيكونُ للإنسانِ شخصيتان أو أكثرُ : شخصيةٌ له في عمله ، وأخرى له في منزله مثلاً . وقد تكونُ الغرائزُ والميولُ والرغباتُ المسيطرةُ على الإنسانِ في هاتين الجهتين مختلفاً بعضها عن بعض ، فيختلفُ سلوكه تبعاً لاختلافها ؛ فبينما تراه في عمله قاسياً قظاً غليظاً جافاً ، إذ تجده في منزله مع زوجته وأبنائه وديعاً سهلاً كريماً . والشواهدُ على ذلك كثيرة . وإن روايةَ « الدكتور جيكِل والمِستر هايد »^(٢) مثلٌ واضحٌ في تعدُّدِ الشخصية ، وإن كان ذلك المثلُ

Dissociation of personality. (١)

Dr. Jekyll & Mr. Hyde. (٢)

أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة ؛ لأنه بعيدٌ عن الحياة الحقيقية .
وإذا قلنا بتعدد الشخصية وأنقسامها فكأننا سلمنا بأن هناك
شخصين في جسم واحد ، وفي هذا القول نظر . ولكن قد أثبتته
الدكتور (مؤرتون پرنس)^(١) كما سيأتى :

وقد تمرضُ الشخصيةُ الإنسانية وتضطرب تبعاً لاضطراب
الأعصاب والعقل ، فتختلُّ الذاكرة أو تُفقد ، ويضطرب التفكير ،
وتتغيرُ بعضُ مظاهر الجسم ، وتختلفُ قوة الإحساس ، كما يختلفُ
الميلُ والمزاجُ ، فيظهرُ المريضُ في حالةٍ غير حالته الطبيعية ، ويشعرُ
شعوراً مختلفاً ، ويبدى آراءً تخالف آراءه وهو في حالته الطبيعية
الأولى . ويقومُ بأعمال غريبة آليّة قد تعدُّ فوق الطاقة البشرية
العادية . ويُسيطرُ عليه في ذلك الوقتِ العقلُ الباطن . وقد يفكر
في أشياء لا وجودَ لها مطلقاً . وقد يتكلمُ في أمورٍ بعيدة عن العقل
والمنطق . وقد يعتقد أن له جسمين ينامان في سريرين مختلفين ،
والواقعُ أنه جسمٌ واحدٌ له شخصيتان أو أكثر .

وفي حالة الذهول واضطراب الشخصية ، والنوبة العصبية ، قد

يَشْعُرُ بعضُ المَرْضَى بأنهم فَقَدُوا أَسْنَانَهُمْ ، أَوْ فَقَدُوا مَعْدَتَهُمْ ، أَوْ أَصْبَحُوا
بِلَا أَرْجُلٍ ، وَمَا فَقَدُوا شَيْئًا مِنْ أَسْنَانِهِمْ أَوْ مَعْدَتِهِمْ أَوْ أَرْجُلِهِمْ . وَيُظَنُّ
آخَرُونَ أَنَّ أَجْسَامَهُمْ زَجَاجِيَّةٌ أَوْ خَشَبِيَّةٌ أَوْ مَصْنُوعَةٌ مِنَ الزُّبْدِ .

وقد يشْعُرُ المَرِيضُ بأنَّهُ خَفِيفُ الرُّوحِ ، وَيَزْعُمُ بِشَخْصِيَّتِهِ الْجَدِيدَةِ
أَنَّهُ عُنْتَرَةٌ فِي الْقُوَّةِ وَالْبَطُولَةِ ، أَوْ أَنَّهُ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ ، وَيَتَخَذَلُهُ
تَاجًا ، وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى ، وَيَتَظَاهَرُ بِتَظَاهِرِ الْأَبْهَةِ وَالْعِظْمَةِ ، أَوْ أَنَّهُ إِلَهٌ
خَالِقٌ لِهَذَا الْعَالَمِ ، مَنْظَمٌ لِهَذَا الْكَوْنِ ، أَوْ أَنَّهُ أَعْلَمُ الْعُلَمَاءِ ، وَشَيْخُ
الْفَلَسَفَةِ ، وَكَبِيرُ الْمَشْرِعِينَ لَا آخَرَ لِعِلْمِهِ ، وَلَا نِهَايَةَ لِفَضْلِهِ ، أَوْ أَنَّهُ
(فُورْدُ) فِي ثَرَوَتِهِ ، مَصَانِعُهُ لَا تَتَسَعُّ لَهَا بَقَاعُ الْأَرْضِ ، وَشِرَكَائِهِ تَحْتَلُّ
الْجَوَّ ، وَتَمَلَأُ الْبَحَارَ وَالْأَنْهَارَ ... وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ التَّخِيلَاتِ الَّتِي لَا حُدَّ
لَهَا وَلَا ضَابِطَ ، مِمَّا يَتَخِيلُهُ الْمَجَانِينُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ .

أُمثلة لانقسام الشخصية :

وَلَنَذْكُرْ هُنَا بَعْضَ الْأُمثَلِ لَانْقِسَامِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَتَعَائُبِ
شَخْصِيَّتَيْنِ ، أَوْ أَكْثَرَ عَلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ فِي حَالَاتِ الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ
وَالْعَصْبِيَّةِ الْمَزْمَنَةِ عِنْدَ الذُّهُولِ ، حَيْثُ يَفْقِدُ الْمَرِيضُ شَعُورَهُ وَيَتَشَبَّحُ .

(١) امرأةٌ قَضَتْ شَطْرًا من حياتها في العُهر، تلك الرذيلة التي يَنْدَى لها جبينُ الإنسانية، ثم ذهبتُ إلى الدير — وقد قُضِيَ على أعصابها — لتَقْضِيَ الشَّطْرَ الأخيرَ من حياتها في الرهبانية.

ففي أثناءِ التَّوْبَةِ العصبيةِ كانت تتعاقبُ عليها حالتان : حالةُ العُهر، وحالةُ الرهبانيةِ، فتتكلَّمُ آوَنَةً بلسانِ العاهرِ معتقدةً أنها عاهرٌ، في وقتٍ ليست فيه بالعاهر. وتتكلَّمُ حينًا بلسانِ الراهبةِ مُمَثِّلَةً حياةَ الراهبةِ. وفي كلتا الحالتين يتغيَّرُ صوتُها وحديثُها وأفكارُها، وتَبَدَّلُ حالُها، وتغيَّرُ ملابسُها، وتجدها في حالةٍ غيرِ حالتِها الطبيعيَّةِ وقتَ اليقظةِ كأنها امرأةٌ أخرى، وشخصٌ آخر، وكأنَّ المتكلِّمةَ شخصيَّةٌ أخرى غيرُ الشخصيّةِ التي تعرفها من قبل، شخصيَّةٌ جديدةٌ مختلفةٌ كلَّ الاختلاف، ولا عهدَ لك بها.

(٢) ضابطٌ فرنسيٌّ أنقذته الأمراضُ العصبيةُ بعد الحربِ العالميَّةِ الكبرى الأولى فترك حياةَ الجنديَّةِ، وانتسبَ إلى الدير ليحيي حياةَ الرهبانيةِ، فكان أحيانًا في حالةٍ ذُهوْلِهِ يتخيَّلُ أنه رجعَ إلى الجنديَّةِ، وأصبحَ جنديًّا كما كان، فيخلقُ ذُقْنَهُ. ويقصُّ شاربَهُ، ويخلعُ ملابسَ الرهبنةِ،

ويلبسُ ملابسَ الجندي ، ويُغيّرُ عادته ، ويتحدثُ حديثَ الضباط ، ويسيرُ سيرهم ، ويظهرُ بشخصيته الأولى ، حتى يظنّ من رآه أنه عاد ضابطاً كما كان .

(٣) ولدَ كان مريضاً بالماليخوليا ، لم يجدْ في طفولته أىَّ عناية ، وحُرِّمَ كلُّ شئٍ يُدعى تربيةً أو تعليماً . كان الشارعُ مأواه ، والطريقُ ملجأه ، والاستجداءُ مهنته ، يستجدي حيناً ، ويسرق حين لا يجدُ من يُعطى . أخذ يسرقُ حتى حُكِمَ عليه ، فأخذ إلى إصلاحية الأحداث ، وهناك تعلمَ صناعةَ الخياطة . وفي بعض الأحيان عند ذهوله واضطرابه تعودُ إليه شخصيته الأولى ، فينسى حياته الأخيرة ، وينسى معها الخياطة ، ولا يتذكرُ شيئاً عنها ، ولا يستطيعُ أن يخيّط شيئاً . ويصبحُ ثانية مثلاً للشريدِ الطريد ، واللصِّ الماهر ، والسائلِ المسكين ، فينتقلُ من الحالة الجديدة : حالة النظام وحسن السلوك إلى حالته الأولى ؛ حالة التشردِ والسرقَةِ ، والبذاءة والاستجداء .

(٤) ومما يؤثّر عن ابنِ سينا : أن رجلاً أُصيبَ بالماليخوليا ، قد أخذَ منه المرضُ كلَّ مأخذٍ ، حتى وصلتْ به الحالُ إلى أن كان يعتقدُ

أَنَّهُ أَصْبَحَ بَقْرَةً ، وَقَدْ امْتَنَعَ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مَعَ بَنِي الْإِنْسَانِ ،
وَصَارَ يُحَاكِي الْأَبْقَارَ فِي خَوَارِهَا ، وَيَحْبُثُ تَعَهْدَ امْكِنَتِهَا ،
وَالْأَكْلَ مَعَهَا ، وَمَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّى خَارَتْ قُوَاهُ ، وَضَعُفَ جِسْمُهُ ،
فَعَرَضَهُ ذُووهُ عَلَى الْأَطْبَاءِ ، فَعَجَزُوا عَنْ عِلَاجِهِ ، وَكَانَ ابْنُ سَيْنَا —
إِذَا ذَاكَ — مَشْهُورًا بِمَهَارَتِهِ فِي التَّطْيِيبِ وَعِلَاجِ مَرْضَى الْعُقُولِ ،
فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَفْرُوثًا مِنْ اسْتِدْعَائِهِ لِمُعَاجَزَةِ هَذَا الْمَرِيضِ . فَلَمَّا حَضَرَ
أَمَرَ بِإِحْضَارِ الْمَرِيضِ أَمَامَهُ ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، قَالَ لَهُ ابْنُ سَيْنَا :
مَا بِالْكَ ، وَمَا الَّذِي حَلَّ بِكَ ؟

فَأَجَابَهُ : لَمْ يَحِلْ بِي شَيْءٌ سِوَى أَنَّنِي أَصْبَحْتُ بَقْرَةً ؛ آكُلُ
مَا تَأْكُلُ الْبَقَرُ ، وَأَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ ، فَقَالَ لَهُ : إِذْنُ نَذْبَحْكَ ، قَالَ :
إِفْعَلْ مَا تَشَاءُ . فَأَمَرَ ابْنُ سَيْنَا بَأَن يُقَيِّدَ الْمَرِيضَ بِجَبَلٍ ، وَيُلْقَى عَلَى
الْأَرْضِ ، وَيُؤْتَى بِسَكِينٍ حَادٍ . فَلَمَّا أَتَى إِلَيْهِ بِالسَّكِينِ أَخَذَهُ ،
وَأَهْوَى عَلَى الْمَرِيضِ مَتَظَاهِرًا بِأَنَّهُ يَرِيدُ ذَبْحَهُ ، فَلَمَّا قَرُبَ مِنْ
نَحْرِهِ ، وَالسَّكِينُ فِي يَدِهِ ، قَالَ لَهُ : مَا بِالْ هَذِهِ الْبَقْرَةُ هَزِيلَةً ؟ إِنَّهَا
لَا تَصْلَحُ لِلذَّبْحِ . قَالَ : نَعَمْ ، إِنَّهَا تَصْلَحُ لِلذَّبْحِ فَادْبَحْ . فَقَالَ : لَا ،

لن أذبحها حتى تمتلئ لحماً وشحماً . فقال : وماذا أفعل حتى أصير سميناً ؟ فأجابهُ : تأكلُ كثيراً ، وتشربُ كما يأكلُ الناسُ ويشربون . فقال : أو تدبجني إن فعلتُ وأصبحتُ سميناً ؟ فقال : نعم . ثم أخذَ على نفسه العهدَ والمواثيقَ أن يفعلَ كما أمرَ . وأخذَ يأكلُ ويشربُ في حالٍ عاديةٍ ، فعادتْ إليه صحتهُ الطبيعيةُ ، وقوى جسمهُ ، فارتدَّ إليه عقلهُ ، وذهبَ عنه المرضُ .

ثم زاره ابنُ سينا بعدَ ذلك ، فلما رآه سليمَ الجسمِ والعقلِ ، قال : ما بالُ هذه البقرة قد سمنتْ ؟ فأجاب : نعم وقد أصبحتُ عاقلةً . وقد روى أنه عُرضَ على ابنِ سينا^(١) أحدُ الأمراءِ ، وقد أعيأ الأطباءُ أمرهُ ، فلما رآه وخاطبه في شأنِ مرضِهِ ، تبينَ له أن مرضَهُ هو الحبُّ ؛ ولم يشأَ المريضُ أن ييوحَ باسمِ محبوبتِهِ . ولما علمَ ابنُ سينا أن شفاءَ المريضِ متوقفٌ على معرفةِ محبوبتِهِ ، وإزالةِ ما عندهُ من وجداناتٍ وعواطفٍ كامنةٍ مرتبطةٍ بها ، أخذَ على عاتقه أن يعرفَ اسمَها بأى وسيلةٍ ، فأمرَ بإحضارِ أكبرِ سكانِ المدينةِ سنّاً ، فلما حضرَ قال له : أتعرفُ شوارعَ هذه المدينةِ وسُكَّانَها ؟ قال : نعم .

(١) تذكر هذه الحكاية للدلالة على مهارة ابن سينا في التحليل النفسى .

فأمره بأن يذكر أسماء الشوارع شارحاً شارحاً ، وهو قابضٌ على يد المريض ليتحقق من مقدار سرعة نبضه ، فلما ذكر الرجل اسم أحد الشوارع أسرع نبض المريض ، فأمر الرجل بأن يذكر أسماء الشوارع المتفرعة من هذا الشارع ، فلما أتى إلى اسم أحدها ازدادت سرعة النبض ثانية . فأمر الرجل أن يقص عليه أسماء البيوت الواقعة في هذا الشارع الصغير ، فلاحظ ابن سينا ازدياد نبضه عند ذكر أحد البيوت ، فقال له : أخبرني عن أسماء سكان هذا البيت من الفتيات . فلما أتى اسم المحبوبة أسرع النبض . فالتفت ابن سينا إلى المريض ، وقال له : أليست هذه محبوبتك ؟ فأجابه : نعم ، وبالبحت علم أنها ابنة عمه ، وأن الشاب كان يحبها حباً جماً ، ولم يجرؤ أن يُذيع سره خوفاً من أهله ، ولكنهم لما علموا أن شفاءه في التزوج بها زفوها إليه ، فبرئ من مرضه ، وعاد إلى حالته الطبيعية . فسبحان من يعلم السر وأخفى .

وهناك حالات أخرى وأمثلة كثيرة ، يضيق المقام عن ذكرها ، فارجع إليها في كتاب (بينيه) السابق الذكر ، أو في كتاب

(ما كُنِيش^(١)) إذا أردت .

وتلك الحالات كلها تبين أن الإنسان قد تتعدد شخصيته بغير ضابط ، وبغير نظام معين ، فتختلف شخصيته ، ويختلف سلوكه من حالة إلى أخرى ؛ فينما يكون في حالة اليقظة هادئاً ساكناً وديعاً إذ يكون في حالة الدهول شاكساً غضوباً شريراً .

وبقوة العقل الباطن تحمل الشخصية الثانية أو الشاذة مكان الشخصية الأولى أو الطبيعية بالتدرج . وفي أثناء النوبة قد يتذكر المريض تجاربه السابقة ، وما حدث له في الماضي ، ويتكلم كأنه يتكلم عن شخص آخر . وبعد اليقظة لا يستطيع أن يتذكر ما قاله أو فعله وهو في حالته الشاذة ، إلا بطريقة الإيحاء إذا نُوم .

وقد تجسّس الشخصية الثانية على الشخصية الأولى ، فتلاحظها من وراء ستار ، وعلى هذا ينقسم الشخص قسمين يعملان في وقت واحد ، ولكن في جهتين مختلفتين .

وبالطريقة الآتية قد ردّ الدكتور (مورتون پرنس) على من

يُشَكُّ في وجودِ شخصيّةٍ ثانية ؛ فقد أستطاع أن يَمَكِّن فتاةً من أن تنقلَ من حالتها الطبيعيّة إلى الحالةِ الشاذة ، ثم يعيدها إلى حالتها الأولى بطريقَةٍ تشبه طريقةَ التنويم المغنطيسيّ ، وأخبرها وهي في أثناء نومها أنها مكلفَةٌ أن تحلَّ مسائلَ حسابيّةٍ مُعينة ، ولم يُرها الأعدادَ الحقيقيّةَ في الجواب . رجعتُ إلى حالتها الأولى وهي حالة اليقظة ، فأراها إياها مدّةً وجيزةً من الزمن . ولما نوّمتُ مرةً ثانية وسُئلتُ عن الأجوبة ، أجابت في الحال وقالت : إن الأجوبةَ كانت حاضرةً لديها ، وكانت تنتظرُ إعلانها بفارغِ صبر . وهذا على الأقلّ مظهرٌ من المظاهر التي تؤيّد رأيَ (الدكتور برنس) : وهو أنَّ جزأين مختلفين من الشخص كانا يعملانِ في وقت واحدٍ عمداً . ولكن هل يحدثُ مثلُ ذلك في الحياةِ العاديةِ ؟ نعم يحدثُ للإنسانَ أمران ؛ أحدهما محزن ، والآخرُ سارٌّ ، في وقت واحد ؛ فبينما تراه حزيناَ لفقدِ عزيزٍ لديه مثلاً ، إذ تراه مسروراً لربحه عشرة آلاف من الدنانير في التجارة في ذلك اليوم .

أسباب انقسام الشخصية

وما يعترى المريض في حالته غير الطبيعية

إنَّ انقسام الشخصية حالة غير طبيعية للإنسان ، تنشأ عن صدمة وجدانية عيفة ، أوحادثة مُرعبة ، أو مفاجآت كلها أهوال ونكبات ، فتختل أعصاب الشخص ، ويضطرب عقله ، وتبدل حالته الطبيعية ، وتتغير إلى حالة أو حالات أخرى يختلف الشخص في أثنائها في تفكيره وآرائه ، وصوته وشعوره ، وميله ، ومزاجه ، وأقواله وأفعاله . والانتقال من حالة إلى أخرى قد يصحبه نوم عميق أو غيبوبة ؛ بأن يمكث مدة لا يشعر فيها بشيء . وقد يلاحظ هذا الانتقال قبل حدوثه ، وقد يظهر التغير بغتة ، كما قد يختفي بغتة في غير الموعد المعروف .

وقد حدث أن رجلاً سكيراً وجد ابنته الصغيرة التي تبلغ من العمر أربع سنوات نائمة في سريره ، فألقاها وهو في حالة السكر على الأرض بعنف ، ففزعت الطفلة أليماً فزع . ومن تلك اللحظة تغيرت شخصيتها ؛ فبعد أن كانت فرحة مريحة مبتسمة ضاحكة ، أصبحت

في حالةٍ أخرى ، تمثلُ الكآبة الدائمة ، والحزنَ المستمر ، وأخذت
الأمراضُ العصبيةُ تنتابها حتى قضتْ نحبها في العاشرة من عمرها ،
ولسانُ حالها يقول :

☆

هذا جَنَاهُ أَبِي عَلَيَّ وما جنيتُ على أحد

وذهبت الفتاةُ ضحيةَ الشكرِ وسوء التصرف .

والشخصيةُ الثانيةُ قد تَرثُ الشخصيةَ الأولى علماً وعملاً ، وربما
لا تَرثها مطلقاً ؛ فيترك الفردُ كأنه طفلٌ حديثُ الولادة ، لا يعلمُ عن
الحياة شيئاً ، ولا خبرةَ له بشيء ، وعليه أن يتعلمَ كلَّ شيءٍ من جديد ،
وإن كان يُرى كبيراً في جسمه . وقد يكون التغيرُ وقتياً في ساعاتٍ
مُعَيَّنة ، من أيامٍ مُعَيَّنة ، وقد يكون دائماً .

تحليلُ الشخصية

وبالتنويم المغنطيسي ، والتنويم الصناعي أو الطبيِّ بالخدِّرات
المختلفة^(١) تمكنُ دراسةُ بعضِ الحالاتِ العصبية وتحليلِ الشخصية .

(١) التنويم بالكوروفورم أو الكوكايين أو الأثير .

والمَنَوَمُ وإن كان فاقداً لشعوره ، لا يَدْرِى ما يدور حوله ^(١) ، يمكنه أن يُحَسَّ تحت تأثير الإيحاء .

ويُعَدُّ اضطرابُ الشخصيةِ حالةً من الحالات الشاذةِ كحالةِ مَشْيِ النائم ، وقيامه بأشياء غريبة تحت تأثير العقل الباطنِ تُعَدُّ من المحال وقت اليقظة .

وتختلفُ الشخصيةُ الثانيةُ عن الأولى كلَّ الاختلاف . وفي حالة التنويم يمكنُ أن تُذكَرَ الحالاتُ المنسيَّةُ بسببِ المرضِ واضطرابِ الشخصية .

وعلى أىِّ حال لا يمكننا أن نَعتمدَ من الوجهةِ العلميةِ الدقيقةِ على النتائجِ التى يمكن الوصولُ إليها بمثل هذا التحليل .
وختاماً أسأل الله الهدايةَ والتوفيق .

(١) إذا كان التخدير عاماً وغير موضعى .

المراجع العربية

- (١) البيان والتبيين للجاحظ .
- (٢) كتاب الأذكياء لابن الجوزي .
- (٣) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ، طبعة دار الكتب
سنة ١٩٢٦ .
- (٤) الإحياء للغزالي .
- (٥) الأملى لأبي على القالى — طبعة بولاق سنة ١٣٢٤ هـ .
- (٦) العمدة لابن رشيق — طبعة الخانجي سنة ١٩٠٧ .
- (٧) زهر الآداب للحصرى القيروانى — شرح الدكتور زكى مبارك .
- (٨) مقامات بديع الزمان الهمذاني — (طبعة اليسوعيين)
- (٩) مجانى الأدب فى حدائق العرب ، للأب لويس شيخو اليسوعى
(طبعة اليسوعيين ١٩١٣) .
- (١٠) الأغانى لأبى الفرج الأصبهاني .
- (١١) ثمرات الأوراق للحموى .
- (١٢) الصنائع لأبى هلال العسكري .
- (١٣) التريية الإنكليزية للمؤلف .
- (١٤) فى علم النفس (ثلاثة أجزاء) للمؤلف مع الأستاذ حامد عبد القادر .

المراجع الإنجليزية

1. Alterations of personality, by Binet, Eng. trans, 1896.
2. Dictionary of philosophy and psychology, Edited by J. M. Baldwin, vol. 11, pp. 284—86.
3. Psychology, by Woodworth. ch. XXI.
4. An Outline of psychology, by William Mc. Dougall, ch. XVIII.
5. Manual of psychology, by Stout, Bk. IV. chaps VII and X.
6. Character and the Conduct of Life, by W. Mc. Dougall, chaps, V and X.
7. Psychology for Teachers, by Lloyed Morgan, ch. X.
8. Psychology of Education, by Welton, ch. XIII.
9. Introduction to psychology, by Loveday and Green, ch. XVI.
10. The Changing School, by P. B. Ballard, ch. VII.
11. Education: Its Data and First principles, by Sir Percy Nunn.
12. The philosophy of Sleep, Mac Nish, 1930.
13. Diseases of personality, by Ribot, Eng trans. 1891.
14. Life of Gladstone, by John Morley.

فهرس الأعلام

(١)

- إبراهيم بن الحسن بن سهل : ٥٣
 إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك : ٧٧ - ٧٩
 إبراهيم بن المهدي : ٧٢
 الأبرش الكلبي : ٥٣
 ابن الأثير : ١٢١ - ١٢٢
 ابن التوام : ١٢٨
 ابن الجوزي : ٣٠ ، ٨٤
 ابن الرومي : ١٠٨
 ابن زياد : ٣٥
 ابن سينا : ٢٢٢
 ابن عبد السلام الهاشمي : ٣٠
 ابن مسكويه : ٩٧
 ابن المعتز : ٧٤
 أبو إسحق محمد المعتصم : ١٩١ ، ١٩٣
 أبو الغتاهية : ٩٤ ، ١١٥
 أبو أمامة : ١١٢
 أبو بكر (رضى الله عنه) : ٨٣
 أبو تمام (الطائي) : ٢٨ - ٢٩ ، ١١٤
 أبو جعفر المنصور : ٢٥ ، ٢٠١
 أبو حامد الخراساني : ٣٠
 أبو حنيفة : ٣٤
 أبو سفيان : ٥٦
 أبو الشيص : ١٠٧
- أبو العباس السفاح : ٧٧
 أبو عبد الله بن جعفر : ٧٣
 أبو العلاء المعري : ٣٥
 أبو العميثل : ٢٩
 أبو هلال العسكري : ٧٦
 أبو يوسف يعقوب الكندي : ٢٩
 أحمد بن طولون : ٣٨
 أحمد بن المعتصم (أمير عباسي) : ٢٨
 الأحنف بن قيس : ٧٣ ، ٧٩ ، ١٢٩ - ١٣٠
 الأدرع : ٨٤ ، ٨٦
 إديسون : ١٥ ، ١٥٧
 أرسطو : ٤٨
 إسحق نيوتن : ١٥ ، ١٩٨
 الإسكندر الأكبر : ٦٣ ، ١٠٣ ، ١٩٩ ، ٢٠١
 أشجع عبد القيس : ٧٥
 أف بري (اللورد) : ١٧٨
 الأفقي الجرهمي : ٢٠ - ٢١
 أفلاطون : ٤٨ ، ١٢٠
 إمرسون : ١٦١ ، ٢٠٣ ، ٢١٠
 أنمار : ١٩ - ٢١
 أوليفر جولد سميث : ٦١
 إياد : ١٩ - ٢١
 إياس القاضي : ٢٤ - ٢٥ ، ٢٨
- (ب)
 باستور (لويس) : ١١٥

الحجاج : ٣١ ، ٣٢ — ٣٣ ، ٩٥ ، ١٣٠
الحسن (رضى الله عنه) : ١٢٨ ، ١٩٦
حمزة بن رافع الدوسي : ١١٧

(خ)

خالد بن عبد الله : ٥٧
خالد بن الوليد : ١٥ ، ٨١ ، ٨٣ ، ١٩٥ ،
١٩٩

(د)

درواس بن حبيب : ١٣٢ — ١٣٣
دزرائيلي : ١٣٦ ، ١٥٦
دكنز (شارلز) : ١٤ ، ١٥٦

(ر)

ربيعة : ١٩ — ٢١
رسكن : ١٦٥
الركاض (صبي) : ٢٦
روبنسن كروزو : ١٣٦ — ١٣٨

(ز)

الزرقاء بنت عدى : ٩٠ — ٩٥

(س)

سالم (غلام رجل من الأنصار) : ١٠٤
ستيفنسون (روبرت لويس) : ٢١٢
سرى السقطي : ٧٥
سعد زغلول : ١٥ ، ١٦٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٦
سقراط : ٧٤ ، ١٢٠
سليمان بن عبد الله : ١٠٠
سليمان بن عبد الملك : ٥٧

المجتري : ١٠٠

بدروسكي : ١٦١

بديع الزمان الهمذاني : ١٧٤

برسي ن « السير » : ١٢

برونتج (روبرت) : ١٦٩

بليريوت : ١٤٦

بليبا : ١٦٩

يسكون (فرنسيس) : ١٧٨

بينيه : ٢٢٥

(ت)

تيم بن جميل : ١٩١

تفسون : ١٦١

(ث)

ثمارة بن الأشرس : ٢٩

(ج)

الجاحظ : ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٢٨

جيرير : ٨٣

جعفر الصادق : ٦٦ ، ٧٥

جعفر بن يحيى البرمكي : ١٢٦ — ١٢٧

جلادستون (المستر) : ٢١١

جن جاك روسو : ١٨٤

جورج واشنطن : ١٥ ، ٤١ ، ٨٠ ، ١٩٩

جوستاف لويون : ١٣٨

جون بنيان : ٢٠٦

جيتيه (الفيلسوف الألماني) : ١٧٦

(ح)

حاتم الطائي : ١٤

عمر بن الخطاب: ١٥، ٥٠ — ٥٢، ٦٧، ٨١

١١٣، ١١٨، ١٢٩، ١٩٦

عمر بن عبد العزيز: ٢٥، ١١٤، ١٥٤

عمرو بن مسعدة: ٥٣ — ٥٤

عنقرة العبسي: ٩٩

عيننة بن حصن: ١١٨

(غ)

غاندي الزعيم الهندي (مهاتما): ١١٥

(ف)

فرعون: ١٢٣

فوول بكستون: ١٩٩

(ق)

قنينة بن مسلم: ١٠٧

قتيلة بنت النضر بن الحارث: ٤٩

قيس بن عاصم المنقري: ٧٣

(ك)

كارليل (توماس): ١٦٥

كثير عزة: ١١٦ — ١١٧

كرزور: ١٦١

كسرى (أحد ملوك فارس): ١١٨

(ل)

لقمان الحكيم: ٧٤

لويد جورج (المستر): ٤٣

(م)

مارتن لوثر: ١٦٥

سنكا: ٤٨

سهل بن هارون: ١٢٧ — ١٢٨

(ش)

شارلي شابلن: ١٥

شاند: ١٣٩

شريح القاضي: ٣١

شلي (پرسی بیش): ٢١٥

الشيباني: ١٠٧

(ص)

صامويل جونسون: ٦٠

صلاح الدين الأيوبي: ١٥

(ض)

ضابئي بن الحارث: ١٩٦

ضرار الصدائي: ٨٨

(ع)

عامر بن الظرب العدواني: ١١٧

عامر بن عبد القديس: ١٢٨

العباس بن عبد المطلب: ١٩

عبد الله بن أبي بكر: ٥٤

عبد الله بن الزبير: ٦٧

عبد الله بن طاهر: ٢٩

عبد الله بن قيس الرقيات: ١٢٥

عبد الملك بن مروان: ٢٨، ٥٥، ١١٧،

١٨٩

عقبة (الرباني الإسرائيلي): ١٦٥

علي بن أبي طالب: ٨٨، ١١٢، ١٩٦

(ن)

النايفة الديباني : ٥٤

نابليون بونابرت (إمبراطور فرنسا) : ١٥٠ ،

٢٠١ ، ١٩٩ ، ٨٨ — ٨٧ ، ٤٥

النجاشي : ١١٣

نزار : ١٩ — ٢١

النضر بن الحارث : ٤٩

(هـ)

هارون الرشيد : ٢٦ ، ٥٧ ، ١١٤

هارون بن عمران : ١٢٣

هربرت سبنسر : ٨٠

هشام بن عبد الملك : ٥٣ ، ١٣٢ — ١٣٣

هيلل : ١٦٥

هيروودوس : ١٤

(و)

وردسورث : ١٥٣ ، ١٦٢

ولبرفورس : ١٩٩

وليام پت : ١٩٥

وليام هازلت : ١٧٤

وولترسكوت (السير) : ٤٧ ، ١٧٩

ولتسون : ١٣٩

(ي)

يحيى بن أكثم : ٧١

يحيى بن حيان : ١١٨

يزيد بن معاوية : ٧٦

يسار (غلام رجل من الأنصار) : ١٠٤

يوسف بن يعقوب بن إبراهيم : ١١٨

يونس بن حبيب : ١٢٧

مارك توين : ١٧٨

مارك رذرفورد : ٢٠٤

ما كنيش : ٢٢٦

ما كولي الأسكتلندي (اللورد) : ٤١

المأمون : ٢٧ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١١٦

المتوكل (الخليفة العباسي) : ١٢٠

محمد بن حميد الطوسي : ٥٦ — ٥٧

محمد بن عبد الله (رسول الله صلى الله عليه

وسلم) : ١١ ، ٤٩ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ١٠٤ ،

١٠٧ ، ١١٢ ، ١٢٢ ، ١٢٦

محمد عبده (الإمام) : ١٦٥٠

محمد فريد : ١٥

المختار : ١٢٥

المسدائي : ٣٥

المسيح = عيسى بن مريم عليه السلام

٧١ ، ١١٣ ، ١٩٧

مسيلة الكذاب : ١٥

مصطفى كامل : ١٥

مصعب بن الزبير : ١٢٥ — ١٢٦

مضر : ١٩

معاوية : ١٥ ، ٢٨ ، ٧٦ ، ٨٨ — ٩٥ ، ١٠٢

المعتصم : ٦٣ ، ١٩١

مكدوجل (وليام) : ١٣٩ ، ١٤٢

مكّن : ١٣٩

المهدي : ٥٣

مورتون برنس (الدكتور) : ٢١٩ ، ٢٢٦

مورق العجلى : ٧٤

موسى (عليه السلام) : ١٢٣

موسى الهادى : ٣٦

الفهرس التفصيلي

ص	الموضوع	ص
٢٧	المؤمن والحسن بن رجا	٣
٢٧	الأصمعي والغلام العربي	٥
٢٨	ذكاء إياس بن معاوية	
٢٩	رأى الفيلسوف يعقوب الكندي في أبي تمام	
٢٩	أبو تمام وعبد الله بن طاهر	
٢٩	ثمالة بن أشرس والصبي	
٣٠	أبو حامد الخراساني القاضي والعجوز	
٣١	الحجاج وامرأة من الخوارج	
٣١	شريح القاضي	
٣٢	الحجاج والأعرابي	
٣٣	الحجاج وأحد الشيوخ	
٣٣	حيلة الإمام أبي حنيفة في القبض على اللصوص	
٣٤	الإمام أبو حنيفة والأعرابي	
٣٥	ذكاء جارية	
٣٦	موسى الهادي والتخلص من الخارجي	
٣٧	الأعرابي والأمير	
٣٨	أحمد بن طولون والجاسوس	
٣٩	ذكاء نديم	
٣٩	أثر ذكاء « أبراهام لنكولن »	
٤١	حضور بديهة « اللورد ماكولي »	
٤٢	سرعة الخطار لدلي « المسترلويد جورج »	

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٦٥	مظاهر الشجاعة	٤٤	المشاركة الوجدانية وأثرها في الشخصية
٦٥	الشجاعة في ضبط النفس	٤٥	قسوة « نابليون »
٦٥	الحسن بن علي وضبط النفس	٤٥	الرؤساء والمشاركة الوجدانية
٦٦	جعفر الصادق وضبط النفس	٤٧	(السير وولتر سكوت) والمشاركة الوجدانية
٦٨	الخواف الوهمية تكثر عند ضعف الشخصية	٤٩	قتيلة بنت النضر
٧٠	الشجاعة في مقاومة مصاعب الحياة	٥٠	تتمثل المشاركة الوجدانية في سيدنا عمر بن الخطاب
٧١	« المسيح عليه السلام » وضبط النفس	٥٣	عطف المهدي على أعرابية
٧١	عفو المأمون	٥٣	عطف المأمون على عمرو بن مسعدة
٧٢	إبراهيم بن المهدي والمأمون	٥٤	رأفة عبد الله بن أبي بكر بأعرابية
٧٣	الجارية وأبو عبد الله بن جعفر	٥٥	عفو المأمون عن رجل أذنب
٧٣	حلم الأحنف بن قيس	٥٥	عفو عبد الملك بن مروان عن رجل بعد الأمر بقتله
٧٤	ما قاله لقمان وقيس بن عاصم وبعض الفلاسفة في الحلم	٥٥	إحسان محمد بن حميد الطوسي إلى من أساء إليه
٧٥	أوجه الحلم	٥٧	عفو سليمان بن عبد الملك
٧٧	إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك	٥٨	حكايات عن (أبراهام لنكولن) تتمثل فيها المشاركة الوجدانية
٨٠	رأى (هربرت سبنسر) في ضبط النفس	٦٠	(صامويل جونسون) وعطفه على البائسين
٨٠	(جورج واشنطن) وكمثال الشعور	٦١	الطبيب أوليفر جولد سمث
٨٠	الشجاعة في التغلب على الصعاب		الفصل الخامس
٨١	شجاعة عمر بن الخطاب	٦٢	الشجاعة فضيلة
٨١	شجاعة خالد بن الوليد	٦٣	المعتصم والجبان
٨٤	جرأة الأدرع		
٨٦	شجاعة ملك الفرس		
٨٧	إقدام (نابليون بونابرت)		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٨٨	الشجاعة في إبداء الرأي	٨٨	شجاعة ضرار الصدائى في وصفه
٩٠	ل سيدنا على	٩٠	معاوية والزرقاء
٩٥	الحجاج والاعتراض عليه في إطالة الخطبة	٩٥	الحجاج والاعتراض عليه في إطالة الخطبة
	الفصل السادس		الحكمة وسداد الرأي
٩٦	الحكمة وسداد الرأي	٩٦	رأى ابن مسكويه في الحكمة
٩٧	رأى ابن مسكويه في الحكمة	٩٩	حزم عنتره العيسى
٩٩	حزم عنتره العيسى	١٠٠	أحزم الناس وأخرفهم
١٠٠	أحزم الناس وأخرفهم	١٠٠	ماقاله البحرى في سليمان بن عبد الله
١٠١	ما تتطلبه الحكمة قبل الشروع في الفعل	١٠١	ما يحول دون الحكمة
١٠١	ما يحول دون الحكمة	١٠٢	حزم معاوية بن أبى سفيان وحمله
١٠٢	حزم معاوية بن أبى سفيان وحمله	١٠٣	الإسكندر الأكبر
١٠٣	الإسكندر الأكبر		الفصل السابع
	التفاوت . وتمثله لدى الرسول الكامل	١٠٤	التفاوت . وتمثله لدى الرسول الكامل
١٠٥	ينشأ التشاؤم عن ضعف النشاط ووهن الرقابة العقلية	١٠٥	ينشأ التشاؤم عن ضعف النشاط ووهن الرقابة العقلية
١٠٧	تفاوت قتيبة بن مسلم	١٠٧	ما قيل في التفاؤل والتشاؤم
١٠٧	ما قيل في التفاؤل والتشاؤم	١٠٨	ابن الرومى كان كثير التطير
١٠٨	ابن الرومى كان كثير التطير	١٠٩	لا تزال روح التشاؤم سائدة في الحرافات
١٠٩	لا تزال روح التشاؤم سائدة في الحرافات		
	الفصل الثامن		
١١٠	التواضع أساس للشخصية المحبوبة	١١٠	التواضع أساس للشخصية المحبوبة
١١١	التواضع في غير ذلة سبيل النجاح	١١٢	تواضع الرسول صلى الله عليه وسلم
١١٢	تواضع الرسول صلى الله عليه وسلم	١١٣	تواضع سيدنا عمر وعمر بن عبد العزيز والنخاشى
١١٣	تواضع سيدنا عمر وعمر بن عبد العزيز والنخاشى	١١٥	تواضع (لويس باستور) العالم الفرنسى
١١٥	تواضع (لويس باستور) العالم الفرنسى	١١٥	تواضع (المهاتما غاندى)
١١٦	التصنع والتظاهر والجمعجة من علامات الضعف	١١٦	ليس من الحكمة أن يفتر الإنسان بالمظاهر
١١٦	ليس من الحكمة أن يفتر الإنسان بالمظاهر	١١٧	ماقاله حمزة بن رافع الدوسى عند ملك من ملوك حمير
١١٧	ماقاله حمزة بن رافع الدوسى عند ملك من ملوك حمير	١١٨	ابن الأخيار وابن الأشرار
١١٨	ابن الأخيار وابن الأشرار		الفصل التاسع
	حسن مظهر الإنسان وقوامه وأثره في الشخصية	١١٩	حسن مظهر الإنسان وقوامه وأثره في الشخصية
١٢٠	إن من يشعر بنقص جسمى يتجمل ليكمل ذلك النقص	١٢٠	شخصية سقراط
١٢٠	شخصية سقراط	١٢٠	شخصية الجاحظ
١٢٠	شخصية الجاحظ	١٢١	ابن الأثير
١٢١	ابن الأثير		الفصل العاشر
	قوة البيان تكسب الإنسان شخصية قوية	١٢٣	قوة البيان تكسب الإنسان شخصية قوية

الموضوع	ص
اعتدال المزاج وأثره في الشخصية	١٣٩
اختلاف الناس في الأمزجة	١٤٠
أقسام الأمزجة	١٤٠
آراء العلماء قديماً وحديثاً في الأمزجة	١٤٠
تأثير المزاج بالمواد الكيميائية	١٤٢
وفرازات الغدد	
العناصر التي يجب أن تحقق في الشخصية القوية	١٤٣
الفصل الثالث عشر	
أنواع الشخصية	١٤٤
الشخصية العملية	١٤٤
الشخصية العملية أكثر أثراً في الحياة	١٤٥
من الشخصية الخيالية	
عناية التربية فيما مضى بالعلم أكثر	١٤٦
من العمل	
يجب أن يكون العلم وسيلة للعمل	١٤٧
يكاد العالم المادى يقضى على العالم	١٤٩
الروحي	
هل يمكن الجمع بين الروح والمادة	١٤٩
في آن واحد ؟	
العزيمة الصادقة سر عظيم من أسرار	١٥١
الشخصية العملية	
الفصل الرابع عشر	
وسائل تقوية الشخصية العملية	١٥٢
يجب تحديد الغرض ومعرفة الطريق	١٥٢
الموصل	

الموضوع	ص
موسى وفرعون وهرون	١٢٣
تأثير مصعب بن الزبير بطلاوة العبارة	١٢٥
آراء الجاحظ في البيان والتبيين	١٢٦
جعفر بن يحيى البرمكي وقوة البيان	١٢٦
ماقاله سهل بن هرون ، ويونس بن	١٢٧
حبيب ، وابن التوام في البيان	
ماقاله عامر بن عبد القيس في قوة	١٢٨
البيان	
تأثير عمر بن الخطاب بحسن بيان	١٢٩
الأحنف بن قيس	
الحجاج وفصاحة الفتيان الثلاثة	١٣٠
درواس وهشام بن عبد الملك	١٣٢
الفصل الحادى عشر	
الثقة بالنفس والاعتماد عليها	١٣٤
ينبغي أن نعود الأطفال الاستقلال	١٣٤
الشخصى	
ما يتطلبه الاعتماد على النفس من الأمور	١٣٥
الرجل الواثق بنفسه وقوله وفعله	١٣٦
يستطيع أن يقف وحده منادياً برأيه	
روبسن كروزو والاعتماد على النفس	١٣٦
المصلحون يسبقون في آرائهم المجتمع	١٣٦
الذى يعيشون فيه بعشرات السنين	
رأى (جوستاف لوبون) في الثقة	١٣٨
بالنفس	
الفصل الثانى عشر	
تعريف المزاج	١٣٩

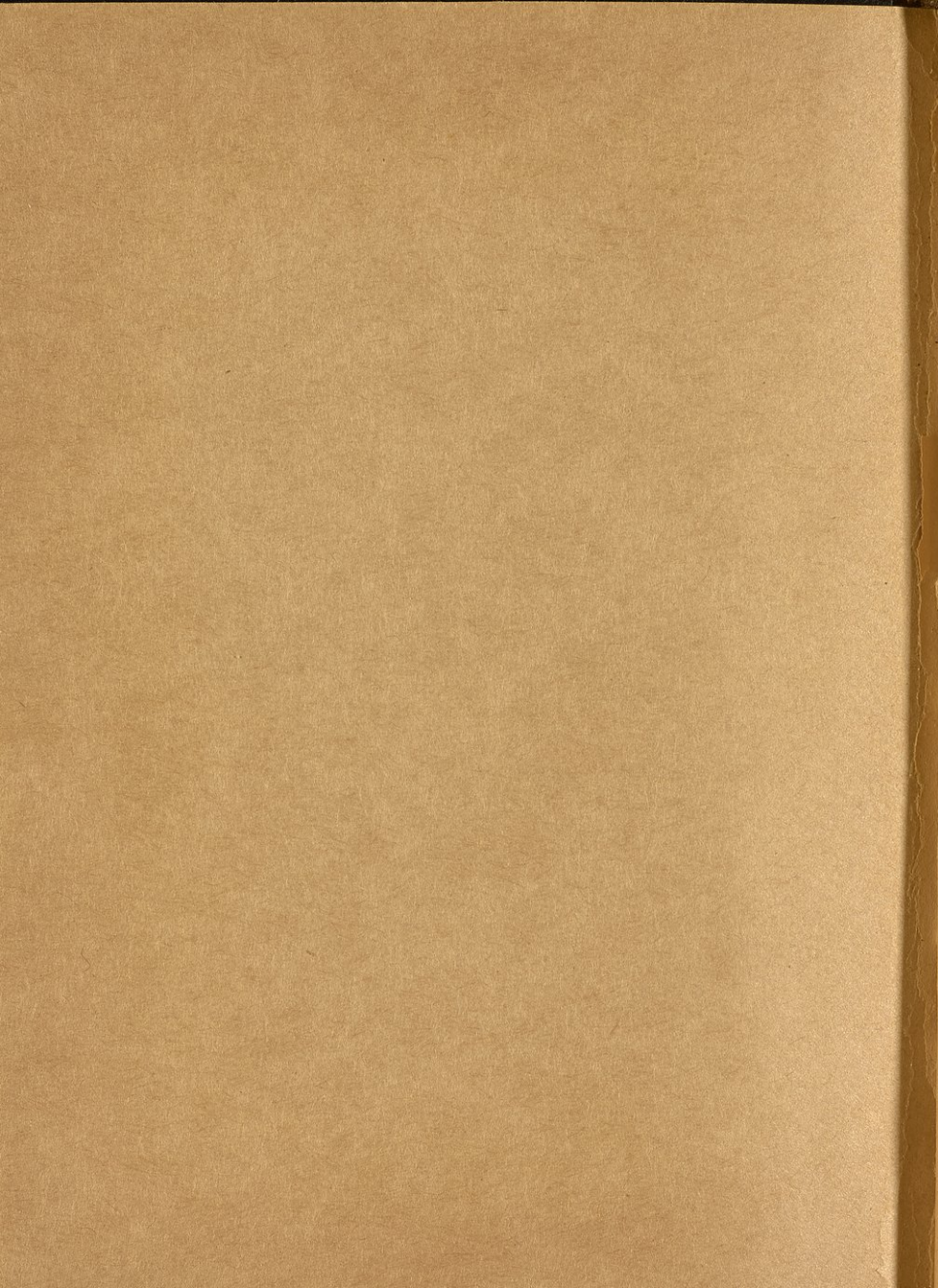
ص	الموضوع	ص	الموضوع
١٥٣	رأى (وردسورث) الشاعر الإنكليزي في تعيين الغرض	١٦٣	الزعم الخالد سعد زغلول باشا والعظمة الإنسانية
١٥٤	عمر بن عبد العزيز وعلو الهمة	١٦٣	قوة الوازع الديني والشخصية
١٥٤	الرغبة في العمل وأثرها في النجاح	١٦٥	المصلحون من المسلمين
١٥٥	رغبة (أبراهام لنكولن) في تحرير العبيد	١٦٥	(هليل) والرياني (عقيمة) من الإسرائيليين
١٥٦	رغبة (شارلز دكنز) في الإصلاح الاجتماعي	١٦٥	مارتن لوثر ، وكارليل ، وورسكن من المسيحيين
١٥٦	رغبة (دزرائيلي) في شراء أسهم قناة السويس خلدت ذكره بين الإنكليز		الفصل الخامس عشر
١٥٧	إديسون والأعمال (الميكانيكية)	١٦٨	الشخصية الفكرية أو الخلقية
١٥٨	الرغبة نوعان : مباشرة وغير مباشرة	١٦٨	في العمل تتمثل روح صاحبه وأفكاره وأخلاقه .
١٥٩	المثل الأعلى في أن نعمل رغبة في العمل للحصول على شخصية عملية قوية	١٦٩	وصف (روبرت بروننج) شخصية (بيبا)
١٦٠	يجب أن يصحب العمل برغبة طبيعية	١٧٠	الشخصية القوية وأثرها في النجاح
١٦٠	الشعور بالواجب خير كفيل لمضاعفة العزيمة	١٧١	الشخصية القوية لا تستدعى جلبه ولا ضوضاء
١٦١	(إمرسون) والشعور بالواجب	١٧٢	الفرق بين الشخصيتين : العملية والفكرية
١٦١	العلاقة بين الشخصية والشعور بالواجب	١٧٣	الصفات التي يجب أن تتحقق في الشخصية الفكرية أو الخلقية
١٦١	آثار (بدروسكي) و (كرزلر) في جمال الموسيقى	١٧٣	الهدوء العقلي
١٦٢	آثار (تنسون) و (وردسورث) في روعة الشعر	١٧٤	عن أي شيء يفسأ الاضطراب العقلي؟
١٦٢	الضمير الحي وأثره في الشخصيات الخالدة	١٧٤	(وليام هازلت) وعجزه عن ضبط نفسه
		١٧٥	الرضا بالحياة مع العمل
		١٧٦	قناعة عيسى عليه السلام

الموضوع	ص	الموضوع	ص
الصراحة وعدم الالتواء في الفكر والقول والعمل	١٨٨	(حقيقته الألماني) وميله للمعارضة	١٧٦
صراحة عبد الملك بن مروان	١٨٩	(اللورد أف برى) ورأيه في السعي للنجاح في الحياة	١٧٨
صراحة المرحوم سعد زغلول باشا	١٨٩	(مارك توين) والمحافضة على الآمال	١٧٨
كثرة التردد في الرأي والقول والفعل	١٨٩	(بيكون) ووجوب السعي	١٧٨
تقليل من منزلة الإنسان		البشاشة ورُحْب الصدر	١٧٨
تميم بن جميل والمعتمض	١٩١	شخصية (السير وولتر سكوت) تتمثل في متانة أخلاقه	١٧٩
حب المسؤولية وعدم الفرار منها	١٩٣	من مظاهر قوة الشخصية الفكرية	١٧٩
الصبر ورأى (وليام پت) فيه	١٩٥	التغلب على العاطفة	
آراء في الصبر	١٩٦	الفصل السادس عشر	
الجزع يؤدي إلى الإخفاق	١٩٦	مضاعفات الشخصية	١٨١
(إسحق نيوتن) وهبة الصبر	١٩٨	اتكال الشخص على غيره	١٨١
المثابرة من أهم صفات الشخصية العظيمة	١٩٩	التأثر بالعادات والتقاليد	١٨١
(فوول بكستون) لم يعرف الرجوع إلى الوراء	١٩٩	الشخصية لا يمكن أن تنمو في قفص من حديد	١٨٢
إذا وجدت الإرادة الحديدية وجدت قوة الشخصية	٢٠٠	في التمسك بالأفكار التي تقرأ تحكم في الشخصية	١٨٣
الإسكندر المقدوني ونابليون وقوة الإرادة	٢٠١	(چن چاك روسو) وترية الشخصية	١٨٤
نابليون	٢٠١	من مضاعفات الشخصية تحكم ميول الشخص فيه	١٨٥
الفصل الثامن عشر		الفصل السابع عشر	
الإخلاص روح الشخصية	٢٠٢	الصفات الكمالية للشخصية	١٨٦
الأمانة روح الإخلاص	٢٠٣	الذاتية أو الاستقلال الذاتي	١٨٦
الغيرة على العمل نتيجة الإخلاص	٢٠٣	الفرق بين الشخصية والذاتية	١٨٧
تظاهر الإنسان بغير الحقيقة ينافي الإخلاص	٢٠٤	العوامل التي تمتاز بها الذاتية	١٨٨
رأى (مارك زدر فوررد) في الإخلاص	٢٠٤		

الموضوع	ص	الموضوع	ص
مرض الشخصية الإنسانية واضطرابها	٢٢٠	٢٠٦ (نجاح الحاج) لچون بنیان .	
أمثلة لانقسام الشخصية	٢٢٠	٢٠٧ مما يساعد على الإخلاص الدقة في	
المرأة العاهر	٢٢١	القول والتفكير	
الضابط الفرنسي	٢٢١	الفصل التاسع عشر	
الولد المريض بالمليخوليا	٢٢٢	٢٠٩ الحماسة وأثرها في الشخصية	
ابن سيننا والرجل المصاب بالمليخوليا	٢٢٢	٢١١ انصراف الشبان إلى الملاحى	
ابن سيننا والأمير المريض	٢٢٤	٢١٢ قوة الهجوم	
اختلاف الشخصية والسلوك	٢٢٦	٢١٣ حسن التعبير عن الشعور	
رد الدكتور (مورتون برنس) على	٢٢٦	٢١٤ قوة الإحساس	
من يشك في تعدد الشخصية		٢١٥ وصف الشاعر الإنكليزى (شِلى)	
أسباب انقسام الشخصية وما يعترى	٢٢٨	للنبات الحساس	
المريض في حالته غير الطبيعية		الفصل العشرون	
الرجل السكير وابنته الصغيرة	٢٢٨	٢١٧ اضطراب الشخصية	
تحليل الشخصية	٢٢٩	٢١٨ انقسام الشخصية	
المراجع العربية	٢٣١	٢١٨ رواية (الدكتور جيكل والمسترهايد)	
المراجع الإنكليزية	٢٣٢		

كتب أخرى للمؤلف

٥٠	(١)	روح التربية والتعليم
٥٠	(٢)	الاتجاهات الحديثة في التربية
٥٠	(٣)	التربية والحياة
٤٠	(٤)	في علم النفس ج ١ بالاشتراك مع الأستاذين عبد القادر ومظهر
٥٠	(٥)	في علم النفس ج ٢ بالاشتراك مع الأستاذ عبد القادر
٦٠	(٦)	» » » » ج ٣ » » » »
٣٠	(٧)	التربية الإنكليزية
١٠	(٨)	أروع القصص
١٠	(٩)	قصص في البطولة والوطنية
١٠	(١٠)	خليفة في الخيال
١٠	(١١)	الحصان المسحور
١٠	(١٢)	في سبيل الوطن
	(١٣)	المفصل في اللغة السريانية وآدابها (طبعة الوزارة)
	(١٤)	الأساس في اللغة العبرية وآدابها (طبعة الوزارة)



التمن
١٥

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

DATE BORROWED	DATE DUE	DATE BORROWED	DATE DUE
C28 (449) M50			

150

Ib5

150

Ib5

Ibrashi

Al-shakhsiya.

MAY - 6 1949

BINDER
R-106

JUN 29 1949

